قصد الله والحياة المسيحية

الدكتور فريد ل. فيشر

دار النشر المعمدانية

All Rights Reserved
جميع الحقوق محفوظة – الرجاء التقيد
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إليكترونية أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن خاص ومكتوب من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل.
يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي فقط وليس بهدف بيعها أو المتاجرة بها بأي طريقة كانت ومهما كانت الأسباب.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المحتويات

مقدمة عامة
القسم الأول: قصد الله وتاريخ الفداء
مقدمة- أولوية الله
الفصل الأول- في البدء
الفصل الثاني- قصد الله في الطبيعة
الفصل الثالث- قصد الله في تاريخ العالم
الفصل الرابع- قصد الله في إسرائيل
الفصل الخامس- قصد الله في المسيح
الفصل السادس- قصد الله في العصر المسيحي
الفصل السابع- قصد الله في اكتمال الدهور
الفصل الثامن- قصد الله والخطية
القسم الثاني: قصد الله والإنسان الفرد
مقدمة- اهتمام الله بالفرد
الفصل التاسع- للرب الخلاص
الفصل العاشر- الهلاك من الإنسان
الفصل الحادي عشر- الخلاص هو بالاختيار
الفصل الثاني عشر- الاختيار هو بمقتضى العلم السابق
الفصل الثالث عشر- قصد الله والحرية البشرية
الفصل الرابع عشر- قصد الله والوسائل البشرية
الفصل الخامس عشر- العيش بموجب قصد الله
ملحق الملاحظات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مقدمة عامة

ما الداعي لتأليف هذا الكتاب الذي يدور البحث فيه حول قصد الله بعدما كُتب الكثير في هذا الموضوع؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في اقتناع المؤلف بأن هناك ضرورة وحاجة لهذا الكتاب بالذات، ولولا الحاجة لما كان من مبرّر لكتابة أي كتاب ونشره.

هناك حاجة لهذا الكتاب بسبب البلبلة الكثيرة القائمة حول موضوع قصد الله في الفداء. إن أحد الأخطاء الشائعة في القضايا اللاهوتية، بالنسبة للناس العاديين على الأقل، هو القول بضرورة الأخذ بأحد طرفَي أية عقيدة لاهوتية ونبذ الطرف الآخر. لكننا ننسى أن هذا البتّ بين جانبي العقيدة ليس ضرورياً في كل الأحوال. فالجواب قد يكون أحياناً شاملاً للجانبين أو حتى رافضاً للجانبين.

إن الجدل حول مسألة الاختيار والتعيين السابق يعود، في التاريخ، إلى النزاع الذي جرى بعد الإصلاح البروتستنتي بقليل بين حركتين هما الكلفينية والأرمينية. لقد فسّرت كل واحدة من هاتين الحركتين قصد الله في خلاص الفرد بطريقة تناقض الأخرى. قال الكلفينيون أن خلاص الفرد ينتج من تصميم الله السابق لخلاص ذلك الفرد، وما هذا التصميم إلاّ جزء من قصد الله الأزلي. وأكّدوا، بالإضافة إلى ذلك، وكنتيجة طبيعية حتمية (أو هكذا بدت لهم)، إن الأشخاص الذين هم غير مختارين للخلاص قد سبق الله فعيّنهم، بحكم إلهي، للهلاك الأبدي. وظهر الأرمينيون فيما بعد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فقالوا بأن خلاص كل إنسان يعتمد على إيمانه الشخصي بيسوع المسيح. لم ينكروا قصد الله، لكنهم أصرّوا على أن قصد الله في خلاص أي فرد مؤسّس على عمله السابق بأن الفرد أو الأفراد سيؤمنون بالمسيح فينالون الخلاص. أما هلاك الذين لا يخلصون فسببه، في رأي الأرمينيين، رفض أولئك لنعمة الله.

من هي المدرسة الفكرية الصائبة من هاتين المدرستين؟ إن ما يقول به هذا الكتاب هو أن المدرستين على صواب في بعض النواحي الهامّة، وفي الوقت ذاته على خطأ في نواحي هامة أخرى. إذا كان لا بدّ للمؤلف من أن ينتسب إلى واحدة من هاتين المدرستين فإنه يفضّل أن يُحسب كلفينياً، ولكن ببعض التحفظات الهامّة. لقد كان همّ المؤلف في جهده هذا أن يعالج موضوع قصد الله الفدائي كله من وجهة نظر العهد الجديد، وأن يسعى ليفهم ما تُعلّم به هذه الأسفار المقدسة، وأن يجعل عقيدته متكيّفة بتلك التعاليم. لكن، هناك الجدل اللاهوتي بما له من تاريخ حافل، ولا يقدر أن يعزل نفسه تماماً من ذلك الجدل. لذلك فقد حاول ألا يتورّط في ذلك الجدل إلا إلى الحد الأدنى حيث تدعو الضرورة القصوى.

وحاول المؤلف أيضاً أن ينتفع من الاكتشافات الجديدة الهامة في مجال لاهوت التاريخ، وهي الاكتشافات التي صار التّوصل إليها في الحيّز العلمي في جيلنا الحاضر. لقد تبيّن أنه لا يمكن الفصل بين قصد الله في التاريخ وقصده في الخلاص. من هنا جاء تقسيم هذا الكتاب إلى قسمين يكمّل كلّ منهما الآخر ولا يمكن فهم الواحد بمعزل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عن الآخر. إن بعض الفصول التي وُضِعت في أحد قسمي هذا البحث كان يمكن أن توضع في القسم الآخر. والمرجو أن القارئ، إذ يطّلع على جميع العناصر التي يتكوّن منها هذا البحث، يستطيع التوصّل إلى شيء من فهم مجد الله كما يُرى في قصده الفدائي في العالم.

لكن ما ضرورة هذا البحث؟ إنه ضروريّ لتأسيس قاعدة للحياة الدينيّة، والإيمان، والممارسة. إن الدين، وبخاصة الدين المسيحي على أقل تقدير. يتأسّس على الاعتقاد بحضور الله في العالم، حضوراً خلاّقاً وبموجب قصد. إذا غابت هذه الحقيقة عن ناظرنا لا يظل أي معنى للتكلّم عن الصلاة، أو الإيمان، أو التسليم لله، أو محاولة خدمته. والعالم المسيحي عرضة لخطر إضاعة هذا الأساس. إن كثيراً من المسيحيين وكثيراً من الوعاظ كذلك تأثروا بالبلبلة القائمة حول هذه القضايا فطرحوا جانباً الاعتقاد بقصد الله حتى أصبح في المؤخرة بالنسبة لسائر عقائدهم. لقد أصبح هذا الاعتقاد عنصراً مُهمَلاً، إن لم يكن منسياً، في إيماننا. إننا نواصل استخدام العبارات والاصطلاحات التي استخدمها آباؤنا، ونشدّد على الإيمان بالله وممارسة الصلاة، ونشر البشارة. ولكن مركز الثقل ابتدأ ينتقل تدريجياً من التشديد على قصد الله الخلاّق إلى جهود الإنسان، وأهميته، واعتباره. إن هذا الانتقال، في اعتقادي، خطر رهيب يهدّد ممارسة الإيمان المسيحي والدعوة إليه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حاولت أن أكتب بعبارات بسيطة يسهل فهمها على العلمانيّ، لكن ما حيلتي والقضايا التي نبحثها معقدة بطبيعتها فلا يمكن تقديم الموضوع على نحو بسيط سهل؟ حاولت كذلك أن يكون بحثي دقيقاً كي يكون ذا نفع للطالب والعالم كما هو للعلماني. أنا أعرف أن هذه الأهداف بعيدة المنال، ولا أدّعي أني نجحت في بلوغها. أترك الحكم في هذا للقارئ. وإني أرجو إله النعمة، أبا ربنا يسوع المسيح، أن يهبك الإنارة التي أنت في حاجة إليها لكي تفهم قصده تعالى وعلاقة ذلك القصد بالحياة المسيحية.

فريد ل. فيشر

مدينة مل فالي، كليفورنيا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القسم الأول

قصد الله وتاريخ الفداء

مقدمة

أولوية الله

إن الحقيقة الأساسية للتاريخ ليست الخطية ولا الخليقة بل أولوية الله المطلقة في العالم وفي تاريخه. هذا ما قاله اثلبرت ستاوفر في كتابه "لاهوت العهد الجديد". كل الأشياء تبدأ بالله. خذ، مثلاً، التاريخ الفدائي، الذي هو موضوع الكتاب المقدس، فهو يبدأ بالتصريح بعمل الله في الخلق، ويفترض وجود الله وقصد الله. استخدم اللاهوتيون بعض التعبيرات ليصفوا أولوية الله في التاريخ وفي الفداء، فقالوا بالعلم السابق، وتعيين المصير، والتعيين السابق، والعناية الإلهية، والاختيار. إننا سنبحث في كل ما تعنيه هذه التعبيرات المختلفة في أثناء بحثنا لقصد الله. إننا نفترض أن لله قصداً– قصداً ينفّذه الله في العالم. إن إيصال هذا القصد إلى نهايته لا يتحقق نهائياً في التاريخ، فالهدف يقع في ما وراء التاريخ في الحياة القادمة التي تعلّمنا أن ندعوها باسم السماء.

إن هذه الفكرة، أي فكرة عمل الله بموجب قصد في التاريخ، هي إحدى الأفكار المركزية، إن لم تكن الفكرة المركزية في الكتاب المقدس كله. إنها بمثابة المركز لكلا العهد القديم والعهد الجديد، كما يقول إميل برونر في كتابه "العقيدة المسيحية بالله". يعبّر سفر الرؤيا باستمرار عن إيمان الرسول يوحنا بأن الله هو محرّك التاريخ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهو هدفه النهائي، فيقول بلسان الرب: "أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن، والذي كان، والذي يأتي، القادر على كل شيء" (رؤيا 1: 8). إن فكرة عمل الله بموجب قصد فكرة يعبّر عنها بولس كثيراً وهي جزء أساسي من تعليمه اللاهوتي. نجده يقول عن الله: "لأن منه وبه كل الأشياء. له المجد إلى الأبد" (رومية 11: 36). إنه يرى أن خلاص كل مؤمن يعود من حيث مصدره إلى اختيار الله لذلك المؤمن (أفسس 1: 4- 5). وإن سير التاريخ الفدائي ما هو إلا إتمام لقصد الله (أفسس 1: 11). وإن خلاصه، أي خلاص بولس، ودعوته للخدمة الرسولية هما أمران سبق الله فعرفهما ثم أنجزهما (غلاطية 1: 15- 16). يقول هذا الرسول في تصريحه اللاهوتي الرائع عن معنى المسيح: "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه" (2 كورنثوس 5: 19).

وعلينا أن نحذر من الظن بأن عقيدة قصد الله هي من ابتكار الرسول بولس، إذ أن هذه العقيدة محكومة في نسيج الكتاب المقدس من بدايته إلى نهايته. إبراهيم، مثلاً، دُعي من الله، وانقاد في حياته به، وكان لا يجد أي معنى لحياته إلا بعمله إرادة الله (التكوين- الإصحاحات 12- 15). وموسى، إقامة الله وكلّفه بإنقاذ بني إسرائيل (خروج 3). إلا أن الثنا على الإنقاذ من العبودية لم يوجّه إلى موسى بل إلى الله (خروج 20: 1- 2). وسفر القضاة مجموعة قصص تروي كيف أنقذ الله الشعب في أزمنة الضيق والمحن. وإذا تأملنا في تاريخ رجال من أمثال داود، وسليمان، وأشعيا، وأرميا، نجد أنه ليس إلاّ إظهاراً لتحرّك الله وعمله في حيّز الحياة البشرية. إن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

علماء العصر الحديث، في دراستهم للعهد القديم، لم يُبدوا إلاّ القليل من الاهتمام بعقيدة قصد الله. لكن، كما يقول ج. أرنست رايت (G. Ernest Wright) في تفسيره للعهد القديم: "لا يمكن أن نفهم معنى العهد القديم ولا تاريخ بني إسرائيل فهماً حقيقياً إلا إذا وجّهنا انتباهنا الدقيق إلى هذه العقيدة"، أي عقيدة قصد الله. ليست هذه العقيدة مركز الكتاب المقدس وحسب بل هي أيضاً أساس الإيمان بالله. يقول ويكندن (Wickeder): "من دون هذه العقيدة ينهار الاعتقاد بأن الله متمّم قصده في العالم. يتكلم اللاهوتيون، أمثال ولترت. كونر (5)، فيقولون أن الله مُطلَق، ويعنون بذلك أنه كامل ومستقلّ وقائم بذاته. لا شيء يتحكّم به بل هو يحكم في كل شيء. ولا يمكن أن يقال عن الله، بالنسبة لعلاقته بالعالم، أنه يعمل كل ما يمكن عمله من الخير حسبما تسمح الأحوال. فإن الله، إذا كان مطلقاً ونهائياً، هو العامل الخلاّق في تاريخ العالم. لابدّ من أنه يقوم بإتمام قصد، ولابدّ من أنه يسير نحو الهدف. يستحيل أن يكون لنا إيمان حقيقي بالله وفي الوقت ذاته نعتقد أن أي شيء قد يتمكن في النهاية من إحباط مساعيه تعالى ومنعه من إنجاز قصده. ولكن هذا لا يعني من الناحية الأخرى أن كل ما يجري هو وفق رغبة الله. من الواجب أن نميّز بكل اعتناء بين رغبة الله وقصد الله. نرجو أن نتمكن من توضيح هذا التمييز في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

هناك عقيدة تدعى "دايزم" (Deism) يعتقد أصحابها بالله لكنهم ينكرون الوحي والتنزيل ويقولون أن الله لا يتدخّل في شؤون الكون. تقول هذه العقيدة أن الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مطلق، بينما تنكر أن له قصداً فاعلاً في العالم. هذه العقيدة "الدايزم" لتتّفق مع الفكرة المسيحية عن الله. يستخدم كل الكتّاب المسيحيين تقريباً كلمات مثل "المحبة،" و "البرّ،" و العدل،" و "القداسة،" وهم يحاولون أن يصفوا طبيعة الله بتعبيرات يفهمها العقل البشري. لكن هذه الصفات تظل بلا معنى إذا لم تقترن بالاعتقاد بقصد الله في الله. إذا كانت المحبة لا تخطّط ولا تعمل لخير المحبوب فهي ليست محبة أصلاً. والبرّ الذي لا يسعى لإحباط الشرّ وسيطرته ليس برّاً. وكذلك العدل الذي لا يعمل على إحقاق الحق ليس عدلاً. لذلك نرى أن أساس الإيمان المسيحي بالله هو الإعتقاد بقوة الله العاملة المتحركة في العالم. إن عقيدة قصد الله تعتبر من العقائد الأساسية في اللاهوت المسيحي.

نجد كذلك أن معنى الحياة الدينية مؤسس على الاعتقاد بأن الله إله قصد وقوة. يقول جيمس أور "أن من صميم الدين الشعور بالاعتماد على الله وعدم الاستقلال عنه". تصرخ نفس الإنسان طالبة من يمكنها أن تعتمد عليه وأن تصلي إليه، معتقدة بأن الحياة والظروف التي في العالم يمكن أن تتغيّر إلى الأفضل. يجد الإنسان حاجته في الله وفي الكتاب المقدس. لكن الإنسان لا ينتفع من كل ذلك إلا إذا كان لله قوة حقيقية عاملة في العالم وكان له قصد يعمل في اتجاه إحقاق الحق. إذا لم يكن الله إلهاً حقاً فإنّ الدين يتبخر ويمسي عدماً. إذا كان الإنسان يصلي معتمداً على الله لا يهمّه أن يعمل ولا يستطيع أن يعمل في العالم من أجل الإنسان فصلاة هذا الإنسان وديانته وعقائده وهم وخداع.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكن الاعتقاد بإله له قصد هو أيضاً يخلق مشاكل ليس من السهل حلّها. إن في الإيمان المسيحي عناصر من الإبهام وألغازاً كثيرة. يصعب على المرء، مثلاً، أن يفهم كيف يكون الله سيّد الكون ويترك قوى الطبيعة في بعض الأحيان تصخب وتـــدمّر. يصعب على المرء أن يفهم كيف يكون الله سيّد التاريخ بينما تزخر حياة البشر بالكثير مما لا يريده الله ولا يرضى به. كيف يكون الله مخلّص البشر بينما أكثرية البشر مـــا زالت غير حاصلة على هذا الخلاص؟ إنّ قصدنا في هذا الكتاب هو محاولة بيان عقيدة "قصد الله"، سواء على مسرح التاريخ أو في حياة الإنسان الفرد. إن الغرض من ذلك هو ملاشاة بعض عناصر الإبهام في هذه العقيدة والعودة بها إلى مكان الصـــدارة في الفكر المسيحي وهو المكان الذي تستحقه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الأول
في البدء

يبدأ سفر التكوين سرده لأعمال الله العظيمة بالعبارة "في البدء خلق الله السموات والأرض" (تكوين 1: 1)، وكل الكتاب المقدس يتّفق مع هذه الفاتحة الكتابية. فنجد يسوع، في تعليمه عن علاقة الله بالعالم، يتّخذ فكرة كون الله هو الخالق كأساس لتعليمه ذاك. ويوحنا يبدأ إنجيله بالتأكيد أن يسوع كان موجوداً عند بداية العالم وأنه الكلمة الأزلي وبه كانت كل الأشياء (يوحنا 1: 1- 3). اختلف الباحثون فيما بينهم عن المصدر الذي منه أخذ يوحنا، حسب ظنهم، عقيدة "الكلمة"، والواقع أن ذلك المصدر هو العهد القديم، وبنوع خاص الإصحاح الأول من سفر التكوين حيث نجد القول بأن الله تكلّم وبرز العالم إلى حيز الوجود. واستفانوس، وهو يتكلم أمام مجمع السنهدريم اليهودي، اقتبس من النبي أشعيا ليبيّن أن المؤسسات اليهودية- كالهيكل والذبائح- لا يمكن أن تكون أبدية لأن السماء، لا الهيكل، هي عرش الله والأرض هي موطئ قدميه (أعمال 7: 49). وواضح أن الاعتقاد بأن الله هو خالق الطبيعة والمتسلّط عليها كامن ضمن هذه الآية.

والخليقة هي الشعار الأساسي الذي حوله تدور فكرة بولس عن العالم الطبيعي. تشهد الطبيعة شهادة واضحة لقوة خالقها وألوهيته، حتى أن عبادة الأوثان أمست بلا مبرّر أو عذر (رومية 1: 19- 21). والخليقة في حالتها الحاضرة متوقّفة على إرادة الله، وما تتوقعه في المستقبل يستند إلى قصده (رومية 8: 19- 22).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وضع الله أعضاء الجسم البشري في وحدة عجيبة بعضها مع بعض (1 كورنثوس 12: 18- 24). الله الآب هو الذي منه جميع الأشياء ونحن له (1 كورنثوس 8: 6). والمسيح هو الوسيط الذي فيه أو بواسطته خُلقت كل الأشياء (كولوسي 1: 16- 18). وكل طعام يمكن تناوله بالشكر لأن الله قد خلقه (1 تيموثاوس 4: 4). ويشهد بطرس أن كل الأشياء بكلمة الله قائمة (2 بطرس 3: 5). ويذكر سفر الرؤيا خلق الكون على أنه الموضوع المركزي الذي حوله تدور ترنيمة التسبيح الموجّهة في السماء إلى الأب الخالق (رومية 4: 11). وحقيقة الخلق هي أيضاً الضمانة لإتمام سر الله وقصده (رومية 10: 6- 7).

إنه لأمر ثابت، إذن، أن جميع الذين كتبوا أسفار الكتاب المقدس في العهد القديم والعهد الجديد يتفقون في الاعتقاد بأن الله هو مُبدع الخليقة. إنه جزء بديهي من إيمانهم الديني. وبطبيعة الحال لا يمكن إثبات حقيقة الخليقة، لذلك يجب أن تقبل بالإيمان. "بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكوّن ما يرى مما هو ظاهر" (عبرانيين 11: 3). وهذا القول لا يعني أن الاعتقاد بأن الله خلق الكائنات اعتقاد غير منطقي (3). إنه يعني أن لا سبيل لإثبات حقيقة الخلق. فالعقيدة ليست علمية ولا غير علميّة. إنها فوق العلم. كما أن هذا الاعتقاد الديني لا يمكن اعتباره اعتقاداً غير علمي (بالنسبة لعلم هذا الزمن) كالقول مثلاً بأن العالم جسم مربّع مسطّح ذو طوابق ثلاثة. صحيح أن علم الكون كما هو في الكتاب المقدس مطابق لما كان معروفاً لدى العالم القديم، علماً غير مؤسس على معطيات كافية. لكن عقيدة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخليقة هي غير علم الكون، إنها إيمان. و لم تأت نتيجة للبحث إذ أنها حقيقة جاءت بالإعلان الإلهي. إن الجدل الذي يدور حول الخليقة يجب ألا يُنظر إليه كجدل بين العلم والدين وحول أسلوب تكوين العالم. إنه جدل بين مختلف المعتقدات حول السبب الذي من أجله تكوّن العالم.

إن كنا نريد أن نفهم الكتاب المقدس فعلينا أن ندرك أن عقيدة الخليقة لم توضع في الكتاب لكي تفسّر لنا كيف تكوّن العالم. إن تلك العقيدة ليست في ذاتها حقيقة علمية أو تاريخية بل حقيقة جوهرية تختص بالدين والإيمان. لم يكن رجال الكتاب المقدس مهتمّين بالعالم- لا من حيث سبب وجوده، ولا من حيث الأسلوب الذي خُلق به. لقد كان أولئك الرجال مهتمين بالخالق نفسه. إن العقيدة الخلقية في الكتاب المقدس تفسّر طبيعة العالم وطبيعة الله في آن معاً. إن كلمة "خليقة" وحدها تضع حدّاً فاصلاً بين الأفكار اليونانية والأفكار اليهودية المتعلقة بالله والعالم (4). إن كلمة العالم للإنسان اليوناني هي "كوسموس". بالنسبة له حقيقة العالم أمر مطلق. أما الإنسان اليهودي فينظر إلى العالم على أنه "خليقة". العالم للإنسان اليهودي شيء نسبيّ، أما الله فمطلق وأبدي. الله في وجوده غير معتمد على الكون ولا هو من ضمنه في أي حال. الله سيد الطبيعة ويفعل في الكون ما يحلو له (5). الكون لا يتضمّن الله أو يحتويه بل إنما يعلن الحقائق المتعلّقة بالله (رومية 1: 19- 21). وسيادة الله في هذا الأمر تضمن إنجاز قصده في كل مكان (رؤيا 10: 6- 7). لقد أشغل هدف الله وقصده في العالم كتّاب الأسفار المقدّسة، ووجدوا في عقيدة الخليقة التأكيد بأن الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كان يقوم بتنفيذ قصد فدائي من أجل الإنسان (6). والله، في خلقه الخليقة، كان يقيم المسرح الذي عليه سيقوم بتنفيذ أعمال الفداء العظيمة.

إن قصة الخليقة كما وردت في سفر التكوين توجّه الانتباه إلى الإنسان. فهو يقع في مركز الجاذبية. وكاتب السفر يسرع في سرده قصة الخليقة، وإذ يكتفي بذكر خاطف للأشياء التي تهمّ العلم الطبيعي الحديث ينتقل مسرعاً إلى ذكر الإنسان، وكيف صار، وما هو. ويُظهر الكاتب بصيرة روحية حقيقية في تمييزه أهمية عمل الله في الخلق. يقول الكتاب أن الإنسان خُلق على "صورة الله" (تكوين 1: 27). وكان الإنسان جزءاً من العالم إذ أن الله جبله "تراباً من الأرض" (تكوين 2: 7). لكنه كان في الوقت ذاته مستقلاً عن العالم إذ إن الله "نفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حيّة" (تكوين 2: 7). كذلك كان منعزلاً عن الله إذ لم يكن له الكمال الخلقي أو النضج اللذان لله (7). لم يكن الإنسان التعبير الدقيق عن طبيعة الله مثلما كان المسيح (عبرانيين 1: 3)، فهو إنما صُنع على "صورة" الله.

كان هذا التعبير، ولا يزال، اللغز الذي حيّر اللاهوتيين في كل العصور. ماذا يقصد الكتاب بالقول: إن الإنسان مخلوق على صورة الله؟ يعطينا الكتاب المقدس إجابات جزئية عن هذا السؤال. قد يكون المعنى أن الإنسان أعطي مكان السلطة على العالم (تكوين 1: 26، 28 و 2: 15، 19 و 1 كورنثوس 11:3 ويعقوب 3: 7). أو أن الإنسان مُنح الجلال والهيبة (مزمور 8: 6). يميل كتّاب الأسفار المقدسة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلى تعريف طبيعة الإنسان مستعينين بمركزه في العالم. وحاول غيرهم تعريف "صورة الله" بلغة ميتافيزيائية أي ما وراء الطبيعة. ويرى اللاهوتي مولنز أن "صورة الله" ظاهرة في طبيعة الإنسان، فهو كائن عاقل، عاطفي، أخلاقي، ذو إرادة وحرية (8). ويرى آخرون أن لا داعي لتعريف عبارة "صورة الله"، ويرون معناها في قدرة الإنسان على ممارسة الشركة مع الله وقدرته على سماع صوت الله وتقديم الصلاة إليه (9). ربما نجد في هذا المعنى ما يكفي. ومهما يكن للعبارة من معان أخرى فالقول بأن الإنسان مخلوق "على صورة الله" يصوّر الإنسان لنا كائناً يستطيع الاتصال بالله. لقد خلقه الله لكي يحبه وأعطاه القدرة على أن يردّ على حب الله بحبّ حرّ وطوعيّ. في الإنسان يكمن إمكان التخلّق بخلق مشابه لله، ولكن دون تحقيق كامل لذلك الخلق. ينمو الخلق ويتقدّم فقط في بوتقة العمل الخلقي، ولابدّ له بعد ذلك من أن يطرق ويكيّف وسط ضغط التصميم بين الصواب والخطأ، ولا يبلغ المدى المطلوب إلا بعد أن تتبلور اختبارات البشر الحرّة في الاتجاه الصحيح.

بسبب هذه الإمكانية في نمو خلق الإنسان وضع الله ذلك الترتيب أو التدبير لحياة الإنسان على الأرض. كان كل شيء معدّاً له، فأعطي السلطان على الأرض، ولكن لم يُعط السلطان على نفسه. وضع الله على حياته قيداً أخلاقياً كان عليه أن يلتزم به. منعه الله من أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، وإن أكل فعقابه الموت (تكوين 2: 17). لا نعلم إلى ماذا تشير "شجرة معرفة الخير والشر." قد تكون رمزاً لإختبار روحي لم يكن آدم بعد مستعداً لقبوله. أما الغاية الأولى الأساسية من تلك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الوصية فكانت في اعتقادنا امتحان محبة الإنسان وولائه. هل يرضى الإنسان أن يعيش تحت حكم الله أم يسعى لتعظيم نفسه؟ هل يكتفي بمركزه الخاص بـــه في العـــالم أم يسعى لاغتصاب مركز الله؟

نجد الإجابة في المعنى الذي تنطوي عليه الخطية. قام الإنسان في يوم ما بعمل حاسم فطرح عن كاهله نير الله وطلب أن يكون مستقلاً (تكوين الإصـــحاح 3). وعندما تمّ له ذلك خسر كل معنى لوجوده (15). أصبح عاصياً مشرّداً في عالم الله مطروداً من حضرته (تكوين 3: 8). لقد وُضعت عليه لعنة الموت فطُرد من الجنـــة (تكوين 3: 15- 24). غير أن الدينونة جاءت ممتزجة بالرحمة. وعد الله بأن يجيء نسل للمرأة فيسحق رأس الحية (تكوين 3: 15). وهو الوعد الذي كان بولس يعتبره قد تحقّق بمجيء المسيح (غلاطية 4: 4- 5). كسا الله الزوجين المـــذنبين بجلـــود الحيوانات (تكوين 3: 21)، الذي ربما يشير إلى التغطية التي بها سيغطّي الخطيـــة، وطردهما بعيداً عن شجرة الحياة، التي لو أكلا منها لقضيّ عليهما أن يعيشـــا حيـــاة مستمرة في عالم الخطية والموت (تكوين 3: 24).

في كل هذا نرى انعكاساً، ولو ضئيلاً، لأعمال الله الفدائية، ولكننا نتذكر أن الله لم يقطع الرجاء عندما فشل الإنسان. لقد عزم في قلبه على استعادة الإنسان إلى شركة المحبة معه، وقد نُصب المسرح لكي تُمثّل عليه دراما الفداء التي هي موضـــوع سائر فصول الكتاب المقدس من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا. والقصص في ســـفر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التكوين، الإصحاح 1 إلى 3، ما هي إلا المقدمة لحركة التاريخ الفدائي كلها حيث يتحرك الله ليجعل الإنسان ما يريد له أن يكون. ويصبح الكتاب المقدس قصة تحرّكات الله لإيجاد شعب كامل في عالم يحيا أفراده في شركة كاملة مع الله وبعضهم مع بعض.

واجه الله في إنجازه هذا الحلم أمرين ضروريين. كان عليه أوّلاً أن يعلن ذاته للإنسان، ثم أن يعالج مشكلة الخطية. ولكل من هذين الأمرين جانبان- جانب موضوعي وآخر ذاتي شخصي. كان لابد أن يجري إعلان إلهي في العالم، لكن لن يكون لإعلان كهذا أي معنى ما لم يصل البشر في قلوبهم إلى معرفة الله.وكيف يمكن أن يعرف الإنسان الله؟ لابد إذن من وجود ذبيحة عن الخطية تزول بها هذه الخطية التي تشكل عائقاً يمنع جريان الشركة بين الله والإنسان. لكن هذه الذبيحة تظل بلا قوة أو تأثير ما لم يقبلها بنو البشر ويسمحوا لقوّتها أن تطهّرهم من الخطية وتعيدهم إلى الشركة مع الله. كيف أتمّ الله بالفعل هذه الأعمال؟ إن هذا هو موضوع الكتاب المقدس.

أولاً، كان من الضروري أن يعلن الله ذاته بطريقة تساعد الإنسان ليدرك أن سعادته تكمن في الشركة مع الله. إن من مظاهر لعنة الخطية العمى الروحي الذي يخيّم على الخاطئ فيجعله يرى الله عدوّاً له. "لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله لأنه أيضاً لا يستطيع" (رومية 8: 7). إن المعرفة التي يفتقر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان إليها لا تأتي إلا بإعلان شخصي من جانب الله. وهذا الإعلان، الذي ابتدأ واستمرّ في معاملات الله مع بني إسرائيل، بلغ أخيراً ذروته بشكل موضوعي في المسيح الذي هو "تجسّد" الله. أما شكله أو جانبه الذاتي فلا يزال في طريق الإتمام وقد يستمرّ طوال الأبدية. لا يزال الله يعمل في عالمنا بواسطة شهادة الكتاب المقدس، والوعظ ببشارة الإنجيل، والخدمة التي تقدّمها الكنائس لإتمام هذا الجزء من عمل الله.

ثانياً، واجه الله ضرورة معالجة مشكلة الخطية في الحياة البشرية. قال بولس: "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم... بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة" (رومية 5: 12، 18). يدور جدل كثير بين العلماء حول طبيعة الفساد الذي حل في الجنس البشري نتيجة لهذه الخطية الواحدة وكيفية حلوله. والظاهر أن قول بولس يعني أن رضوخ آدم للخطية لوّث مجرى الجنس البشري من منبعه، حتى أن كل إنسان ولد في العالم شبّ وفيه الميل الدفين والاستعداد لسيطرة الذات، وهو الأمر الذي يضمن السقوط في الخطية الشخصية، وبالتالي الوقوع تحت الدينونة. إننا لا نؤمن أن أي إنسان قد أُدين أو يُدان بخطية آدم ما عدا آدم نفسه. لكننا مع ذلك نرى ما يدل على أن الجنس البشري ملوّث حتى أن كل إنسان يخطئ. ففي ضوء حقيقة عالمية الخطية وانتشارها الشامل في الكون نجد أن العقيدة الكتابية القائلة بأن الميل للخطية كامن في الإنسان عقيدة معقولة. على كل حال، أصبحت الخطية جزءاً لا يتجزأ من الجنس البشري، وقد واجه الله ضرورة معالجتها لكي ينقذ الإنسان. وكان لابدّ من وجود من يحمل لعنة الخطية لكي لا يقع العقاب كله على الإنسان. لقد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

دعت الحاجة لأن تنفتح الطريق فتجرى محبة الله بلا عائق في حياة البشر دون الإخلال بمبادئ البرّ والعدل التي لا تقل أهمية عن محبّته. لا يريد الله أن يخلّ بمبادئه وينـــاقض نفسه في سبيل خلاص الإنسان. وبلغ عمل الله ذروته عند تقديم الذبيحة الكاملـــة، يسوع المسيح، عن خطايا العالم. لقد "قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة" (عبرانيين 10: 12)، أي ذبيحة نفسه. سبق تقديم هذه الذبيحة صُوَرٌ رمزية لها في الذبائح التي كان بنو إسرائيل يقدّمونها، لكن هذه الذبيحة، وليس سواها، عالجت مشكلة الخطية معالجة نهائية. إنما تظلّ هذه الذبيحة بلا قوة أو تأثير ما لم يقبلها الإنسان لنفسه. لأن الإنسان الفرد إذا لم يسلّم نفسه لقوة الله لا يستطيع أن يختبر الانتصار في قلبه على الخطيـــة ويصبح إنساناً جديداً. فإذن، من الناحية الذاتية، يجرى هذا العمل باستمرار.

نحاول أن نبيّن في الفصول التالية باختصار كيف تمّم الله وكيف يتمم ذلك الحلم القديم من أجل البشر. هذا هو موضوع الكتاب المقدس. وتنفيذ الخطة الإلهيـــة هو، في وقت معاً، السرّ والنور الواضح اللامع لكل ما تكلّم عنه كتّاب المقدس في ما سجّلوه عن معاملات الله معهم. وفي رأيهم كان الله دائماً المحرّك الذي يقوم بالمبادرة في الفداء. وقصد الله، كأعماله، هو موضوع أسفار الكتاب، لأن الأعمال التي قام بها الله ما هي إلا التنفيذ العمليّ لقصده.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني
قصد الله في الطبيعة

لم يخلق الله العالم وحسب، بل يحكمه ويديره لأهداف فدائية. هذا هو التشديد المستمرّ الذي يلاحظه رجال الإيمان في الكتاب المقدس كلما خطر لهم موضوع الكون الماديّ الطبيعي. أما الذين كتبوا الكتاب المقدس فلم تشغلهم هذه الأمور إلا قليلاً. إنها لم تستحوذ على تفكيرهم كما تستحوذ على تفكير أناس العصر الحديث. ويجدر بنا أن نعير الموضوع شيئاً من اهتمامنا ما دمنا نبغي القيام بدراسة كاملة لعمل الله وقصده الخلاصيّين في العالم.

ينظر الناس إلى الله فيراه بعضهم محصوراً في العالم ويراه البعض الآخر بعيداً عن العالم. أما الكتاب المقدس فلم يقعوا قط في أي من هذين الخطأين. إن هناك من يقول بتأليه الكون أو بما يسمى "وحدة الوجود" (Pantheism). هذا الرأي لا يميّز بين الله والكون ويعتبرهما شيئاً واحداً (1). ينظر أصحاب هذه العقيدة إلى الله فيعتبرونه مبدأ عاماً شاملاً حتى ليقولون أن كل شيء في الوجود هو الله والله هو كل شيء. لكن أصحاب الرأي المتطرف الآخر، القائل بوجود الله وإنكار الوحي أي "الدايزم" (Deism)، فيعتقدون بالله كما اعتقد اليهود في المسيح (2). إنهم يفصلون بين الله والعالم. إن خليقة الله في رأيهم حادث جرى في الماضي حرّك الله به "نظاماً قائماً بنفسه بموجب قوانين طبيعية لا تتغير ويعمل طائعاً دوماً لتلك القوانين" (3).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لم يقع كتّاب الكتاب المقدس قط في خطأ أصحاب عقيدة "وحدة الوجود"، أي أنهم حَرَصوا على ألا يخلطوا بين الله والعالم. جاء في سفر أشعيا 66: 1 "السموات كرسيّي والأرض موطئ قدميّ." إن هذا القول بديهي حتى أن كتّاب العهد الجديد استخدموه واقتبسوه مراراً عديدة (4). يتبيّن من هذا أن من الخطأ الخلط بين الله والكون وجعل الاثنين واحداً. إن وقار رجال الكتاب المقدس واحترامهم لله منعهم من الخلط الكائن في عقيدة "وحدة الوجود." ليس في الكتاب ما يشير إلى احترام قوى الطبيعة أو أشياء العالم المادي على أساس أنها الله. إن التوحيد بين الله والعالم واعتبارهما واحداً يسيء إلى فكرة الله إذ بذلك تصبح الطبيعة إلهاً، وذلك غير صحيح (5).

إن كتّاب الكتاب المقدس، في الوقت ذاته، لم يفصلوا الله عن العالم. إن العالم في حالته الحاضرة "بعيد عن كونه ملكوت الله- غير أنه يظلّ عمل الله والمكان الذي يُجري الله فيه عمله" (6). عندما تكلم يسوع عن الله قال أنه "ربّ السماء والأرض" (متى 11:25). فالله هو الخالق الحاضر في العالم: يجعل الشمس تشرق كل صباح ويرسل المطر على الأرض (متى 5: 45)، يعطي الطيور ما تقتات به (متى 6: 26)، ويكسو عشب الحقل وأزهاره كساء مجيداً لم يلبس مثله سليمان (متى 6: 29-30). الله يهيمن على الطبيعة حتى ليستطيع المؤمن أن يصلي "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" (متى 6: 11)، ويستطيع أن يعتمد على الله الذي يهب خيرات للذين يطلبونها منه (متى 7: 11). وكان بولس يرى الرأي ذاته في سيادة الله المسيطرة على الطبيعة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فقد قال في رسالته إلى أهل كولوسي أن الكل، أي كل ما خلقه الله، يقوم بالمسيح بقوة الله (كولوسي 1: 17).

إن هذا، بالطبع، ليثير السؤال حول علاقة الله بالناموس الطبيعي، وهو الذي قام حوله الجدل في كثير من الأوساط في القرن الماضي ولا يزال بلا حلّ إلى الآن. ويميل المرء إلى الاعتقاد بأن هذا الجدل في غير محلّه وأن سببه هو تداخل عدة قضايا بعضها في بعض. ويبدو أن رجال العلم الطبيعي يتجاوزون أحياناً حدود الدرس الموضوعي للطبيعة ويشرعون في التكلم كما لو كانوا فلاسفة يحاولون تعريف القوى التي تعمل في الطبيعة. ورجال الإيمان، من الناحية الأخرى، نظروا أحياناً إلى الكتاب المقدس، ونادوا به، كما لو كان كتاباً علمياً (7). والمشكلة هي أن كلاً من الفريقين المذكورين لا يدرك حدود مهمته ومجال عمله. إن مهمة العلم الطبيعي هي دراسة الطبيعة دراسة موضوعية واكتشاف العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر في العالم. ليس هناك من ينكر وجود نظام في العالم الطبيعي، وأن هذا النظام يمكن اكتشافه بالدراسة الموضوعية.لقد قدّم العلم الطبيعي للجنس البشري خدمة جُلّى عن طريق ما يعمله هذا العلم. غير أنه لا يمكن بالدراسة الموضوعية التأكد أن الأشياء التي تحدُث عادة في الطبيعة لابدّ أن تحدث دائماً. ولا تقدر الدراسة الموضوعية ذاتها أن تخبرنا ما هي القوة النهائية التي بالفعل تسبّب حدوث الأشياء. إن العلم الطبيعي في الجيل الماضي. من المعترف به الآن أن قوانين الطبيعة لا تقدّم "نظاماً حازماً" هو من الدقة بحيث يضمن ولو نتيجة واحدة، إلا أن تلك القوانين تشير إلى مجموعة من الإمكانيات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التي "تتضمن الأشياء البديلة والمدى" (8). وما دام العلم الطبيعي يلتزم بعمله ومهمته ولا يتجاوز حدود نظامه فإنه لا يتعارض مع الإيمان.

لا اصطدام بين الدين والعلم. فكل منهما يعمل في حقله الذي يختلف عن حقل الآخر. من عمل الدين أن يعرّف ويوضح ما هو المصدر النهائي للقوة التي هي علة كل النتائج في الكون، تلك النتائج التي يلاحظها العلم. ليس الخيار بين العلم والمسيحية، بل بين الإيمان المسيحي وعقيدة أخرى بالتاريخ (9). الإيمان يؤكد أن القانون الطبيعي هو الأسلوب المعتاد الذي يستخدمه الله في ضبطه الكون وتسييره. فأيّة عقيدة تنكر أن القانون الطبيعي هو قانون الله لا تكون إلا فلسفة أخرى تتعلق بالطبيعة، ولا يجوز اعتبارها علماً حتى ولو كان القائل بها رجل علم.

فالذي نجده في الكتاب المقدس، إذن، ليس نظاماً للعلم الطبيعي بل علم لاهوت بتكلم عن الطبيعة– ويتضمن الاعتقاد بأن الله يضبط قوى الطبيعة ويديرها. وفي رأي كتّاب الكتاب المقدس ليس ضبط الله لقوى الطبيعة عبارة عن ضبط يقوم به مهندس إلهي صنع آلة وأدارها وتركها تدور تلقائياً. كما ليس هو كضبط طفل يلعب حسب هواه بقوى الطبيعة ليرضي نزواته. إنه ضبط مستمر يقوم به الإله الحي بشكل خلاّق، الإله الذي همّه الرئيسي خلاص الإنسان. ومع ذلك يسود الاعتقاد في الأسفار النبويّة من الكتاب المقدس أن الله يستطيع أن يفعل بالكون ما يشاء. الله هو الذي يسيطر على الطبيعة ويضبطها، "وضبطه للطبيعة"، كما يقول بول مينيار، "يترابط مع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الغاية التاريخية الوحيدة التي هي إظهار مجده". إن العالم الطبيعي هو المسرح الذي عليه يُخرج الله دراما الخلاص.

هناك غاية ومعنى للمسرح الذي عليه تجري دراما الخلاص، وهذان قد يسمّيان علم لاهوت الطبيعة وهو العلم الذي يتضمّنه الكتاب المقدس. وطبعاً لن يتّجه انتباهنا كثيراً إلى المسرح، إذ لا معنى له في ذاته. ولكن يلزم أحياناً أن يصبح المسرح محطّ النظر لفترة قصيرة، إذ أن ذلك يساعدنا لنفهم الدراما ذاتها.

أولاً، يرى الكتاب المقدس أن الطبيعة تعكس نور مجد الله، نجد التعبير الكلاسيكي لذلك في المزمور 19: 1، 2: "السموات تحدّث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه. يوم إلى يوم يذيع كلاماً، وليل إلى ليل يُبدي علماً." ويصرّح بولس فيما يختصّ بعابدي الأوثان فيقول أنهم بلا عذر لأن "قدرته السرمدية ولاهوته" معلنة في الطبيعة (رومية1: 20)، غير أن عمل الطبيعة هذا محدود تماماً، فهو لا يستطيع أن يحل محل إعلان الله عن ذاته بالطرق الأخرى. فالكتاب المقدس لا يجد في الطبيعة ما يكفي لإعلان نعمة الله، إذ ليست الطبيعة هي البديل لإعلان الله في المسيح.

ثانياً، كان كتّاب الكتاب المقدس يعتقدون أن الله استخدم الطبيعة ووجّهها ليسكب بركاته على الطائعين ويصبّ دينونته على العصاة. إنه يملأ خزائن الذين يكرمونه ويجعل معاصرهم تفيض بالمسطار (أمثال 3: 9، 10). وقال الرب لسليمان أنه يُبرئ الأرض بعد أن يضربها الجفاف والجراد والوبأ (2 أيام 7: 13، 14). ولكن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

طريقة إبرائها ليست باستعمال أساليب زراعية أفضل بل بصلاة التواضع والتوبة الحقيقية التي يرفعها شعب الله. عندما طلب إيليا من الله أن يمنع المطر عن الأرض ثلاث سنين وبّخه الملك داعياً إياه "مكدّر إسرائيل." أما إيليا فأجاب: "لم أكدّر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بتركككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم" (1 ملوك 18: 17، 18). فإيليا كان يعتبر منع المطر عن الأرض دينونة وعقاباً على الخطية. إن تصريحات رجال الكتاب المقدس هذه ليست إلا أمثلة. إن ضبط الله للطبيعة يعتبر إجمالاً ضبطاً مطلقاً، وقد استخدم لدعوة شعبه للتوبة وإتّباع حياة البر. ربما يرفض البعض الاعتقاد أن هذا الرأي المتعلق بالطبيعة وضبط الله لها رأي صحيح، وطبعاً ليس من طريقة لإثبات صحته. فهذه حقيقة تستند إلى الإعلان الإلهي، وهي قضية إيمان، وستبقى كذلك.

في هذا الجو، جوّ الإيمان، وليس في سواه يمكن البحث في موضوع المعجزات. إن إنكار أية إمكانية لحدوث معجزة هو إنكار لحقيقة ضبط الله للطبيعة وسيطرته عليها. بينما الإيمان بأن الله يضبط الطبيعة ويسيطر على الطبيعة فلابدّ من وجود وقت يقوم الله فيه بعمل في الطبيعة يظهر للناس أنه معجزيّ. ما دام اهتمام الله الرئيسي هو بخلاص بني الإنسان وليس بالمحافظة على انسجام قوى الطبيعة، فلا بد أن يكون وقت تَحْدُث فيه المعجزات إذا كان حدوثها يسهم في خلاص البشر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يسجّل الكتاب المقدس حدوث معجزات. من الجدير بنا أن نلاحظ أمرين يتعلقان بما ورد في الكتاب. أولاً، أن عمل المعجزات لم يكن قط مناوئا للطبيعة، لم يكن عمل شخص غريب يجتاح العالم الطبيعي ويشوّشه (13).فالمعجزات، في كل المواضع التي ذكرت فيها تقريباً، هي، بالأحرى، عمل الله فوق الطبيعة ليعيد للإنسان الصحة أو الخير اللذين فقدهما. إنها أعمال رحمة وخير في الطبيعة. ثانياً، **للمعجزات دائماً مغزى خلاصي**. تجدر الإشارة هنا إلى أن الكتاب المقدس ليس كتاب معجزات. فيه معجزات قليلة، أو هكذا يبدو لمن يتعرّض للجدل حول إمكان حدوث المعجزات. والمعجزات المذكورة في الكتاب تُرى متجمّعة حول عدد قليل من الرجال العظام الذين كانوا يفتتحون انطلاقاً جديداً في عمل الفداء الإلهي. ففي العهد القديم كان صانعوا المعجزات الرئيسيين هم موسى الذي أعطى الله الشريعة بواسطته، وإيليا واليشع مؤسّساً حركة الأنبياء. عدا عن معجزات هؤلاء الثلاثة ليس في العهد القديم سوى حوادث قليلة متباعدة. ما السرّ في ذلك؟ هل هو أن هؤلاء الرجال كانوا وحدهم يتمتّعون بإيمان فائق؟ لا، ولكن لأنهم كانوا يفتتحون انطلاقاً جديداً في برنامج الله الفدائي. كانوا في حاجة لما يؤيدهم ويشهد لهم بوصفهم رسل الله الحقيقيين. هذا كان السبب الحقيقي الذي جعل الله يصنع المعجزات بواسطتهم.

إن هذا يفسّر لنا سبب توقّعنا أن يُجري يسوع والرسل عجائب ومعجزات، وكذلك يفسّر حقيقة إجرائهم تلك العجائب والمعجزات. لقد كانوا يفتتحون الخطوة النهائية في برنامج الله الفدائي. صحيح أنهم صرّحوا بأن لهم سلطاناً إلهياً، وبيّنوا أن ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كانوا يفعلونه سبق فذُكر في النبوّات والناموس. غير أن الإنسان العاميّ لم يقدر أن يفهم كل ذلك. كان في حاجة إلى الاقتناع. لذلك صنع الرسل معجزات، فكان ذلك جزءاً من خدمتهم. وكان الله بذلك يقدم برهاناً على مأموريتهم الإلهية. قال نيقوديموس ليسوع: "نعلم أنك قد أتيت من الله معلّماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه" (يوحنا 3: 2). هذا، إذن، هو تفسير وجود المعجزات في الكتاب المقدس. لقد استخدمها الله لتزويد رسله بالبرهان لكي يقبل الناس تعليمهم ويدركوا أنهم أصبحوا في مرحلة جديدة من برنامج الله الفدائي.

ربما يفسّر هذا سبب خلوّ الخدمة المسيحية هذه الأيام من المعجزات. لا نرى أن لها قصداً فدائياً ينبغي إنجازه. إن خدمتنا للمسيح هذه الأيام مبرهنة بانسجامها مع تعاليم العهد الجديد. صار لنا مقياس نفحص به أية رسالة مسيحية، ولا حاجة بعد للمعجزات لتقوم بهذه المهمة. أصبحنا لا نستغرب إذا لم تحدث المعجزات، بل بالأحرى تتولانا الدهشة إذا حدثت.

إن هدفنا من كل هذا البحث هو الإشارة إلى أن ضبط الله للطبيعة أو توجيهه لها ما هو إلا عامل واحد من عوامل قصد الله الفدائي الواسع النطاق. لقد خلق العالم لأهداف فدائية ويواصل السيطرة عليه لأهداف فدائية أيضاً. أما الحقائق المتعلقة بالطبيعة فليست ضرورية لإيمان رجل الإيمان. فهو قد يقبل هذه الحقائق ويعتقد بها، ولكنه في الواقع لا يحتاج إلى هذه الحقائق لتدعيم إيمانه، ويكفيه من هذه الناحية أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يعرف ما الذي يسيطر على الطبيعة ولماذا؟ وجوابه هو أن الله هو الضابط المسيطر على الطبيعة، وأنه يفعل ذلك لأهداف فدائية خلاصية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثالث
قصد الله في تاريخ العالم

ما معنى التاريخ؟ وأين السبيل إلى فهمه؟ هذان السؤالان أشغلا أفكار المؤرخين منذ القدم، منذ حاول الإنسان، لأول مرة، أن يفهم مغزى سير الأحداث التي كانت تحيط به. ظهرت أجوبة عديدة عن السؤالين. وجد بعض الناس الجواب في عوامل يصعب تحديدها، فنسبوا أحداث التاريخ إلى المصادفة أو الصواب أو الحظ أو القانون أو النظام الأدبي أو المصير أو الضرورة. وظنّ آخرون أن المفتاح لفهم التاريخ هو في عوامل طبيعية كالعِرق أو الجغرافيا أو علم الأحياء أو علم الاقتصاد. أما الكتاب المقدس فيرى الحلّ في قصد الله. لم يكن كتّاب الكتاب المقدس كتبة تاريخ بقدر ما كانوا كتبة "لاهوت" التاريخ. وبينما لا نتجاهل العوامل الطبيعية نظلّ نرى أن العامل الحاسم الخلاّق في كل التاريخ هو الله.

"لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه" (غلاطية 4: 4). في هذه العبارة الصغيرة وحدها يجمع بولس إيمان الرسل والأنبياء بحضور الله الخلاّق في مجرى التاريخ. إنه يؤكد أن لكل حقب التاريخ التي سيقت مجيء المسيح معنى مركزياً واحداً- فقد كانت تسير نحو نقطة سبق تعيينها، نحو اليوم الذي فيه يتمّ الزمان ويرسل الله ابنه إلى العالم ليفديه من الخطية. ولم يعتقد بولس أن سير التاريخ ذاك كان عبارة عن حوادث جرت على سبيل الصدفة فأنتجت أحوالاً ملائمة لانطلاق الحركة المسيحية. لقد آمن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن الله هو محرّك التاريخ وأنه الفكر الذي يوجّهه، فهو يسيطر عليه بقوته وإتماماً لقصده، وهذا القصد هو خلاص الإنسان.

عندما نقول أن الكتاب المقدس يتضمّن "لاهوت" التاريخ فنحن إنما نغلو في القول قليلاً. فالقول بلاهوت التاريخ قد يعني أن شخصاً ذا حكمة شرح بأسلوب منظّم علاقة الله بالأحداث العالمية. ليس هذا واقع الحال في الكتاب المقدس. ربما نكون أكثر دقة لو قلنا أن لدينا معطيات أو معلومات قليلة يمكن اتخاذها أساساً لوضع علم لاهوت للتاريخ قابل للتعديل. إن كتّاب الكتاب المقدس لم يحاولوا كتابة تاريخ العالم. فكثير من الحوادث والحركات التي حظيت باهتمام كبير من قبل كتّاب تاريخ العالم لم يُذكر قط في الكتاب المقدس. وعندما يرد ذكر الأمم في الكتاب فذلك لأنها تتصل بعمل الله الفدائي. فلنا إذن، أن نشكل لأنفسنا علم لاهوت التاريخ مستندين إلى ما جاء في الكتاب المقدس من تصريحات وما سجّل من حوادث معيّنة تظهر فيها يد الله. إن قصدنا من هذا الفصل هو الاستقصاء عن معنى التاريخ بوصفه المجال الذي جرى فيه عمل الفداء الإلهي، أي أن نشكل "علم لاهوت" للتاريخ وأن نبيّن الرابطة التي تربط خط سير الشؤون البشرية وعلاقتها بحركة الفداء الإلهي.

إن علينا أن ننتبه إلى أن جهداً كهذا لهو محاط بالخطر وعرضة للتساؤل إذ ليس هناك ما يثبت أن لله أية يد في حادث معيّن من حوادث التاريخ. يده تُرى فقط بأعين الإيمان، أما غير المؤمنين فقد يفسرون كل حادث في التاريخ على أنه تفاعل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بسيط لعوامل بشرية. وعند قراءة الكتاب المقدس، سواء بهذا الخصوص أم بسواه، لابد من أن يتكلم الإيمان للإيمان وأن يستجيب الإيمان لنداء الإيمان. وجهدنا محفوف بالخطر لأننا نواجه ظواهر متناقضة، أو هكذا هي تبدو. على سبيل المثال، هل يُعْقَل أن الإمبراطور كاليغولا المجنون، الذي حاول أن يحمل الناس في كل العالم على عبادته، أن يكون في الوقت ذاته "خادم الله"؟ نعرف أنه ليس من جواب مناسب وجاهز لكل سؤال، وليست من طريقة يستطيع بها العالم العصريّ أن يفسر أو يبيّن المغزى الفدائي لكل حادثة من حوادث التاريخ. وسبب ذلك هو "أننا لا نرى- في حياتنا الحاضرة- بل لا نقدر أن نرى الحقائق المعيّنة في علاقتها الكلية، ولذلك لا نستطيع أن نقرأها بتفسيرها الإلهي".

على كل حال، لابد لنا، إن كنا لا نحاول تفسير كل حوادث التاريخ، أن نكتشف المبدأ الأساسي الذي بموجبه يضبط الله التاريخ- وهو المبدأ الذب به سيطر الله على كل أحداث التاريخ الماضية والذي، باعتقاد الإنسان المؤمن، لا يزال يعمل في شؤون البشر. لابدّ من هذه المحاولة إن كنا نريد أن نفهم الكتاب المقدس. اعتقد كتّاب الكتاب المقدس أن ضبط التاريخ أو السيطرة عليه أمر يعود إلى عامل لا يخص هذا العالم بل هو من عالم أبعد وأعلى من التاريخ. وهذا العامل الخارق للطبيعة "لا يمكن تحليله وملاشاته من الكتاب المقدس إلا إذا كان بالإمكان إعادة كتابة الكتاب المقدس وتكذيب شهادة الرسل والأنبياء الذين كتبوه".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

سنحصر الاهتمام في هذا الفصل في التاريخ "العام" بالمقابلة مع التاريخ "الخلاصي" (أو الفدائي)، فالتمييز بين الاثنين معروف لدى علماء العصر الحديث، ولكن لم يكن معروفاً لدى كتّاب الكتاب المقدس. اعتبر كتّاب الكتاب المقدس جلّ مجرى التاريخ مجالاً لعمل الله الخلاصي، واعتبروا ما جرى في التاريخ إنجازاً لخطة الله في الفداء والخلاص. على كل حال، كان كتّاب الكتاب المقدس يعترفون بأن عمل الله في تاريخ بني إسرائيل كان يختلف عن عمله في تاريخ العالم. ففي تاريخ بني إسرائيل كان الله يسيطر باستمرار، ويعمل بقصد وعلى نحو مباشر أكثر مما كان يفعل في تاريخ العالم. فمن الضروري في بحثنا هذا أن نولي تاريخ العالم اهتماماً مستقلاً، مع الاعتراف بأن من الصعب الفصل تماماً، وباستمرار، بين التاريخ العام والتاريخ الخلاصي بسبب ما فيهما من تداخل.

نظر كتّاب الكتاب المقدس إلى الأمم على أنها في صراع مع الله بينما تخضع لسلطة قوى شيطانية، وأن أية خدمة كانوا يقدّمونها لله لم تكن بأي حال عن فهم أو رغبة قلبية. اعتبر أولئك الكتّاب حياة الإنسان غير المخلّص حياة تسير في طريق العالم "حسب رئيس سلطان الهواء" (أفسس 2:2). وبولس يحرّض المسيحي المؤمن على التسلّح بسلاح الله الكامل لكي يحارب " ضد مكايد إبليس" ولكي ينتصر في مصارعته " مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر" (أفسس 6: 11، 12). واعتبرت الكنيسة الأولى أن الاضطهاد الذي أثاره عليها اليهود كان إتماماً للمزمور الثاني،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وعندما صلّوا (أعمال 4: 24- 26) ذكروا كلمات المزمور مبيّنين أن مقاومة العالم لإرادة الله كانت أمراً متوقّعاً.

ومع ذلك اعتقد كتّاب الكتاب المقدس أن قوة الله تهيمن على شرّ الأمم وتجعل منهم خداماً له. قال يسوع: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم" (يوحنا 16: 33). ورئيس العالم، أي الشيطان، قد دين (يوحنا 16: 11). يقدّم سفر الرؤيا بلغة رمزية صورة للصراع الهائل القائم بين الله والقوى العالمية المجسدة في الإمبراطورية الرومانية ويعلن في الوقت ذاته وبإيمان ساطع انتصار الله في ذلك الصراع. وحيثما يبرز موضوع الصراع بين الله والعالم في الكتاب المقدس يظلّ الشعار الدائم هو هيمنة الله التي تقضي على مقاومة القوى العالمية وتجعل نشاطها يخدم مقاصده هو.

كيف بيّن الكتاب المقدس ذلك؟ أكد كتّاب الكتاب أن القوى التي في العالم مصممة ومرتبة من الله. يقول بولس: "وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض. وحتم بالأوقات المعيّنة وبحدود مسكنهم" (أعمال 17: 26). ويقول بولس أيضاً "ليس سلطان إلاّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله" (رومية 13: 1). فالله، إذن، ضابط للتاريخ مهيمن عليه، وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفهم معنى الإصحاحات 9- 11 الصعبة من رسالة رومية. يبحث بولس هناك هيمنة الله على التاريخ وأنه ينفّذ من خلاله قصده الفدائي. وضمن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حدود هذه الهيمنة الإلهية توجد آنية مختلفة. هناك "إناء للكرامة وآخر للهوان" (رومية 9: 21). اختار الله البعض لإتمام مشيئته بطريقة معيّنة واختار آخرين لإتمام تلك المشيئة بطريقة أخرى. مثلاً، قال الله لفرعون: "إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي ولكي يُنادى باسمي في كل الأرض" (رومية 9: 17، وقارن خروج 9: 16).

إن هذه الفكرة القائلة بهيمنة الله على التاريخ معبّر عنها أيضاً في العهد القديم. فقد قضى الله بسلطانه وحكم على نبوخذنصّر بأن يسكن مع حيوان البرّ حتى يعلم "أن العليّ متسلّط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء" (دانيال 4:25). ويعلن النبي عاموس أن الله سوف لا يكتفي بمعاقبة بني إسرائيل الأشرار وحدهم بل سيرسل عقابه أيضاً على دمشق وغزة وصور وأدوم وبني عمون (عاموس1). وهكذا نرى أن كتّاب الكتاب اعتقدوا بأن المحرك الخلاّق للتاريخ هو الله. فقد صمّم قبل الوقت مَنْ مِنَ البشر سيتسلط في العالم وكيف ستكون طبائعهم. وهكذا كان الله بحق "صانع ملوك الأرض." كلّما كان قصده الفدائي يستدعي أن تقوم قوة ما بعمل معيّن وبطريقة معيّنة كانت تلك القوة أو الدولة على استعداد للعمل بترتيب إلهي. إن كان هذا حقاً، واعتقد به وصدّقه أهل الإيمان، فأنه سيهبنا شعوراً بالأمن وسط عالم تخيّم عليه الفوضى. والقوى أو السلاطين (أي السلطات) الكائنة مرتّبة من الله. ومع أننا قد يتعذر علينا أن نرى كيف يمكن استخدام بعض الدول أو السلطات العصرية لإنجاز برنامج الله الفدائي، غير أننا نعلم أنه تعالى، على الرغم من كل شيء، ينفّذ خطته الفدائية في العالم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كيف يمكن للتحركات في التاريخ أن تخدم الله؟ هذا سؤال تصعب الإجابة عنه. تظهر هذه الحقيقة في بعض الأحوال بادية للعيان واضحة، بينما في الأحوال الأخرى تصعب رؤيتها. لا شكّ أن تلاقي الحضارة الإغريقية والسلطة الرومانية في الفترة التي انطلقت فيها المسيحية كان مرتّباً من العناية الإلهية. فاللغة والحضارة الإغريقيتان اشتركتا في خلق مناخ في العالم ملائم لتقدّم الديانة الجديدة ورسوخها في قلوب الناس. أوجدت السلطة الرومانية مناخاً سياسياً، وهو المسمّى بالسّلم الروماني والذي أتاح للمسيحية الوعظ والتبشير بحرية. بينما لو بقيت السلطة الإغريقية لكانت المسيحية لاقت صعوبات أعظم، ذلك أن الحكام الإغريق علموا كدعاة للآراء الإغريقية وقاموا كل الآراء الجديدة القادمة من الخارج. ولو سيطرت الحضارة الرومانية في العالم لأصبحت طريق المسيحية محفوفة بالصعاب. لكن هذه الحضارة لم تسيطر بل اكتفى الرومان بسيادة القانون والنظام مع أنهم لم يشجّعوا تغيير الأفكار أو الديانات. وهكذا نرى كيف أن حضارة الإغريق وسلطة الرومان ساعدا المسيحية على التقدم، ولابدّ أن يد الله رتّبت أن تسود السلطة الرومانية العالم وأن تنتشر الحضارة الإغريقية في كل الأرض

هناك حوادث وحركات أخرى لا يمكن تفسيرها بهكذا سهولة. تستولي علينا الحيرة كما كانت مستولية على بني إسرائيل في الزمن القديم. فإنهم لم يقدروا أن يفهموا كيف يسمح الله لبلد وثني شرير بأن يستولي عليهم ويأخذهم أسرى مسبيين إلى أرضه. كانوا يتساءلون في حيرتهم: هل قَصُرت يد الرب عن أن تخلّص (أشعيا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

59:1)؟ أجاب النبي أشعيا على هذا التساؤل بالنفي، فيد الرب لم تقصر عن أن تخلص. ويفسّر الرب قائلاً عن آشور "قضيب غضبي، والعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه" (أشعيا 10: 5- 6). لكن ملك آشور لم يفهم هذا، وبنوا إسرائيل لم يفهموه كذلك. تبجّح ملك آشور بالقول: "بقدرة يدي صنعت وبحكمتي" (أشعيا 10: 13). وصرّح الرب، ردّاً على كبرياء ملك آشور وتفاخره، فقال: "فيكون متى أكمل السيد كل عمله بجبل صهيون وبأورشليم أني أعاقب ثمر عظمة قلب ملك آشور وفخر رفعة عينيه" (أشعيا 10: 12).

نرى في هذا المثل شيئاً من المبدأ الذي به يضبط الله التاريخ ضبطاً كاملاً. فها أمة شريرة بقيادة ملك متعجرف تقوم لتصبح الأداة التي بها يعاقب الله شعبه. وكان ذلك الملك يفتخر بقوته، ويعتقد أنه فعل كل ما فعل بقوته هو وبدافع منه، بينما كان في الحقيقة يخدم الله وينفّذ قصد الله. لكن خدمته هذه لله لا تعود عليه بأي شرف أو جزاء. فعند انتهاء تلك الخدمة سيدينه الله ويقضي عليه بسبب عجرفته وكبريائه. في هذا دلالة على طريقة واحدة فقط بها يستخدم الله أمة من أمم العالم لإتمام مقاصده. لكن الله قد يستخدم أمماً أخرى أيضاً، أما لإنقاذ شعبه، أو لإقامة سلام، أو لنشر الحضارة. وهكذا تختلف الغايات ولكن الله يستخدم الجميع. هذا ما كان يعتقد به كتّاب الكتاب المقدس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن سيطرة الله على التاريخ مطلقة وعالمية شاملة. وهذا لا يعني أن كل ما يجري في العالم هو بالضرورة شيء يريده الله أو يرغب فيه. لكن، على أي حال، لا يحدث شيء إلا ويكون الله قد سمح بحدوثه. الذي نقوله هو أن لله القول الفصل النهائي، أي أنه لا يخطط كل الأشياء، فليست كلها من ضمن قصده، لكنه يستطيع أن يحوّل الأشياء لتتمم قصده. إنه العامل الخلاّق الذي يجعل كل تحركات التاريخ تخدم قصده الفدائي الخلاصي. لقد ترتب التاريخ، قبل مجيء المسيح، ليهيء الطريق لهذا المجيء ولفتح الطرق لإنطلاق الحركة المسيحية. لكن ضبط الله للتاريخ لم ينته عند ذلك الحد. فالله يواصل ضبطه للتاريخ واستخدامه إياه لتعزيز برنامجه الفدائي في العالم. ليس في النبوات بيان مفصل للطريق والأسلوب اللذين يتّبعهما الله في ضبطه للتاريخ. قد نستطيع إذا نظرنا إلى التحركات في الماضي أن نرى ولو بغير وضوح أسلوب الله ذاك، ولكن لا أمل لنا في رؤيته في تحركات الحاضر. على كل حال، يعتقد إنسان الإيمان أن حقيقة ضبط الله للتاريخ حقيقة صادقة، ويتعزّى ويتشجّع مؤمناً بأن معنى الحياة على الأرض هو في قصد الله السائد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الرابع
قصد الله في إسرائيل

قال يسوع في حديثه مع المرأة السامرية (يوحنا 4: 22) "لأن الخلاص هو من اليهود،" وبقوله هذا لخّص اعتقاد كتّاب العهد الجديد بأن جذور المسيحية مغروسة بثبات في تربة يهودية. كان اهتمام الله في نشاطه الفدائي، قبل مجيء المسيح، منحصراً في اختياره إسرائيل ليكونوا "شعب الله." في درسنا في الفصل السابق حذّرنا من خطر تقسيم التاريخ ميكانيكياً إلى تاريخ "عام" وتاريخ "فدائي" أو "خلاصي"، لكن هذا يجب ألا يجعلنا نتجاهل حقيقة كون كل من العهد القديم والعهد الجديد يرى أهمية فدائية خاصة في تاريخ إسرائيل وفي معاملات الله مع تلك الأمة.

وهناك حقيقة في دراسة الكتاب المقدس تكاد تكون بديهية وهي أن العهد القديم موضوع كما لو كان لإبراز اختيار إسرائيل. فسفر التكوين، أو سفر "البدايات" يقصد إطلاعنا على كيفية تحرك الله في تعامله مع البشر وكيف انتقل في ذلك من الجنس البشري عامة إلى الأمة. ويبدأ الله بعملية الاختيار بعد إقامة مسرح دراما الفداء في قصة السقوط (تكوين، الاصحاحات 1-3). اختار الله شيثاً، أحد أبناء آدم، الذي أقيم ليأخذ مكان هابيل، أما نسل قايين فرفض واختار الله من نسل شيث نوحاً. ثم اختار الله ساماً، أحد أبناء نوح. ومن سلالة سام اختار الله ابراهيم ليكون أباً لأمم كثيرة، وليخصه ببركاته فيكون مثل قناة يوصل الله بها بركاته إلى العالم (تكوين 12: 1-3). ومن أولاد ابراهيم اختار الله إسحق وحده اختياراً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

خاصاً. ويعقوب ابنه، الذي غير الله اسمه فصار إسرائيل، أصبح اباً لاثني عشر إبناً الذين بدورهم كانوا الآباء لاثني عشر سبطاً الذين منهم تكونت الأمة المختارة.

وفي الفصول والأسفار الباقية من العهد القديم يندر ذكر الأمم الأخرى من البشر، وينحصر الاهتمام بالمصائر المتنوعة للأمة المختارة بإرشاد الله وعنايته. وتجري القصة بقصد متعمد للتشديد على هذه الحقيقة وهي أن الله مسؤول عن التاريخ الخاص بتلك الأمة. إن الدارس المعاصر للكتاب المقدس لا يحتاج لمن يذكّره بتفاصيل الخروج من مصر، وتأسيس علاقة العهد، والاستقرار في أرض الموعد، وإقامة المملكة، وذهاب الأمة في السبي وعودتها إلى أرض الموعد بعد فترة من القصاص والضيق. ودارس الكتاب كذلك لا يحتاج لمن يذكّره بالوسائل المختلفة التي استخدمها الله ليسيطر على الأمة– مثل الهيكل، والأنبياء، وملوك إسرائيل. والقصة بكاملها مفعمة بصبر الله ولطفه، وهو يحاول أن يجعل شعبه يعرفه وأن يطورهم ليصبحوا أداة نعمته التي تحمل تلك النعمة إلى العالم. وسواء أكان المرء قابلاً بتفسير بني إسرائيل لتاريخهم أم لا فلا بد له من أن يرى أن ذلك التفسير زاخر بفكرة الاختيار والنعمة الإلهيّين.

يقبل كتاب العهد الجديد بلا تردد مسألة اختيار الله لإسرائيل، وأن الديانة الجديدة، أي المسيحية، هي استمرار للديانة القديمة. وقولنا أن الديانة الجديدة استمرار للقديمة لا يعني أن الديانتين ديانة واحدة. فكتاب العهد الجديد، كما سنرى، اعتبروا الديانة المسيحية مختلفة عن اليهودية ومبطلة لها. لكنهم كانوا يرون، في الوقت ذاته،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كما رأى يسوع، أن جذور ديانتهم مغروسة بثبات في تربة يهودية. يظهر هذا حالاً عند إعادة تفسير نبوات العهد القديم المختصة بمجيء المسيح المنتظر. تبدأ الأناجيل الأربعة قصة يسوع بالتكلم عن خدمة يوحنا المعمدان الذي يعتبر ظهوره متّفقاً مع القصد الإلهي (1). وكل من الأناجيل يورد المقطع المشهور من نبوة أشعيا ليوضح مكانة يوحنا في خطة الفداء الإلهي. والمقطع هو: "صوت صارخ في البرية، أعدّوا طريق الرب" (يوحنا 1: 23 وقارن مرقس 1:3 متى 3:3 ولوقا 4:3). إن استخدام العهد القديم والرجوع إليه ليدل على أن يسوع هو المسيح المنتظر الحقيقي، والمسيحية هي الديانة الحّقة فقط إن كان بالإمكان إثبات أن نبوات اليهود تمّت وتحققت في الحركة الجديدة أي المسيحية، كل كتّاب العهد الجديد يرون هذا الرأي بشيء من التفاوت. فالبعض يقتبس من العهد القديم أكثر من البعض الآخر لكنهم جميعاً يعتقدون اعتقاداً مشتركاً بأن اليهودية هي الخط السّلالي الصحيح الذي منه ولدت المسيحية.

في العهد الجديد أيضاً عدد من الاعتراضات الصريحة بصحة اختيار إسرائيل. قال يسوع مصرحاً للمرأة السامرية أن "الخلاص هو من اليهود". وكان السامريون قد أقاموا هيكلاً وعبادة خاصين بهم لينافسوا بهما هيكل اليهود والعبادة فيه. ومع أن يسوع أصر على القول أنه قد حان الوقت لزوال العبادة في كلا السامرة وأورشليم، فقد أصر أيضاً أن خط الخلاص المهم قد جاء عن طريق اليهود. وبولس يسأل عما هو فضل اليهود على الأمم (رومية 1:3)، ويجيب هو نفسه عن السؤال بالقول: "كثير

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على كل وجه. أما أولاً فلأنهم استؤمنوا على أقوال الله" (رومية 2:3). ويصر كاتب الرسالة إلى العبرانيين على القول بأن الله الذي تكلم نهائياً في يسوع المسيح هو الإله نفسه الذي قد كلم الآباء بالأنبياء (عبرانيين 1:1-2).

وأخيراً، هناك اقتناع لدى المسيحيين بأن اليهودية كانت سلفاً حقيقياً تسلسلت منه المسيحية. نرى ذلك في انتقال الآراء اللاهوتية العظمى التي في اليهودية واتخاذها أساساً للاهوت المسيحي. عندما جاء كاتبٌ وسأل يسوع عن أول الوصايا أجابه: "أن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك" (مرقس 12:29-30). إن هذا الاقتباس يلخّص بكلمات قليلة علم اللاهوت الإسرائيلي. الله واحد، والعلاقة الصحيحة به علاقة أخلاقية وروحية. اتخذ الوعاظ المسيحيون هذه العبارات أساساً لعلم اللاهوت كله. فلم يقم أي جدل حولها قط، وقد قبلت كحقائق بديهية في ديانتهم.

بكل هذه الطرق قبل الكتاب المسيحيون بل أصروا على صحة إدعاء بني إسرائيل بأنهم أمة الله المختارة. هذا لا يعني، كما سنرى، أن المسيحيين اعتبروا أنفسهم أنهم مجرد مصلحين في الديانة اليهودية. صحيح، أنهم رفضوا التقاليد المتراكمة التي أضافها ربابنة اليهود إلى العهد القديم، وكان لديهم الكثير من الاعترض على أخطاء الممارسات الدينية اليهودية. مع كل ذلك، اعتقد المسيحيون أن المسيحية كانت شيئاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جديداً وأن خدمة المسيح التي قام بها أوجدت في الزمن تحركاً إلهياً أخروياً (مختصاً بأمور الآخرة)، وأن القصد من اليهودية قصد إعدادي وقد عفا عليها الزمن وانقضت بوصفها الأداة لنعمة الله. لكن المسيحيين في ذلك كله حافظوا على الاعتقاد بأن الله حقاً اختار إسرائيل وأنه فعلاً أعلن لهم الحق وأن بالإمكان تتبع خط أعمال الله العظيمة في الفداء عبر تاريخ إسرائيل.

لماذا اختار الله إسرائيل؟ إننا لا نجد سبب هذا الاختيار في بني إسرائيل أنفسهم. فالجواب عند الله وحده. يصف بولس النقطة المركزية لاختيار الله بالكلمات: "أحببت يعقوب وأبغضت عيسو" (رومية 13:9). وعندما يحاول إيضاح اختيار الله هذا ليعقوب دون عيسو، كما يتبين في هذه الآية بأسلوب المبالغة السامية، فهو يصر على أن التفسير يجب أن يوجد في اختيار الله. ويقول بولس أنه "وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً، لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار، ليس من الأعمال بل من الذي يدعو" (رومية 11:9). لقد قدم المؤلف هـــ.هـــ. راولي (2) خدمة رائعة عن طريق كتابة الممتاز في موضوع عقيدة الاختيار الذي يصر فيه على أن الإختيار يجيء دائماً على ضوء المهمة التي من أجلها يختار الله فرداً أو أمة. رأينا كيف تم هذا في مسألة آشور. فتلك الأمة، بعد أن اختيرت أداة ليُجري الله بها دينونته على إسرائيل، رفضت وحكم عليها بسبب شرّها حالما أتّمت المهمة التي أوكلت إليها. وعندما ننظر إلى اختيار إسرائيل نتوقع أن نرى كيف يطبق المبدأ ذاته. صحيح أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اختيار الله لإسرائيل كان اختياراً للكرامة رافقته امتيازات إلهية. لكن الأهم في دعوة الله لهم ليس ما لهم من امتيازات بل بالحري ما عليهم من واجب ومسؤولية أمام الله.

وعندما نسأل: ما هي مهمة إسرائيل؟ نجد الإجابة في الضرورتين العظميين اللتين واجهتا الله في قصده لخلاص العالم. كان عليه أولاً أن يعلن نفسه للإنسان، وثم أن يعالج مشكلة الخطية. خدم إسرائيلُ الله أول كل شيء كأداة أو وسيلة أعلن بها الله للعالم عن ذاته وعرّفهم بنفسه. لقد فعل الله ذلك، حسب قول كاتب الرسالة إلى العبرانيين (عب 1:1-2)، "بأنواع وطرق كثيرة". أن قصة إسرائيل، إجمالاً، هي قصة تسلمهم الإعلان الإلهي عن طريق أعمال الله العظيمة، وعن طريق ممارستهم ديانتهم، ثم عن طريق كلام الأنبياء ومع أنه لا بد من القول أن هذا الإعلان كان تحضيرياً وغير كامل، فهذا التحضير كان ضرورياً للإعلان الإلهي النهائي في المسيح، نجد هذا الإعلان مسجلاً على صفحات العهد القديم، ولكنه من حيث مداه لم يكن منحصراً في بني إسرائيل وحدهم. تشتّت بنو إسرائيل بين أمم العالم بواسطة أحداث تاريخية (اندمجت بقوة الله،حسبما نعتقد، في قصده الفدائي)، ونتيجة لتشتتهم نشروا معرفتهم بالله، ولو جزئياً على الأقل، بين الأمم. وهكذا، بعد أن أعلن الله نفسه لإسرائيل هيأهم ليفهموا ويقبلوا الإعلان الإلهي الكامل في المسيح. وليس هذا فقط بل أعد الطريق بذلك الإعلان لكي يسمع أمم العالم الإنجيل المسيحي ويقبلوه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على كل حال، كان القصد الإلهي النهائي في اختيار إسرائيل، في الدرجة الأولى، إعداد الوسيلة البشرية التي بها يرسل الله ابنه الى العالم. ولا يرى كاتب الرسالة إلى العبرانيين في طقوس اليهودية من ذبائح وغيرها سوى رموز أو ظلال لذبيحة الخطية النهائية (عبرانيين 9:8،9). لم يفهم بنوا إسرائيل كل الوقت أن خدمته لله محدودة بهذا الشكل، بل كثيراً ما تصرفوا كما لو أن الله كان معتمداً عليهم لإتمام أعمال الفداء. ومع ذلك فيعلم كل من العهد القديم والعهد الجديد أن خدمة إسرائيل كانت تسير نحو هدف أعلى وأفضل ونهائي.

هذه هي الحقيقة التي تفسر أن إسرائيل، كأمة، فقدت اختيارها. عندما بلغ الناموس هدفه في المسيح (رومية 4:10) لم يعد بنوا إسرائيل يدركون يد الله ولذلك لم يستسلموا للحركة الجديدة. صحيح أن كثيراً من الأفراد اليهود تركوا أمتهم وصاروا مسيحيين، وصحيح أيضاً أن الأمة ككل واصلت سيرها بتوجيه من الفريسيين والمعلمين مبتعدة عن المجرى الرئيسي لقصد الله. خلق هذا الوضع مشكلة في القرن الأول ولا يزال يزعج أفكار البعض الذين لم ينظروا إلى اختيار إسرائيل في ضوء المهمة الموكولة إليهم وكان السؤال: كيف تكون المسيحية الديانة الصحيحة وبنو إسرائيل متروكون خارجها؟ نجد المعالجة الكبرى لهذه المشكلة في العهد الجديد في الإصحاحات 9 إلى 11 من رسالة رومية، وهي الفصول التي يعتبرها لبعض القسم المركزي في رسالة رومية، قال أحد الكتاب الذين يرون هذا الرأي أن رسالة رومية كانت محاولة من بولس "ليوفق بين عقيدته بالخلاص المسيحي لكل العالم والادّعاءات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اليهودية القديمة بالأسبقية بالنسبة للوعود المختصة بمجيء المسيح". وسواء أصح هذا الرأي أم لم يصحّ، فرسالة رومية تعترف بأن رفض أكثرية اليهود للرسالة المسيحية ولقبول الخلاص يشكل مشكلة لا يستهان بها.

لنلق نظرة سريعة على هذه الإصحاحات. ولكن قبل ذلك، لنذكر أنفسنا بأن موضوع بحثنا هو لاهوت التاريخ وليس عقيدة خلاص الفرد. إن عدم استطاعة بعض العلماء إدراك الفرق بين الموضوعين أحدث أضراراً كثيرة. يبدأ بولس بالاعتراف بالمشكلة ويبين ما هي (9:1-5). ثم يبين أن الوضع الحالي لا يعني أن كلمة الله قد فشلت. فالاختيار لم يكن قط على أساس آلي تلقائي ولا هو مؤسس على مجرد التسلسل الطبيعي من الآب إلى ولده (9:6-13). ثم، اتخذ بولس فرعون مثلاً يبين به أن الله يختار أدوات مختلفة من أجل مقاصده الخاصة، ويقول أن اختياراً كذلك يكون دائماً مؤسساً على مشيئة الله السائدة (9:14-18). وهذا يعني أنه ليس لأي إنسان أو لأية أمة حق الاعتراض على ما قرره الله لذلك الإنسان أو الأمة من مكان في التاريخ. فالقصد من الترتيب الإلهي كله هو أن "يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد، التي أيضاً دعانا نحن إياها، ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضاً" (9:23-24). بهذا أنهى بولس بحثه في حرية سيادة الله ليرتب التاريخ كما هو يستحسن. إن الذي جعل الله يقوم بكل تلك الأعمال هو قصده في تأسيس الديانة المسيحية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بعد أن أجاب بولس عن مسألة ادّعاء إسرائيل ومطالبتهم لله، ينتقل إلى البحث في سبب حرمان اليهود كأفراد من بركات المسيحية. والإجابة بالنسبة إليهم، كما إلى جميع الذين خسروا تلك البركات من أية أمة كانوا، هي في رفضهم أن يطلبوا برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح. لقد طلبوا ذلك البر، ولكن عن طريق القيام بالأعمال أي باستحقاقهم هم، وهي الطريقة التي تعجز دائماً عن تحقيق القبول لدى الله (رومية 30:9 إلى 21:10).

هل يعني هذا، إذن، أن الله رفض شعبه و لم يبقَ لهم أي رجاء؟ يؤكد بولس أن الله لم يرفض شعبه، وأن لا يزال هناك رجاء. لكن ذلك الرجاء لا يتحقق إلا بالاندماج في الحركة المسيحية وليس بالإصرار بعناد على التمسك بحقوق الأمة ككل. وأما القول بأن لليهود، كما للأمم الأخرى، نصيباً في اختيار الله الجديد فقول صائب، إذ أن بقية منهم قد نالت الخلاص فعلاً، تلك البقية التي كان بولس يعتبر نفسه واحداً منها. يتفق هذا مع تعامل الله التاريخي مع شعبه منذ أيام إيليا، ولا يبطل، بحال من الأحوال، اختياره لإسرائيل (11:1-10). وأكثر مما تقدم، إن أعمال الله في بني إسرائيل تشكل شجرة الخلاص الحقيقية. إن جذور هذه الشجرة هي في بني إسرائيل، ولليهود اليوم حق طبيعي للاشتراك فيها. وقطع الله اليهود من الشجرة (بسبب عدم إيمانهم) وآخرون من غير اليهود طعّموا فيها. لكن بولس يرجو رجاءً مخلصاً بأن هذا سيؤول أخيراً لرجوع اليهود، على نحو عامّ، إلى الاختيار الجديد وإلى الديانة الجديدة،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكي يُطعّموا هم أيضاً من جديد في شجرة الإيمان ويندمجوا في قصد الله (11:11-32).

نستنتج من كل هذا أن اختيار إسرائيل في قصد الله التاريخي قد انقضى ومهمتهم قد تمّت. لكن اختيار النعمة لا يزال قائماً. ويقف اليهود اليوم في طبقة وصفّ واحد مع غيرهم من الشعوب. قد يستخدمهم الله بالطرق ذاتها التي يستخدم بها روسيا أو أميركا أو أي بلد آخر، لكن ليس لهم أي حق خاص يطالبون الله به. ففي الاختيار الجديد، أي اختيار النعمة التي في المسيح، ليس لبني إسرائيل مهمّة خاصة يقومون بها. على كل حال، يرحب الله بشعب إسرائيل ليشتركوا مع سواهم في ثمر قصد الله الذي قصده في عمل الفداء. يمكنهم أن يقبلوا المسيح فيصيروا مسيحيين مؤمنين، ويصبحوا شركاء في الاختيار الجديد. هنا يقع المصير الصحيح لإسرائيل، وليس بإعادة تأسيس أية مملكة أو مؤسسة في المستقبل، وهي أشياء انتهى عملها التاريخي بالنسبة لقصد الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الخامس

قصد الله في المسيح

"لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه....ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني" (غلاطية 4:4-5). يؤيد بولس بهذه الكلمات الاعتقاد المسيحي السائد والقائل بأن خدمة المسيح كانت "قمة التاريخ المزدحمة" (1)، وهو الاعتقاد بأن النهاية الكاملة لقصد الله الفدائي في العالم تتمّ في المسيح. وسبق أن لاحظنا أن في العهد القديم شيئاً من عدم الاكتمال، وشعوراً بأن الله لا يزال سائراً نحو الذروة في تكميل عمله الفدائي. أما في العهد الجديد فنجد الشعور ببلوغ المطلوب والقناعة العظيمة بأن عمل الله قد وصل الذروة وقصد الله قد تحقق. إن كنا نودّ فهم رسالة العهد الجديد فعلينا أن نفهم أن "مركز الثقل" لا يقع في الماضي في تاريخ إسرائيل، ولا في المستقبل في المجيء الثاني للمسيح، ولا في الأعالي في قوة الله الفائقة. يقع مركز الثقل في المسيح، في مجيئه الأول، في الخدمة والعمل الفدائي اللذين قام بهما المسيح على الأرض.

نجد هذا الاعتقاد كامناً ضمن كل صفحة من صفحات العهد الجديد بل ومصّرح به بعبارات واضحة في كثير من المقاطع. نجد بطرس في عظته يوم الخمسين يفسر ظهور الروح القدس العجيب بالقول بإصرار بأن التلاميذ لم يكونوا سكارى بل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن الله قام بإرسال روحه ليحل على البشر كما سبق ووعد. وقال مؤكداً: "هذا ما قيل بيوئيل النبي: يقول الله ويكون في الأيام الأخيرة أني أسكب من روحي على كل بشر" (أعمال 2:16-17). تبلغ عظة بطرس ذروتها عندما قال مجلجلاً: "فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً" (أعمال 2:36). وبما أن كلمة "رب" كانت الاسم العام الذي أطلقه بنو إسرائيل على الله، وكلمة "المسيح" كانت اللفظة التي كانت تجتمع حولها لدى إسرائيل كل آمالهم في الفداء، لذلك فهذا التصريح يؤكد أن في خدمة المسيح التي قام بها على الأرض بلغ العمل الفدائي الإلهي ذروته.

والحقيقة ذاتها كانت واضحة ايضاً في الخطاب الذي ألقاه يعقوب في يعقوب في مؤتمر أورشليم (أعمال 15:13-21). وكان هذا المؤتمر قد انعقد ليفصل في النزاع حول مسألة قبول في الشركة المسيحية. فكان البعض يصرّ على أن عليهم أن يصيروا يهوداً بالإضافة إلى إيمانهم بالمسيح. ولكن بعد الكثير من الجدل خذل أصحاب هذا الرأي، وبين يعقوب السبب الذي من أجله رفض رأيهم. فقدم لذلك أساسين. الأول، يتضح من الخدمة التي قام بها سمعان بطرس أن الله "افتقد الأمم" بالخلاص ليأخذ منهم شعباً على اسمه" (عدد 14). والثاني. إن افتقاد الله هذا للأمم في الأيام الأخيرة من فدائه يتفق مع النبوة القائلة بأن خيمة داود "الساقطة" ستبنى (عدد16). إن إقامة بيت داود من جديد سيؤول، حسب النبوة، إلى وضع جديد فيه يطلب "الباقون من الناس" (أي الأمم) الرب (عدد 17). أن القرار الذي اتخذه الرسل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والمشايخ في مؤتمرهم يبرهن على أن الجماعة المسيحية بكاملها كانت تشعر بأنها تعيش في الأيام التي يقوم فيها الله بالدور الأخير في دراما الفداء.

ويبين كاتب الرسالة إلى العبرانيين أن له الاعتقاد ذاته. والواقع أنه ليس من عبارة تبحث في هذا الجانب من إيمان المسيحيين أوضح من العبارة التي في الرسالة إلى العبرانيين. ففي مستهل الرسالة يقول كاتبها: "الله... كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه" (عبرانيين 1: 1، 2). إن صيغة الفعل "كلّمنا" كما هو باليونانية صيغة الماضي التّام (أورست) والذي يعني أن الله كلّم البشر في المسيح ابنه بشكل نهائي. والإله الذي كلّم الناس في المسيح بهذه الصورة النهائية هو الإله ذاته الذي كلّم "الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة" (1: 1). ويؤكد الكاتب في هذه العبارة أن الله لم يتكلم بشكل نهائي في المسيح فقط بل أيضاً، عندما كلم الآباء بالأنبياء، لم يكن كلامه لهم آنذاك بشكل نهائي. وفي الإصحاح الثاني من الرسالة يعالج الكاتب عمل الفداء الذي بالمسيح ويبيّن أنه تام. وفي هذا يستخدم أربع عبارات يشدد بها على تمام عمل الله الفدائي في المسيح: (1) دمّر إبليس (2: 14). (2) اعتق الذين كانوا في العبودية (2: 15). (3) أصبح رئيس كهنة رحيماً وأميناً "حتى يكفّر خطايا الشعب" (2: 17). (4) هو قادر دائماً أن يُعين المجرَّبين لينتصروا على تجاربهم (2: 18).

إن كاتب الرسالة إلى العبرانيين، في أثناء سيره في البحث، يؤكد على تفوّق المسيح وعلى أن فداءه نهائي ومطلق. إن القسم الأعظم من الرسالة مخصص لإظهار أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الممارسات والذبائح الكهنوتية لم تكن إلا "ظل الخيرات العتيدة" (10: 1). فالظل لا يقدر أن يفدي، أما المسيح فيقدر، وقد فدى. "لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين" (10: 14). ونجد نتيجة عمله الفدائي في "الطريق الحديث الحيّ" الذي هو الآن مفتوح إلى "الأقداس" (10: 19- 20). وفي "العهد الجديد" الذي أقامه بين الإنسان والله، وهو عهد حلّ محلّ العهد العتيق الذي عمل سابقاً بواسطة خدمة موسى (8: 1- 10).

تكفي هذه المقاطع من الرسالة لتبين مركزية هذه الفكرة في العهد الجديد. لقد التقى الله والإنسان التقاء كاملاً، هذا الالتقاء العتيد الذي إليه كان يشير كل التاريخ وإليه كان يتجه، وتم هذا في شخص واحد. أصبح وقت الالتقاء بين الله والإنسان مركزاً للتاريخ. ومن هذه النقطة يبدأ كل تحرك المستقبل. لقد أصبح مجيء المسيح إلى العالم، بهذا المعنى، "مكملاً تاريخ الكتاب المقدس وواسماً إياه بوصفه مجموعة أحداث ذات معنى، التي هي في الواقع أعمال الله العظيمة، وفي الوقت ذاته، كلمته إلى الناس".

هذه القناعة هي المقصود بالتعليم المعاصر الذي صار يدعى "علم الأمور الأخيرة المحققة"، وهو الإصطلاح الذي استخدمه أولاً الدكتور ضود (Dr. C. H. Dodd)، والذي، كتعليم، يعود إلى العهد الجديد نفسه. إن الكلمة اليونانية "اسكاتوس" (التي تعني الأخير) تحمل معنيين. المعنى الأول هو المتعلق بالزمن، كوصفنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أي حادث بأنه "الحادث الأخير في مجموعة حوادث". أما المعنى الآخر والوارد كثيراً في العهد الجديد، فله صفة"النهائية. "إن "الأخير"، من هذه الناحية، يعني "ذلك المتصف بالإطلاق، بالنهائية، حادثاً تتجه نحوه مؤشرات الحوادث الأخرى، حادثاً ذا مغزى نهائي مطلق بقطع النظر عن الحوادث التي تجيء بعده" مع الأسف، ليس في اللغة المترجم إليها الكتاب المقدس ما يميّز بين المعنيين. إن علم الأمور الأخيرة بالمعنى الزمني هو ذلك الدرس الذي يبحث في نهاية العالم، والمجيء الثاني، وقيامة الجسد، والدينونة والنظام الأبدي. أما من الجهة الأخرى ومن حيث المعنى الآخر، فعلم الأمور الأخيرة هو درس في "الأمور الأولى" الأمور ذات المغزى الأبدي، الأمور التي غيّرت العالم لا التي تنهيه، الأمور التي لا تحتاج إلى تحسين والتي لا يمكن أن تُنسخ بما هو أعظم منها. وبالنسبة لهذا المعنى النوعي الثاني تُعتبر خدمة المسيح الفدائية الحادث الأخير حقاً والتحرك الإلهي الذي غيّر العالم وأقام ملكه الروحي في قلوب البشر، الحادث الذي هو بداية كل التاريخ في المستقبل والذي يعطي التاريخ معنى وقيمة.

ولكي يمكن فهم العهد الجديد من وجهة النظر هذه، لابدّ من بيان الفرق بين النواحي الموضوعية والنواحي الذاتية في قصد الله في الفداء. الفداء الموضوعي هو ذاك الذي أنجزه بالمسيح، أما الفداء الذاتي فهو هذا الذي يختبره الإنسان عندما يُؤمن بالمسيح، لقد أتمّ الله عمل الفداء من الناحية الموضوعية، لذلك لا يحتاج هذا العمل لأي تكرار أو تحسين كما أنه لا يمكن أن يُنسخ أو يُستعاض عنه بأي شيء آخر. لقد تم عمل الفداء هذا بخدمة المسيح وعمله. أما من الناحية الذاتية فعمل الفداء يظل غير

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

متمّم ما دام العالم قائماً. تظل هناك حاجة لتكراره في قلب كل فرد وفي كل حياة كل إنسان يختبره، ويظلّ قابلاً للتحسين بالنسبة لإدراك الذين يختبروه. وهذا الفداء الشخصي الذاتي يجري في حياة الناس بواسطة عمل الروح المقدس.

يمكننا إعطاء مثل على الفكرة بذكر الانتصار الذي أحرزه علماء هذا العصر على جرثومة شلل الأطفال (البوليو). ومع أن هذا المثل غير كامل فهو يساعدنا، نوعاً ما، على فهم القضية. عندما اكتشف العلماء المصل الذي به يجري التطعيم ضد الشلل، في تلك الساعة جرى الانتصار موضوعياً على هذا المرض. لكن من الناحية الذاتية يجري الانتصار في حياة كل فرد عندما يطعّم جسم ذلك الفرد ويصير ذا مناعة ضد الشلل. وهكذا انتصر المسيح على الخطية انتصاراً كاملاً بموته وقيامته. اندحرت الخطية بذلك، غير أن اندحارها كان موضوعياً. لكن هذه القوة يجب أن تعمل في حياة كل مؤمن. يحتاج كل خاطئ أن يقبل المسيح رباً شخصياً له. عند ذلك يصبح الانتصار على الخطية حقيقة واقعة في حياته. بذلك تنكسر قوة الخطية شخصياً وينفتح الطريق شيئاً فشيئاً أمام الإنسان الخاطئ ليحقق في حياته المستوى المثالي الإلهي.

والآن لنتتبع مضمونات هذه الفكرة عن طريق درس نواحي الفداء المختلفة، تلك النواحي التي أكملها المسيح بشكل نهائي في خدمته على الأرض. أولاً، كان إعلان الله الذي جرى في المسيح إعلاناً مطلقاً ونهائياً. يؤكد إنجيل يوحنا أن "الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر" (يوحنا 1: 18). يبين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القسم الأول من هذه الآية أنه يستحيل على الإنسان أن يعرف الله معرفة صحيحة وكافية عن طريق سلسلة من الاكتشافات يقوم هو بها. ويصرح القسم الثاني من الآية بأن الله قام بإعلان نفسه والتعريف بنفسه، وأن هذا أوضح طبيعة الله وشخصية الله. جاء في رسالة تيموثاوس الأولى أن "الله ظهر في الجسد" (1 تيموثاوس 3: 18). تظهر هذه العبارة كما لو أنها كانت "اعترافاً بالإيمان" كان القدماء يتلونه في الأوساط المسيحية. إنها إذاً تمثل إيمان مسيحية العهد الجديد بشكل عام وليست صيغة عقائدية تفتقت عنها قريحة أحد الأشخاص. لكن هذا لا يعني أن كل إنسان يعرف الله معرفة كاملة بل أن معرفة الله أصبحت حقيقة في شخص المسيح. لا حاجة في المسيحية لكاهن أو هيكل أو ذبيحة كما كانت الحال قبل المسيح. لا حاجة كذلك لتوسط يقوم به ملاك أو نبي. فمعرفة الله مفرفة حقيقية قد أتت إلى عالمنا في المسيح. تظل الحاجة، بطبيعة الحال، أن يعي الناس هذه المعرفة، ولكن كل معرفة يعيها أي فرد لن تكون كاملة. لكن عدم الكمال في معرفة الإنسان لا يعود إلى خطأ أو عدم كمال في إعلان الله بل يعود إلى خطأ وعدم كمال في وعي الإنسان وفهمه للإعلان الإلهي. لذلك لسنا في حاجة إلى إعلان إلهي جديد، لكننا في حاجة لوعي جديد وإدراك أفضل لإعلان الله في المسيح. إن كل ما يرجو أن يعرفه الإنسان عن الله لا بد له أن يعرفه في المسيح. هذا هو إيمان العهد الجديد.

كذلك فإن مشكلة الخطية في الحياة البشرية جرت معالجتها نهائياً في المسيح. كان هذا إيمان كتّاب العهد الجديد جميعهم حتى ليقال بحق أنه التأكيد الأساسي في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

العهد الجديد. يقول بولس بلهجة التأكيد: "فالله، إذ أرسل ابنه..... دان الخطية في الجسد" (رومية 8: 3). وثم، "المسيح الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشريرحسب إرادة الله وأبينا" (غلاطية 1: 3، 4).يمكن اعتبار هذه الآيات كممثلة للعهد الجديد. وطبعاً، عندما نفكر بذبيحة المسيح لا نعني أنه بتلك الذبيحة تلاشت الخطية ولم يعد لها وجود في العالم. فالخطية لا تزال في حياة البشر، إلا أن قوتها قد تحطمت. فبالخدمة التي قام بها المسيح حصل النصر موضوعياً على الخطية. أما من الناحية الشخصية فالقوة التي تولدت بواسطة صلب المسيح تصير فعالة في حياة الفرد عندما يؤمن هذا الفرد بالمسيح وليس قبل ذلك.

يسود المسيحيين المؤمنين اعتقاد بالحقيقة ذاتها وهي أن المسيح دمّر الشيطان ومملكته. ويبدو مرقس كثير الاهتمام بهذا الانتصار، فنجده يسجل في إنجيله حوادث إخراج الشياطين أكثر مما سجله كتاب الأناجيل الأخرى. هناك مقطع رئيسي يبين كيف اتهم الفريسيون يسوع بأنه كان يخرج الأرواح بقوة الشيطان. رد يسوع هذا الاتهام إذ قال: "لا يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعته إن لم يربط القوي أولاً وحينئذ ينهب بيته" (مرقس 3: 27). يتضح من هذا المثل أن يسوع علّم بأنه ربط الشيطان، الأمر الذي منحه القوة لإخراج الأرواح. ويؤكد كاتب الرسالة إلى العبرانيين أن يسوع اشترك مع البشر في اللحم والدم "لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس" (عبرانيين 2: 14). وجاء في رسالة يوحنا الأولى أن إحدى غايات مجيء المسيح كانت أن "ينقض أعمال ابليس" (1يوحنا 3: 8). هذا لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يعني الآن أن إبليس لم يعد موجوداً ويعمل في العالم، بل يعني أن قوته قد انكسرت. فلا يقدر إبليس الآن أن يرغم أحداً على عمل الخطية أو الشر. ومع هذا فمن أراد النجاة من قوة الشيطان فلا بد له من أن يخضع نفسه للمسيح، وعلى المسيحي المؤمن أن يسهر باستمرار فلا يسمح للشيطان بأن يغزو حياته ويدمرها. على كل حال، النصر في هذه الحرب مضمون على الرغم من استمرار سير المعركة. وكما تبقى "جيوب من المقاومة" بعد ربح المعركة الفاصلة، ولا بد من "تطهيرها"، هكذا ستستمر الحرب ضد الشيطان في حياة شعب الله المؤمنين بالمسيح.

وأخيراً، أقام يسوع شركة كاملة بين الله والإنسان. "وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (1يوحنا 1: 3). إن الفرصة للحصول على شركة مثل هذه مع الله متاحة لكل إنسان بواسطة المسيح والخدمة التي قام بها، لكن هذه الشركة لا تتحقق إلا للذين ينالون الخلاص ويسلكون "حسب الروح" (رومية 8: 4). هذه هي العقيدة المسيحية التي تتلخص في القول أن "كل مؤمن كاهن" أو "كهنوت كل المؤمنين". إن الشركة مع الله في الحياة المسيحية هي تحقيق للمثل الأعلى لشعب الله كما هو في العهد القديم. قال الله لبني إسرائيل "تكونون لي مملكة كهنة" (خروج 19: 6). لكن عصيان إسرائيل وتمردهم على الله عطّل هذا الوعد، فأقام الله بديلاً الذي هو كهنوت اللاويين. وفي بداية العصر المسيحي رفض الله كهنوت اللاوي نفسه إذ لم تبق من حاجة إليه. فالطريق إلى الله أصبح مفتوحاً لكل المؤمنين بالمسيح. فالكل أصبحوا كهنة ولهم الحق في التقدم إلى الله من أجل أنفسهم. فمن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الناحية الموضوعية صار الطريق إلى الله مفتوحاً. أما من الناحية الذاتية فهناك حاجة للسير في ذلك الطريق. وهكذا يظل الفارق قائماً بين الموضوعي والذاتي من حيث هذه الناحية من الخلاص.

لكن علينا أن نتذكر أن خدمة المسيح، أي موته تكفيراً عن الخطية، هي الحادثة "النهائية" في عمل الفداء. إنها الخدمة التي كان الله يسير إليها في العصور الماضية بل منذ الأزل، "معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ولكن قد أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (1بطرس 1: 20). علينا أن نحذر من خطأ التفريق غير الصحيح بين خدمة المسيح وعمل الله الفدائي، إذ أن الاثنين واحد وأن "الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه" (2كورنثوس 5: 19).

لن يكون هناك ما ينسخ العمل الذي عمله الله في المسيح. وليس من حاجة لإضافة أي شيء إلى عمل المسيح. على كل حال، هناك حاجة لتطبيق عمل المسيح وإنجازه على حياة الناس وفي العالم. وسنرى في الفصل التالي كيف يتحرك الله في أيامنا في تنفيذ هذه الناحية من برنامجه الفدائي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل السادس

قصد الله في العصر المسيحي

كيف تستمر خدمة المسيح في عالمنا في هذه الأيام؟ كيف يواصل الله عمل الفداء في العالم؟ إن الإجابة عن هذين السؤالين هي بشكل رئيسي في حضور الله في كنائسه وفي عمله من خلالها، فإن هذا ما يشهد به كتاب العهد الجديد. لا يعني هذه أن الله غير حاضر كخالق في العالم بطرق أخرى، بل أن المقصود هو أن النقطة المركزية لعمله هي وسط شعبه الذي هو الكنيسة. لقد لاحظنا أن عمل الله، في إعداده العالم لتلقي ذروة عمل الفداء في المسيح، كان ظاهراً في الطبيعة وفي التاريخ العام، لكنه كان يتركز في قصة بني إسرائيل، الشعب المختار. نرى الشيء ذاته في العصر المسيحي. يمكن للمؤمن أن يميز بعين الإيمان حضور الله في التاريخ وفي الطبيعة، لكن النقطة التي يتركز فيها عمله هي في كنائسه.

يتضح صدق هذا القول من تعاليم العهد الجديد التي تدور حول الكنيسة. دعا يسوع في بداية خدمته جماعة من الرجال ليتبعوه ولتتكون منهم نواة "حكم الله" الجديد الذي جاء يسوع ليقوم بإنشائه. وقال لتلك الجماعة أنهم "ملح الأرض" وأنهم "نور العالم" (متى 5: 13، 14). وفي سني حياته على الأرض درّب تلك الجماعة في مبادئ العمل المسيحي الجماعي. وفي الليلة الأخيرة التي سبقت موته وعد جماعته أنهم سيحصلون على الروح القدس الذي بواسطته سيظل هو والآب مقيمين باستمرار في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تلك الجماعة بطريقة يستحيل على العالم أن يختبرها (يوحنا 14: 15- 20). وبعد قيامته أعطى كنيسته الأولى تعليمات ليتبعوها في سيرهم، وهي التعليمات التي تعتبرها كل كنيسة حقيقية ليسوع المسيح منذ ذلك اليوم أنها تعليمات مختصة بها. "كما أرسلني الآب أرسلكم أنا" (يوحنا 20: 21). "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به" (متى 28: 19- 20).

لقد وعد أتباعه بأنهم وهم يقومون بتنفيذ مهمتهم سيختبرون حضوره الدائم معهم حتى نهاية العصر المسيحي (متى 28: 20). كانت الخطة أن يتحقق حضوره بينهم بواسطة شخص الروح القدس (يوحنا 14: 18، قارن عدد 16). إن حضور الروح فيهم يبكّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة (يوحنا 16: 8- 11). إنه سيسلبهم قوة القيام بعمل حمل الشهادة لغفران الخطايا الذي أصبح الآن ممكناً بفضل آلام المسيح وقيامته (لوقا 24: 45- 59 وقارن أعمال الرسل 1: 8) وكانت هذه المواعيد تعني أنهم كانوا الشعب المختار الجديد وأداة قوة الله لإنجاز قصده الفدائي في العالم. "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم" (يوحنا 15: 16).

نجد في سفر الأعمال شهادة متواصلة بأن الكنيسة الأولى احتلت مكانها في برنامج الفداء الإلهي. وإذ كان التلاميذ يشعرون بحاجتهم للقوة الإلهية اجتمعوا وصلوا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

معاً من يوم صعود المسيح حتى يوم الخمسين (أعمال 1: 14). ولما جاء يوم الخمسين حلّ الروح أيضاً بقوة، فامتلأ كل أفراد الكنيسة بالروح وابتدأوا يتكلمون برسالة الله بتوجيه الروح (أعمال 2: 1- 4). وإذ شعر بطرس بالتحدي وقف ليفسر ماكان يجري فأشار إلى وعد الله في العصر النهائي، "الأيام الأخيرة"، بأنه سيسكب من روحه على كل بشر وقال إن إظهار روح الله هذا هو إتمام لذلك الوعد (أعمال 2: 14- 18). كانت الشهادة قوية حتى أن ثلاثة آلاف نفس انضمت إلى المؤمنين في ذلك اليوم وحده (أعمال 2: 14). وفي الإصحاحات التالية من سفر الأعمال (أي الإصحاح 3إلى 7) قصة رائعة متصلة عن حياة هذه الجماعة الأولى من شعب الله بعد أن طهرت نفسها من الفساد الداخلي وتغلبت على المنازعات والانقسام، فقام من بينها أول شهيد مسيحي، وشهدت بقوة متزايدة لإنجيل المسيح ربنا.

لكن اختيار الله لم يقف عند حدّ هذه الجماعة الأولى بل امتد إلى جماعات أخرى مشابهة أصبحت بدورها نقطة التركيز لعمل الله في محيطها الخاص بها. لدينا مثل على هذا في الكنيسة التي قامت في أنطاكية. فبعد أن تأسست هذه الكنيسة من قبل لاجئين جاؤوا بعد اضطهاد أورشليم، استطاعت أن تكسر الحواجز العنصرية وتقّدم الشهادة عن المسيح للأمم، ومارست ديانتها بغيرة وإخلاص حتى أنهم لُقبوا "بالمسيحيين"، وعملوا بإرشاد الروح القدس فارسلوا أول مرسلين في الحركة الجديدة إلى البلدان الخارجية (أعمال الإصحاحات 11 إلى 13). من الواضح أنهم اعتقدوا ان لديهم المأمورية والوعد اللذين أعطاهما يسوع للكنيسة الاولى في أورشليم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن سيرة بولس، المرسل الأمثل، تبين أنه كان يعتقد الكنائس الوسيلة الرئيسية لعمل الله المستمر في العالم. فبعدما أتم رحلته التبشيرية الأولى عاد أدراجه فمرّ بالمدن الهامة ليطمئن إلى أوضاع جماعات التلاميذ غيها ويوجههم ليقيموا لهم مرشدين، فكان بولس يفهم مركز تلك الجماعات الهام بالنسبة لشهادة المسيح (أعمال 14: 21-23). وكان في رحلاته التالية يمر بهذه الكنائس نفسها ليشددهم ويشجعهم قبل أن يواصل السير إلى مراكز جديدة لتبشير تلاميذ جدد وإقامة كنائس جديدة. كتب بولس رسائله إلى كنائس فردية أو إلى مجموعات من الكنائس، إذ كانت لهذه المجموعات قضايا متشابهة، وذلك ليساعدهم ليكونوا وكلاء أمناء لإنجيل المسيح. كان يعتقد أن كل كنيسة بمفردها هي "جسد المسيح" (قارن رومية 12: 5)، وأنه مهما كانت حال الكنيسة بالنسبة للخطية فهي تظل تعتبر "كنيسة الله" (1كورنثوس 1: 2). هذه لا يعني التساهل مع الخطية، فالوضع الخاطئ يجب أن يصحح. لكن الكنيسة مع ذلك تظل كنيسة الله وتظل جسد المسيح، وتظل التجسد المستمر للمسيح في العالم والوسيلة الأولى لعمل الله في المحيط الذي تقع فيه.

هذا الحق لا يزال قائماً قي أيامنا، فكنائس الله هي الوسيلة الأولى والرئيسية التي يستخدمها الله لفداء العالم. أحياناً يصعب على المرء أن يصدق قولاً كهذا. هناك كنائس غارقة في الروح العالمية، وكنائس شقها النزاع بين أعضائها، وكنائس تركت التعليم الصحيح واتبعت الضلال، وكنائس أمست غير مبالية بخلاص العالم. وقد يبدو لمن هم ضعفاء في الإيمان أن علينا أن نفتش بعيداً عن الكنيسة لنرى يد الله تعمل في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

العالم. لكن الأنموذج الذي في العهد الجديد لا يزال قائماً في أيامنا. إن كنا نريد أن نرى الله يعمل في العالم فعلينا أن نتطلع إلى خدمة كنائسنا. فكل كنيسة لا تزال "جسد الله"، أو على الأقل، إن هذا ما يجب أن تكون عليه كل كنيسة. هذا هو اختيارنا، وهذه هي دعوتنا من الله. أما إذا فشلت في إتمام هذه المهمة، ونظرنا إلى دعوتنا كما لو كانت لكسب الامتيازات لا لحمل المسؤولية، فإن اختيارنا سيسحب مثلما حسب اختيار إسرائيل. لا تستطيع أي كنيسة أن تعتبر نفسها كما لو أن الله لا يستغني عنها. ولكن إن كان الله يرفض من الخدمة بعض الكنائس فإنه سيقيم غيرها لإتمام عمله. إنه يختار كنائس أخرى لهذه الغاية. هذا ما يشهد به التاريخ كما يشهد به العهد الجديد.

دعونا نصر على هذه الحقيقة، ولكن يجب ألا ننسى أن الله، مع عمله رئيسياً بواسطة كنائسه، يعمل أيضاً بطرق أخرى. يحدث أحياناً، ولاشك، أن يكون لحياة فرد ما تأثير فدائي كبير في العالم. لنا أمثلة على ذلك في أيام العهد الجديد في حياة بولس وبطرس وغيرهما. وفي التاريخ أمثلة أخرى مثل مارتن لوثر وجون كَلفن ووليم كاري. من المحتمل أن الله في أيامنا اختار بعض الرجال ليتمموا قصده خاصاً. غير أن خطة الله المعتادة للفداء هي أن يستخدم حياة الفرد وأن يجري ذلك من خلال الخدمة التي تقدمها الكنيسة المحلية. ولاشك في أن العهد الجديد لا يذكر قط أن أي مسيحي تجاهل الشركة مع المؤمنين الآخرين في خدمة الله. بل نجد أن القادة الكبار كانوا يوجهون جهودهم نحو تشديد تلك الجماعات المفدية والفدائية الأولى وتقويتها. كما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن حياة الرجال العظام في التاريخ كان يظهر تأثيرها الأعظم عندما كانت خدمة أولئك العظام تُجرى من خلال الجماعات المحلية لشعب الله في زمنهم. إن وصية بولس التي يعظ بها أهل فيلبي تظل صالحة لتأخذ بها كل مجموعة مسيحية، وهي الوصية القائلة: "عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح حتى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائباً أسمع أموركم أنكم تثبتون في روح واحد مجاهدين معاً بنفس واحدة لإيمان الإنجيل" (فيلبي 1: 27).

إن ما قلناه من أولية الكنائس وأهميتها لا يعني أن نتخلى عن اعتقادنا بأن الله عامل في التاريخ أيضاً. صحيح أننا لا نقدر دائماً أن نميز اصبع الله في حركات التاريخ وأحداث الزمن، ولكننا نستطيع أن نثق بأن الله لا يزال يحكم العالم لمقاصد فدائية. في بعض الأحيان نستطيع أن نثق بأن الله لا يزال يحكم العالم لمقاصد فدائية. في بعض الأحيان تستطيع عيون الإيمان أن تميز المغزى الفدائي في أحداث الماضي. حقاً إن بعض الأحداث كانت عظيمة الأهمية لتقدّم المسيحية حتى أنه لا يعجز عن رؤيتها إلا الأعمى. فانتقال مركز المدنية إلى الغرب، وقيام الولايات المتحدة، وانحلال الحضارة الوثنية، كل هذه كان لها قسط كبير في تهيئة الطريق للوعظ بإنجيل يسوع المسيح. ولدينا التأكيد بأن الله الحي هو القوة الخلاقة التي تعمل في التاريخ من خلف الستار والتي جعلت الأحداث تحدث. وحتى أحداث الزمن الحاضر مثل ظهور البلدان الإفريقية وقيام الثورات الإجتماعية في العالم وضمور العالم ليصبح مجتمعاً واحداً، كل هذه لها مغزى فدائي. يستطيع المرء بعين الإيمان أن يرى طرقاً تكون بها حركات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التاريخ ثورية حقاً في فداء الإنسان. لكن المؤمن لا يقدر، بل يجدب ألا يحاول تفسيركل حادث فردي، إذ أن تمييزه غير كامل حتى أنه في نهاية المطاف لا يشجعه إلا على الاعتقاد بأن الله حقاً يعمل في العالم. إنسان الإيمان يكتفي بإيمان كهذا ويواجه المستقبل غير هياب بفضل ثقته بحضور الله الخلاق في نظام العالم.

يعلم المؤمن أيضاً أن الحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مهما كانت واسعة ومفيدة، لا تقدر في ذاتها أن تكون ذات أهمية فدائية كبرى. فلو ساد السلام العالم و لم يعد أي تهديد بالحرب، وزال كل فقر وعم الرخاء البشر، وزال كل حقد وتحامل من بين الناس وأصبح الجميع متساوين، فهذا في ذاته غير كاف لخلاص نفس واحدة. تخلص نفس الإنسان بسماعها كلمة الإنجيل. أما الأحوال الطيبة التي ذكرت فتساعد على فتح الطريق للوعظ بالإنجيل ولتقديم الخدمة التي تقوم بها كنائس يسوع المسيح في كل العالم. لهذا السبب نجد كل مؤمن يرجو بإخلاص ويصلي ويعمل لكي تجري تغييرات نحو الاتجاه الصحيح في نظامنا الاجتماعي.إلا أن التشديد الأعظم يجب ألا يكون على هذه التغييرات. إن كنا نبغي المشاركة في عمل الله الفدائي فيجب علينا أن ننخرط في الخدمة الفعالة التي تقوم بها كنائس الله في العالم.

يجب علينا، ونحن نبحث في الوسائل، ألا ننسى قصد الله في عصرنا. فهو يسعى لخلاص الناس، وهذه هو اهتمامه الأول الذي يفوق كل اهتمام آخر. إن خدمة يسوع المسيح النهائية الكاملة قدمت الخلاص فأصبح متاحاً لكل العالم.وإن القصد من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عمل الله المستمر في العالم هو تحقيق هذا الخلاص عملياً لأكبر عدد ممكن من الناس. فالله، بحسب إيمان العهد الجديد، لا يريد أن أحداً يهلك (2 بطرس 3: 9). لقد رأى بطرس في هذه الحقيقة تفسيراً لتأخر مجيء المسيح ثانية. بل نجد في هذه الحقيقة نفسها سر كل ما يعمله الله في عالمنا هذا. إن هذه الحقيقة ذاتها تتحدانا لنثبت متمسكين بإيماننا ونحيا هكذا فبحضور الله الدائم الخلاق في العالم. إننا نواجه التحدي لنبحث عن مكان الخدمة حيث يستطيع الله استخدام حياتنا حسب قصده. إننا مدعوون لنتحد بعضنا مع بعض في حياة الكنيسة عاملين على إقامة لك النوع من الكنائس الذي يصلح لأن يكون قنوات تجري بواسطته قوة الله. أننا مدعوون لنكون أمناء الله، ساعين لإتمام القصد الأول من وجودنا في العالم- إلا وهو خلاص الأرض وكل الساكنين فيها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل السابع

قصد الله في اكتمال الدهور

في العهد الجديد نظرتان، الأولى إلى الأمام والأخرى إلى الوراء. إن إيمان المسيحيين بنهاية المسيح ونهاية عمله يلوح واضحاً كالنور اللامع الصافي على صفحات العهد الجديد. إلا أن كتاب العهد الجديد اعتقدوا بأن التحقيق النهائي لفداء الله سيكون في المستقبل بعد التاريخ. لقد تطلع أولئك الرسل إلى الأمام وتوقعوا مجيء المسسيح ثانية، وقيامة الموتى، ودينونة العالم، وقيام النظام الأبدي عندما يسود حكم الله سيادة كاملة.

قد يعترض البعض فينكرون أن هذا الإيمان هو جزء لا يتجزأ من الإيمان المسيحي ، ويعلنون أن العبارات التي تتناول قضايا ذلك الإيمان ما هي إلا بقايا خرافة يهودية وقد رفضها كتاب العهد الجديد المتأخرون. لكن من يدرس العهد الجديد يكتشف بأن هذا الاعتقدا هو جزء لا يتجزأ من العقيدة اللاهوتية المسيحية وأنه اعتقاد جميع كتاب العهد الجديد. لقد وعد يسوع تلاميذه بان يأتي ثانية ويأخذهم إلى المكان الذي أعده لهم حتى "حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً" (يوحنا 14: 2، 3). وجاء في إنجيل متى قول يسوع بأن كل الشعوب سيقفون أمامه للدينونة الأخيرة (متى 25: 31- 36). وكانت الكنيسة الأولى تعتقد بأن الله سيرسل يسوع المسيح "الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبياءه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القديسين " (أعمال 3: 21). وبولس أيضاً كان يعلم بوجود نظام إلهي للقيامة. فهو يقول في رسالته الاولى إلى أهل كورنثوس: "المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه. وبعد ذلك النهاية، متى سلم الملك لله الآب، متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة. لأنه يجب أن يملك حتة يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدو يبطل هو الموت" (1كورنثوس 15: 23- 26). ويصر كاتب الرسالة إلى العبرانيين على القول مع بولس بأن حكم المسيح الروحي الحالي سيدوم إلى أن "توضع أعداءه موطئاً لقدميه" (عبرانيين 10: 13). ويقول الكاتب ذاته أيضاً- "وكما وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة، هكذا المسيح أيضاً، بعدما قدم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه" (عبرانيين 9: 27، 22). ويرى يوحنا أن ظهور المسيح الأخير لدى مجيئه سيكون ذروة الاختبار المسيحي، فنراه يقول في رسالته الأولى: "أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله، و لم يظهر بعد مادا سنكون. ولكن نعلم أنه، إذا أظهر، نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (1يوحنا 3: 2).

يشتهر سفر الرؤيا بتصويره آخر الزمن ومجيء المسيح نهائياً. يجب أن يعتبر هذا التعليم ويقبل كجزء من إيمان المسيحيين الأساسي.

لكن، من ناحية أخرى، يجب إلا يعطى هذا التعليم المقام الأول في الإيمان. إن مجيء المسيح الأول هو الأول في الأهمية وليس من حيث الزمن وحسب. إنه الأول في الأهمية في عمل الله في الفداء. إن كل الذي سبق فقلناه في الفصل الخامس من هذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكتاب يبين هذه الحقيقة. لقد تم فداء الإنسان في خدمة المسيح على الأرض. وبالفداء أصبح كل ما سيجري في حياة الإنسان في المستقبل مضموناً. يجب ألا يشغلنا التفكير بالسماء إلى حد تحويلنا عن حمل الإنجيل إلى العالم. يجب ألا تستولي التخمينات المتعلقة بالأمور الأخيرة على أفكارنا فلا نعود نرى أولوية الأمور الأولى وأهميتها.

ليس في مجال قصدنا من هذا الكتاب أن نبحث بحثاً كاملاً في تعاليم العهد الجديد المتعلقة بالحياة القادمة أي بعد الموت. إننا إنما نتتبع تلك الدراما العظيمة، دراما الفداء التي ابتدأت بالخليقة وتبلغ ذروتها في السماء. لذلك لن يشتمل هذا البحث على المسائل التي تشغل أفكار عدد كبير من الناس. إن الكثير من هذه المسائل لا تجد لها جواباً على اساس معطيات العهد الجديد. بينما نجد في العهد الجديد صورة واضحة للأحداث الرئيسية في أعمال الفداء النهائية. أولاً، سيكون ظهور نهائي للمسيح أمام عيون البشر. إن مجيئه الثاني هذا، بالمفارقة مع مجيئه الأول، سيظهره في حقيقته المجيدة كلها (رؤيا 1: 7) ولن يكون مجيئه ذاك متعلقاً بتطهير الخطايا (عبرانيين 9: 28)، وسيوقع الحزن والخوف في قلوب بعض الناس (رؤيا1: 7) وسيملأ قلوب البعض الآخر بالبهجة المجيدة. ثانياً، ستكون قيامة لجميع الموتى (يوحنا 5 : 28-29) سواء في ذلك الذين فعلوا الشر في هذه الحياة أو الذين فعلوا الصلاح. ثالثاً، ستكون دينونة نهائية لجميع البشر- سيعلن الحكم الإلهي على أساس الحياة التي نحياها على الارض كما سيعلن لكل فرد سبب ذلك الحكم (متى 25: 31- 41، رؤيا20: 11-15). وأخيراً، سيتقرر لكل الناس مصيرهم الأبدي. فالبعض سيطرد من حضرة الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلى الأبد ويعاقب في جهنم (متى25: 46 والرؤيا20: 15). أما البعض الآخر فسيدخل إلى حضرة الله حيث يتمتعون بالسعادة الأبدية (متى25: 34 والرؤيا21: 1- 7).

من الجدير بنا أن نتذكر أن اهتمام كتاب العهد الجديد كان منصرفاً بشكل رئيسي إلى الفداء وبلوغه ذورته في السماء. ليس في العهد الجديد ما يثبت العقيدة التي تقول بأن الخلاص سيشمل الجميع في النهاية (Universalism). ولكن من الملاحظ أن أعظم الاهتمام في العهد الجديد منصرف إلى الفداء لا إلى العقاب. فالكتاب يتكلم عن حياة المفديين التي سيتمتعون بها في السماء فيصفها بأروع الأوصاف وفقاً لأسمى وأمجد اختبارات هذه الحياة الحاضرة. ففي السماء منازل (يوحنا 14: 2). وهي شبيهة بمدينة عظيمة (رؤيا 21: 1- 7)، أو شبيهة بجنة جميلة (رؤيا22: 1- 2) أو شبيهة باختبار عبادة الله في هيكل كامل (رؤيا 21: 22). توصف السماء أحياناً وصفاً سلبياً. فهي خالية تماماً من أي من الإختبارات المحزنة في الحياة. فلا دموع فيها ولا موت ولا فراق ولا خطية- بهذا الأسلوب كان البشر دائماً يصورون الحياة الكاملة.

والتشديد، في ذلك كله، لا يقع على الوصف الحرفي لأفراح السماء- فليس من وصف يستطيع أن يفي بذلك الغرض. بل هناك تشديد على هذه الحقيقة وهي أن حلم الله من أجل البشر (إن جاز التعبير) سيتحقق أخيراً في السماء. وهذا مبين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالمقارنة والمفارقة بين السماء من جهة وجنة عدن وحالة الإنسان الأولى من الجهة الأخرى.

يتكلم لنا سفر التكوين بلغة شعرية فيقول أنه بعد خلق العالم الطبيعي خلق الله الإنسان على صورته (تكوين 1: 27). ذلك أنه بعد أن أصبح العالم جاهزاً خلق الله الإنسان كائناً حياً وأعطاه ما يضمن له العيش الرغيد والتقدم الخلقي وذلك بأن أعد له جنة. "وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله" (تكوين 2: 8). وأذكر أن الجنة كرمز كانت ذات معنى كبير لكتّاب الكتاب المقدس، فقد عاشوا في بلاد قاحلة قليلة المطر وكانوا يحلمون بجنائن ذات أشجار بهيجة ومياه كثيرة كمساكن مثالية للعيش فيها. والواقع أن اللغة التصويرية التي في الكتاب المقدس انتقلت إلى لغتنا، فأصبحت كلمة "عدن" رمزاً للحياة الهانئة في فردوس النعيم. ونجد هذا المجاز يدخل أيضاً في وصف السماء في سفر الرؤيا. "وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله والخروف. في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطي كل شهر ثمرها. وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤيا 22: 1، 2).

هناك صورة مجازية أخرى للحياة المثالية وقد وردت في سفر الرؤيا- وهي شجرة الحياة. جاء في سفر التكوين أن الله غرس هذه الشجرة "في وسط الجنة" (تكوين 2: 9). على أنه لم يذكر قط أن إنساناً أكل من ثمر هذه الشجرة. بل جاء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في تكوين 3: 24 أنه عندما جاءت الخطية طرد الله آدم وحواء من الجنة "وأقام الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" (تكوين 3: 24). فالذي نستنتجه من ذلك هو أنه إن أكل الأنسان من شجرة الحياة وهو في حال الخطية فسيقضى عليه أن يعيش إلى الأبد في هذا العالم غير الكامل. لكن السماء ستشهد وصول الإنسان مجدداً إلى شجرة الحياة. "وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطي كل شهر ثمرها" (رؤيا 22: 2). لقد صيغ هذا الوصف عن قصد ليؤكد إمكان الوصول إلى "شجرة الحياة"- فهي مغروسة على جانبي النهر- وإنها دائمة الثمر فهي "تعطي كل شهر ثمرها". ويظهر من المؤكد أن كاتب سفر الرؤيا كان يفكر لدى وصفه السماء بعودة الإنسان لإحراز أمجاد الحياة التي خسرها بسبب الخطية.

وهذا الافتراض يزداد يقيناً بوصف العلاقة التي ستقوم في السماء بين الله وشعبه المفدىّ. يظهر من سفر التكوين أن الله اعتاد أن يمشي في جنة عدن "عند هبوب ريح النهار" (تكوين 3: 8)، فيلتقيه الإنسان وتكون له شركة معه. لكن هذه الشركة فُقِدت بسبب الخطية. إن القصة الواردة في الكتاب المقدس، كما سبق أن أشرنا، تدور كلها حول القصد الإلهي في الفداء وعمل الله في التخطيط لاستعادة الشركة المفقودة على صعيد جديد أرفع من الصعيد السابق. يظهر هذا الأمر واضحاً في وصف السماء كما جاء في الرؤيا: "هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم" (رؤيا 21: 3). "ولم أر فيها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هيكلاً لأن الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها. والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمرليضيئا فيها لأن مجد الله قد أنارها والخروف سراجها" (رؤيا 21: 22، 23). "ولا تكون لعنة ما فيما بعد. وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه. وهم سينظرون وجهه واسمه على جباههم" (رؤيا 22: 3، 4). تشير هذه العبارات كلها إلى الشركة الجميلة والوثيقة بين الإنسان والله والتي هي هدف قصد الله في الفداء الذي هو في دور الإتمام في العالم اليوم.

لن تكون "السماء الجديدة: نسخة مطابقة "لعدن" القديمة. فبينما بين الاثنتين أوجه تشابه هناك أيضاً أوجه تناقض ومخالفة، الأمر الذي يبين أن السماء ليست مجرد استعادة للحالة التي فقدها الإنسان. السماء افتداء الإنسان ونقله إلى الحياة المثالية. فقد جاء في الرؤيا: "السماء الأولى والأرض الأولى مضتا" (رؤيا 21: 1). هذه الأرض التي نعيش الآن عليها، حسب قصة سفر التكوين، أرض ملعونة بسبب خطية الإنسان (تكوين 3: 17- 19)، أرض مليئة بالهم والاضطراب، والحزن، والموت والتمخض بالآلام، والتشوق لفداء الإنسان لكي تشترك هي أيضاً في ذلك الفداء. (قارن رومية 8: 22- 23). الأرض القديمة تصلح للإنسان ليعيش في خطيته فيها، وقد تكون مسرحاً للفداء. لكنها ليست الوضع المناسب للحياة المثالية. إن موضعاً مثل هذا يستدعي وجود "سماء جديدة وأرض جديدة"(رؤيا 21: 1).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن المجد السامي الذي للحياة الجديدة في السماء مشدد عليه أيضاً بحقيقة أخرى وهي أنه "لا تكون لعنة ما" (رؤيا 22: 3). "ولن يدخلها شيء نجس" (رؤيا 21: 27). إنه لتغيير بيّن من جنة سفر التكوين التي احتوت على "شجرة معرفة الخير والشر" (تكوين2: 9) وكانت عرضة لهجوم تجارب إبليس الغادرة (تكوين 3: 1). إن هذه الاشياء في الجنة القديمة كانت أدوات سقوط الإنسان، لكن لن يسمح لمثلها بأن تفسد حياة المفديين في سماء الله الجديدة.

هناك تشديد أكثر على هذه الحقيقة متضمن في دوام حياة الإنسان في السماء الجديدة: "وهم سيملكون إلى أبد الابدين" (رؤيا22: 5). هنا مفارقة كبيرة بين التمتع الأبدي بلذات الحياة، من جهة، وحياة الإنسان الأول في جنة عدن وحياة الإنسان على الأرض من الجهة الأخرى، وضع الإنسان في الجنة، غير أن ذلك اتبع بتهديد: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأمل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" (تكوين 2: 16- 17). والإنسان أكل من تلك الشجرة، فلُعن بالموت والحزن والألم نتيجة لذلك (تكوين 3: 16- 19). من ذلك اليوم والإنسان على الأرض يأكل من ثمر الحزن الناتج من حكم الخطية وسيادتها. لذلك نجد يعقوب يقول أمام فرعون: "أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة. قليلة ورديئة كانت أيام سني حياتي" (تكوين 47: 9). وصاح أيوب: "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً" (أيوب 14: 1). وكل الذين عاشوا على هذه الأرض اختبروا الحقيقة المرة وهي أن الاضطراب والحزن يعششان في جوانب حياتنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وحتى وسط أعظم أفراحنا. وكل لحظة سعيدة لا بد أن يغشاها ظل من الشعور بأنها لن تدوم إلى الأبد. لكن الأمر ليس كذلك في السماء. السماء أبدية. هنالك لا نهاية للأفراح والغبطة.

أخيراً، أن المفارقة بين الجديد والقديم واضحة في أن أخلاق الإنسان في السماء ستصبح نقية في البر نقاء البلور. لما خلق الإنسان الأول كان مرشحاً للبر، كان بريئاً ولكن لم يكن باراً. كان خُلُقُه في حاجة للنضج والتطور، الأمر الذي لم يتم بسبب دخول الخطية إلى الحياة البشرية. كان قصد الله الفدائي هو إيصال الإنسان الساقط إلى البر الخلقي، وهوالذي يظل يبدو بعيداً عن متناولنا حتى بعد نوال الخلاص بالنعمة. لكن الأمر يتغير في السماء إذ يؤكد العهد الجديد أننا سنكون كاملين هناك. "طوبى للذين يصنعون وصاياه* لكي يكون سلطانهم على شجرة الحياة ويدخلوا من الأبواب إلى المدينة. لأن خارجاً الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً" (رؤيا 22: 14- 15). لا بد أن قصد الله يتحقق أخيراً. فسيكون المفديون أبراراً ويسكنون في شركة أبدية مع الإله القدوس.

هذا هو إيمان الكتاب المقدس، الإيمان المسيحي الحقيقي. فالله لم ييأس ولن يفشل. الفداء تم وهو في الوقت ذاته في طريق الإتمام. الله هو المحرك لكل التاريخ، وهدف كل التاريخ هو الفداء. هذا ما نؤمن به أنه الحق.

* "يغسلون ثيابهم" بدلاً من "يصنعون وصاياه" بموجب النص الأدق للأصل اليوناني حسب الإكتشافات المتأخرة لمخطوطات العهد الجديد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثامن

قصد الله في الخطية

كيف يمكن للشر أن يكون حقيقة واقعة في عالم يهيمن عليه الله الخير والصلاح؟ يشكل هذا السؤال أحد الاعتراضات الرئيسية على الاعتقاد المبين في هذا الكتاب– الاعتقاد بأن الله يحكم هذا الكون لأهداف خلاصية. يقول المعترضون أن الشر مستحيل في عالم يحكمه الله مهيمن. ويقولون: إما أن الله يستطيع كبح الشر ولكنه لا يفعل ذلك، أو أنه لا يستطيع ذلك. إن وجود الشر في العالم يشكل مشكلة عويصة للإيمان المسيحي– وهذا لا سبيل لإنكاره. نحن نؤمن أن الله خلق العالم وأنه لم يكن أي شيء بدون قوته، لكننا نجد الخطية والألم يحلان في العالم. نؤمن أن الله خلق هذا العالم وينفذ قصده الخلاصي في التاريخ، ومع ذلك نجد أن بعض الشر، حسبما يظهر، يعيق عمل الخير في حياتنا وفي مجتمعنا. ما تفسير ذلك؟ نعتقد أنه، وإن لم يكن بالإمكان إيجاد تفسير أوجواب كامل لهذه المشكلة، فمن المكن أن نجد في الكتاب المقدس بعض العناصر التي تحدد الوضع. من الممكن اكتشاف حقائق تحد من شدة المشكلة على نحو يساعد رجل الإيمان ليظل على إيمانه بهيمنة الله وسيادته في مواجهة وجود الشر.

في هذا الفصل سنحاول إثبات طريحتين: الأولى، نقول بالنسبة لاصل الشر، إن الله مسؤول عن خلق هذا الصنف من العالم الذي يمكن أن يدخله الشر، ولكن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان هو المسؤول عن دخول الشر فعلاً إلى العالم. ثانياً، نؤمن، بخصوص استمرار وجود الشر في العالم، إن الله يضبط الشر ويستخدمه لإتمام قصده الفدائي أو الخلاصي. لا سبيل إلى إنكار وجود الشر في العالم. سأل فرعون يعقوب: "كم هي أيام سني حياتي؟" (تكوين 47: 8). فأخبر يعقوب فرعون بعدد سني حياته وأضاف: "قليلة ورديئة كانت سني حياتي." ما أكثر الذين، عندما سُئلوا، اضطروا إلى الاعتراف بأن حياتهم على الأرض قصيرة وملأى بالشر. يرى بعض المتفائلين أن الحياة نهر من السرور والخير دائم الجريان. لكن لا تلبث الأحزان والمصائب أن تحطم تفائهم وتذكرهم بما في الحياة من شر. يقول المتشائم "ماأسوا ما في هذا العالم"، ويبدو قوله مصيباً أكثر من المتفائل الذي يقول "ما أحسن ما في هذا العالم". حقاً، في العالم شر كثير. هناك شرور سببها الكوارث الطبيعية من أعاصير وزلازل وطوفانات ومجاعات وأمراض. وهناك شرور ناتجة من التنازع للبقاء والمحافظة على الحياة العائلية. هناك شرور نرثها، شرور تأتينا بسبب أناس آخرين. وهناك شرور تصدر عن حياة الإنسان المنظمة في المجتمع– مثل النزاعات الصناعية والأزمات الاقتصادية والحروب. إن مجرد تعداد الشرور التي لا مفر للإنسان من مواجهتها يجعل المرء يسير في اتجاه التشاؤم. صحيح أن ليس من إنسان يواجه أو يعاني فعلاً كل الشرور الممكن حدوثها في حياته، لكن الإنسان المفكر لا يجد بداً من السير في طريق الحياة بقلب وجل مضطرب عالماً أن الشر يظل يحيط به دائماً وفي كل مكان. لا سبيل لإنكار وجود الشر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وليس من الممكن إنكار أن وجود الشر في العالم يشكل مشكلة لرجل الإيمان. والحقيقة هي أن الإيمان بالله هو الذي يجعل الشر مشكلة فكرية. فالناس يميلون إلى القول بأنه إن كان الله صاحب السلطان وإله الخير فلن يكون مكان للشر في عالم خلقه الله ويحكمه ويديره. هناك، بالطبع، حلان سهلان لمشكلة الشر، فليس للملحد أو المعتقد بالتأليه الطبيعي (Deist)* أية مشكلة من هذه الناحية. ينكر الملحد وجود الله إنكاراً كلياً وينظر إلى الشر على أساس أنه نتيجة لقوى الطبيعة وصراعات البشر. قد يرى في الشر مشكلة عملية ولكنه لا يشكل مشكلة فردية إذ يعتبره النتيجة الطبيعية للأشياء في وضعها الذي هي فيه. أما الذي يعتقد بالتأليه الطبيعي فيؤكد بأن الله غير مهتم بهذا العالم الحاضر الشرير، أو أنه على الأقل لا يتدخل فيه. ويقول أن الله خلق العالم وتركه يدير نفسه بنفسه، وما الشر إلا النتيجة الطبيعية لهذا العالم. إننا لا نقبل بحلول مثل هذه، فنحن نؤمن بأن الله موجود وأنه يتدخل في النظام التاريخي. لقد قلنا بتأكيد أن الله عالم على تنفيذ قصد خلاصي في العالم. ربما نقول، كما يقول البعض، أن الله يعمل أفضل ما يمكن عمله في عالم شرير، وأنه في الوقت ذات غيرمسؤول، بأي حال، عن شرور الحياة، وأنه يعمل ضمن حدود الظروف الخارجية المحيطة بحياتنا. لكننا إذا قلنا هذا لا نكون على حق بالنسبة للفكرة الكتابية عن الله، إذ أن قولنا ذاك يحدد الله على نحو لا يجيزه الكتاب المقدس. يعلم الكتاب المقدس أن الله صالح وانه يحكم الكون ويديره. إذا كان هذا هو الحق فعلينا أن نجد كيف نوفق بينه

* مذهب التأليه الطبيعي (Deism) هو المذهب القائل بوجود اله خالق ولكنه لا يتدخل في شؤون الخليقة أو البشر. هو الاعتقاد بوجود الله وإنكار الوحي، الاعتقاد بأن الله خلق العالم ومنحه أسباب التطور الذاتي ثم تخلّى عنه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبين وجود الشر في العالم، وإلا تأثر إيماننا بصلاح الله وحكمته وعدله تاثراً خطيراً. لكننا نعتقد أن بالإمكان القيام بهذا التوفيق. إن وجود الشر في العالم يتفق مع العقيدة الكتابية القائلة بحكم الله وسيطرته. وقد لا نحل المشكلة، أو بالأحرى لا نقدر على حلها حلاً تاماً، غير أننا نستطيع أن نعرف الكفاية عن الشر بحيث نتمكن من المحافظة على إيماننا على الرغم من وجود هذا الشر.

أولاً، لنعترف بأن إمكانية الشر ضرورة لا بد منها في العالم الأدبي، أي العالم حيث الاختيار بين الخير والشرحقيقة راهنة. فإذا كان عالمنا لا يمكن للشر أن يدخله فإنه، في تلك الحال، لن يكون فيه مجال للاختبار، كما لن يكون لدى سكانه إمكان التقدم الأدبي الأخلاقي. لا ضرورة لأن يصبح الشر حقيقة، ولكن من الضروري أن يظل هناك مجال للاختبار الحي في العالم الأدبي. إن هذا ما يمكِّننا من الاعتقاد بأن الله خلق عالماً يمكن للشر أن يدخله، وفي الوقت ذاته لا نتخلى عن إيماننا بصلاح الله الكلي. كان الله، في خلقه الإنسان، محدوداً في أمرين. إذا أراد أن يخلق إنساناً بحيث يستطيع هذا الإنسان أن يحب الله ويكرمه. فلا بد أن يخلقه فيعطيه حرية الاختيار والإرادة، الإرادة التي بها يستطيع أن يقف ضد الله لو أنه اختار أن يفعل ذلك. وإذا أراد أن يخلق إنساناً له مثل هذه الحرية فعليه أن يخلقه على أساس أنه مرشح لعمل الخير.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لاحظنا سابقاً أن الله خلق الإنسان فأعطاه القدرة على الشركة مع الله. وكانت رغبة الله في خليقته هي الإتيان بالإنسان فيدخل طوعاً في شركة وعلاقة حبية بالله. وكان هذا يعني أن تكون للإنسان حريةالاختيار، أي أن تكون له القدرة على رفض الله. فالله لا يسعى ليحصل من الإنسان على تكريس إرغامي أوعبادة قسرية. لو كان الله راغباً في عبادة كهذه لحصل عليها، لكن ليس من الإنسان. فأية عبادة قسرية لا يمكن أن تعتبر علاقة حبية، إذ أنها في الواقع عبودية. بناء على ذلك، فإن خلق الله للإنسان على أساس أن تكون له هذه الشركة الحبية مع الله يحتم أن يخلق الإنسان وله قوة الاختيار. لا بد أن يعطي الفرصة ومعها المسؤولية ليقرر مصيره مختاراً غير مرغم. وإن إنساناً له مثل هذه السلطة أو المسؤولية تكون له القدرة على القضاء على ذاته. تكون له القدرة على اختيار السير في اتجاه معاكس لما يريده له الله في حياته. فالله إذن، لم يكن ليفعل غير الذي فعل وهو يريد خلق العالم الذي نعيش فيه. كان لا بد أن يسمح بإمكان وجود الشر عن طريق الاختيار الجامح الذي قد يختاره الإنسان.

من صادق القول أيضاً أنه إن كان الله ليخلق الإنسان فيعطيه القدرة على الاختيار كان لا بد أن يخلقه بخلق غير محقق. فلا يمكن أن يخلق شخص حر الإرادة ويكون في الوقت ذاته ذا خلق أدبي محقق وكامل. فالخلق لا بد أن يتكامل في بوتقة العمل الأخلاقي، ولا بد أن تكون للإنسان فرصة ليواجه التجارب، ويقوم بتصميمات، ويحقق مصيره بنفسه. لا نقول أن الله خلق نسخة عن ذاته عندما خلق الإنسان "على صورته" بل إنما منح الإنسان بعض تلك الصفات الإلهية التي من شأنها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن تمكن الإنسان من أن تكون له شركة حبية مع الله. كانت رغبة الله، ولا شك، أن يختار الإنسان الاختيارات الصحيحة، وأنه، إذ يواجه التجربة وإغراءات الخطية، ينتصر عليها، وأن يتقدم خلقياً ليصبح، بحق، مشابهاً لله. فلو أن الإنسان، منذ البدء، اتبع رغبة الله وعمل بها لما كان للشر الفعلي أن يدخل العالم أبداً. إننا لا نقول أن وجود الشر ضروري في عالم خلقي، وإنما نقول أن الضروري هو إمكان حدوث الشر في هذا العالم.

إن وجود الشر في العالم، إذن، لم يجئ لأن الله صمم أن يخلق هذاالنوع من العالم الذي نعيش فيه، بل لقد جاء الشر نتيجة لتصميم الإنسان على رفض حكم الله في حياته. فالسبب المباشر للخطية والألم هو تصميم الإنسان وليس عمل الله. إن جميع الشرور التي تحل بالإنسان، بل أيضاً تلك التي تنشأ من اضطرابات الطبيعة، تجيء كلها، حسب إيمان الكتاب المقدس، نتيجة لتصميمات الإنسان الخاطئة. هناك، بكل تأكيد، شرور كثيرة يمكن عزوها مباشرة إلى هذه الحقيقة. فالهبوط الاقتصادي، والجريمة، وابتزاز المال بالنصب والاحتيال، والطمع، والحرب تجيء كلها نتيجة لخطية الإنسان لا للتدبير الإلهي. فمثلاً، نحن في الواقع لا نخشى القنبلة الذرية، بل لا نخشى إنساناً صالحاً يحمل قنبلة ذرية. نحن إنما نخشى الإنسان الشرير الذي له قوة لإيقاع الأذى والتدمير. إن كل اكتشاف أو تقدم أحرزه البشر في مجال العلوم الطبيعية هو مستخدم إما للخير أوللشر إذ أن ذلك متوقف على طبيعة الإنسان أو الناس الذين يسيطرون على تلك الإكتشافات.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن الخطية والألم في عالم أخلاقي هما ليسا سوى تحريف للخير. يقول كاتب سفر التكوين أن الله، بعد أن تطلع إلى كل ما أبدع من خلائق، قال أنه "حسن جداً" (تكوين 1: 31). وقول الله هذا لا يعني أن خليقته كانت تتصف بالصلاح الخلقي بل إنها كانت صالحة للغاية التي من أجلها خلقت. إنها حسنة وينتج منها ماهو حسن إذا هي استخدمت بالشكل الصحيح. وحتى في عالم الطبيعة، قد يظهر أخيراً أن الشر ناتج من سوء استخدام القوى الطبيعية. قد يكون من العسير علينا فهم هذا إذا فكرنا بالعواصف والفيضانات والزلازل. ولكن هناك دلائل حديثة على أن هذه الكوارث الطبيعية الجبارة ما هي إلا نتيجة لفشل الإنسان في فهم قواعد النظام الطبيعي ولإمعانه في مخالفتها. والعلماء على الأقل يرجحون أن الجفاف والفيضانات والقحط تعود إلى تلك الطرق المغلوطة التي يستخدمها الناس في حرثهم الأرض وحفظهم المياه في بقاع عديدة من العالم. نستطيع، على الأقل، أن نؤخر إصدار حكمنا إلى أن يهتدي الناس إلى المزيد من المعرفة، الأمر الذي سيكشف لهم ما إذا كانت الكوارث الطبيعية صادرة عن أخطاء الإنسان أم لا. ليس لدينا أي شك في هذا الأمر في مجال الشر الروحي والأدبي. ليس للشر وجود مجرد أو مستقل، إنه لا وجود له لولا اختيار الإنسان. الخطية هي دائماً سوء استعمال الإنسان لتدبيرات عناية الله التي يمد بها حياة الإنسان على الأرض. إنه ليس من الممكن قط أن نعتبر الله مسؤولاً عن وجود الشر أو عن دخوله الفعلي إلى الحياة البشرية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وكان الله يعلم أن الشر سيجيء. لقد خطط منذ الأزل برنامجه الخلاصي وكيفية تنفيذ ذلك البرنامج. والسؤال هو. لماذا يخلق الله العالم وهو يعرف كل هذا؟ ويجب أن يكون الجواب المسيحي دائماً أن الله خلق العالم وهو مفكر بخلاص الإنسان. وإذا استخدمنا قياساً بشرياً نقول أن الله وازن بين الشر وبين الخير الذي سينجم عن الخليقة وصمم على أن يخلق العالم على رغم معرفته بمجيء الشر. إن ضرورة احتمال الشر في سبيل إنجاز الخير لهو أحد اختبارات الإنسان العادية. فمثلاً يعتبر الزواج أسعد أحوال الإنسان، لكنه إذ يتزوج يكون في الواقع مقدماً على مجازفة مجيء الشر إلى حياته. في الحقيقة، ليس مجيء الشر إلى حياة المتزوج مسألة حظ، فالزواج لا يخلو من الشر قط. بل عندما ننظر إلى زواج اثنين من الناس، فنقول أنه زواج موفق جداً، لا يكون مفر من أن تداهم الأحزان والصعوبات حياة المتزوج وتزداد بشكل خاص لأنه متزوج. والإنسان يعرف هذا. يعرف أنه، أن تزوج، فزوجته قد تمرض، ويعرف أنه بكونه زوجاً سيصبح مرض زوجته جزءاً من حزنه. ويعرف أن مهمة إعالة العائلة سيزيد في مسؤولياته ويحرمه من مسرات كان من الممكن أن يتمتع بها إذا كان لا يتزوج. ويعرف أنه إذا ولد له أولاد، وهوراغب في الأولاد، فسيزيد ذلك في ثقل واجب الإعالة، وسيواجه مشاكل عديدة في تربيتهم فيعود ذلك عليه بالألم والهم في سني نموهم. والإنسان، وهو يعلم بكل ذلك، يقدم على الزواج. إنه يتزوج، حسبما يظهر، لأنع يشعر بأن أفراح الزواج ومنافعه ستعوض عما فيه من صعبات وأحزان بل تزيد عنها. قد يفسر هذا لنا لماذا خلق الله العالم على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رغم معرفته بأن لا بد من دخول الشر والألم لا في هذا العالم فقط بل في الأبدية أيضاً. فالخير الناجم عن الخليقة يفوق كثيراً الشر والألم اللذين يحدثان فيها.

نستخلص مما سبق قوله أننا نستطيع أن ننظر إلى وجود الشر والألم في العالم بطريقتين: لقد خلق الله نوعاً من العالم يمكن للشر أن يدخله، وعصى الإنسان الله فأصبح الشر حقيقة واقعة في الحياة البشرية. إن فهم هذه المسألة يخفف من الإحراج الذي يجد رجل الإيمان نفسه فيه. ذلك أنه سيدرك أن الله مبرر، وله كل الحق، في أن يختار خلق العالم، وسيدرك أيضاً أن الإنسان مسؤول عما جلب على نفسه من آلام. إن هذا لا يعني أن كل فرد يتألم في هذا العالم بمقدار ما يستحق. فكل من له ضمير حساس لا بد أن يقر بأنه يستحق من العقاب والألم أكثر مما عوقب به.

إن الذي قلناه يساعدنا لنفهم كيف يمكن أن يكون الله صالحاً وفي الوقت ذاته يخلق عالماً يدخله الشر ويصبح فيه حقيقة واقعة. ولكن ذلك لن يجيب عن السؤال القائل: كيف يمكن أن يحكم الله العالم بينما يحل فيه الشر كحقيقة واقعة؟ يلوح لهذا السؤال شيء من الحل عندما ندرك أن الله، في الواقع، يستخدم الشر الموجود في العالم إذ يحوله لخير الإنسان، وإن الشر يتمم عملاً خلاصياً ما كان ليتمم بوسيلة أخرى. إن هذا التصريح جريء. إن القول بأن الشر ضروري في عالمنا لإنجاز الخير لهو أشد من القول بأن إمكان حدوث الشر ضروري في عالم أدبي. على كل حال، ما دام الإنسان أخطأ ولا بد من فدائه فللتصريح المذكور ما يبرره.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ربما من الخير لنا أن نبدأ في النظر في عمل الشر على المستوى الطبيعي. فالطبيعة هي المعلم الأعظم للإنسان، إذ أنه، أي الإنسان، يتعلم حقائق العلوم الطبيعية لأن ذلك أمر ضروري له ليظل على قيد الحياة. والعلوم الطبيعية الحديثة ما هي إلا نتاج جهود الإنسان لاكتشاف قوانين الطبيعة والعمل بموجبها لأنه وجد أن مخالفة تلك القوانين تعود عليه بالألم والضرر. لقد بدأ تعلمه في وقت الطفولة عندما لمس شيئاً ساخناً واكتشف أن ذلك اللمس يؤلمه. كان يريد أن يتجنب الألم لكنه كان أيضاً يريد الانتفاع بالحرارة، فصار يعرف أن عليه أن يتجنب لمس كل ما هو ساخن. وظل يتعلم كل هذا الشكل حتى سني نضجه، وبالطريقة نفسها تقدم الجنس البشري كله في معرفته للطبيعة. إن كل ما يمكن للإنسان أن يتعلمه عن هذا العالم فهو يتعلمه من العالم نفسه. ليس من طريقة تحمل الإنسان على الاختراع سوى ما يلاقي من آلام. لقد اخترع العَجَل، أي الدولاب لأنه كان يكره حمل الأثقال الثقيلة، واكتشف أساليب الإضاءة الاصطناعية لأن الظلام كان يضايقه، واكتشف الدواء ليقاوم ألم المرض. إن تقدم العلوم الطبيعية في كل العصور كان مجرد جهود ذكية قام بها الإنسان لحل مشاكل الألم. فالألم يعمل لخير الإنسان، حتى على الصعيد الطبيعي، وذلك بأن يدفع الإنسان في طريق التقدم للحصول على منافع عظيمة. هل من طريقة غير تلك لإنجاز هذا الخير؟

ويصدق هذا الأمر ذاته في مجال الحياة الاجتماعية، إن فضائل الإنسان، ككائن اجتماعي، تنمو وتتقدم عن طريق مشاركته الآخرين في الآلام والصعوبات.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والإنسان الذي يعيش في عالم حيث لا يحل به ألم ولا بالناس الذين يعيش بينهم، لا يستطيع أن يتعلم معنى الحب والعطاء والمشاركة. ومن ليست في حياته هذه الفضائل تنمو وتتكالم فهو، في الواقع، فاقد للحياة نفسها. لا نعني بهذا أنا نرحب بالآلام التي تحل بنا أو نفرح بآلام الآخرين، لكننا نعني أن الألم ينتج الخير. قد لا نستطيع التأكيد بأن الخير في كل مرة سيفوق الألم، لكننا نعلم يقيناً أن الشر ينتج خيراً.

كانت هذه أفكار أولية لازمة قبل الدخول في البحث الذي هو موضوع اهتمامنا. إنها توضح حقيقة أصعب وهي أن الله يستخدم الشر ليجري نتائج فدائية في حياة البشر. هناك دور روحي يقوم به الشر ويتممه، وهذا يدل على أن الله يستطيع أن يكون الحاكم المسيطر على العالم على الرغم من وجود الشر فيه. يظهر الشر، من وجهة نظر الإنسان، قضاء يحكم به الله على الخطية. هذا واضح في الكتاب المقدس، ولا سبيل لإثبات العكس، مع أن كثيرين حاولوا ذلك. إن حقيقة دينونة الله وحكمه على الخطية، داخلة في نسيج فكر الكتاب المقدس بشكل تام حتى أنه لا يمكن إزالتها من الكتاب دون إزالة الكتاب نفسه. فإن بولس يصرح في رسالته إلى رومية بأن "غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم" (رومية 1: 18). ويقول أيضاً "كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله "(رومية 14: 12). تأتي العواقب الوخيمة للخطية في هذه الحياة كما في العالم الآتي، وتحل في حياة الذين لم يحصلوا على الخلاص كما في حياة المسيحي الذي اختبر الخلاص.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كيف يمكن لهذه الحقيقة أن تتمم غاية فدائية أو خلاصية؟ أولاً، أن معرفة الإنسان بأن الله يدين الخطية هي أحد العوامل التي يستخدمها الله ليجعل الناس يقبلون الخلاص. إن من أخطاء الفكر العصري هو القول بعدم صلاحية استخدام الخوف كدافع لعمل الحق. طبعاً يجب ألا نعطي الخوف المكانة الأولى في تعاليمنا الدينية، ولكن مع ذلك للخوف مكانه الصحيح. من المستغرب أن نسمع من يقول أن علينا أن نتجنب استخدام الخوف كدافع ديني لئلا نصبح ضيقين شديدي التعصب. لكن بهذا نكون مستخدمين الخوف لئلا نستخدم الخوف. والواقع أن الإنسان في كل نواحي حياته يريد أن يتعلم لأنه يخاف النتائج التي لا بد منها إذا لم يتعلم. وما يصدق هنا لماذا لا يصدق في الحياة الروحية؟ وسواء أكان هذا هو الصحيح أم لا فمن الصعب أن نجد خاطئاً يسعى جاداً ليعمل الحق إن كان يعتقد أن بإمكانه مواصلة عمل الخطية والإفلات من العقاب. إن لم يكن هناك جهنم فلماذا يفتش لتكون له شركة مع الله إن كان يعيش سعيداً بدون تلك الشركة؟ إن معرفة الناس حقيقة الدينونة هي التي تدفعهم لترك الخطية ولتسليم حياتهم لمحبة الله ونعمته فالله وحده الذي يستطيع إنقاذهم لا من عقاب الخطية فقط بل من الخطية ذاتها أيضاً.

هذه الحقيقة ذاتها، أي أن الخطية تورث الألم، هي أحد الدوافع التي يستخدمها الله لتطوير الخلق المسيحي. وطبعاً، يؤثر الألم في مختلف أصناف الناس بمختلف الطرق. والناس الذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده هم وحدهم الذين تعمل كل الأشياء معاً للخير في حياتهم، نعم كل الأشياء بما في ذلك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الألم (رومية 8: 28). إن التكوين الإدبي للكون الذي يجلب الدينونة والعقاب على الخطية يدفع الأشرار عميقاً في عصيانهم الله، ولكن هذا التكوين الأدبي هو نفسه يجتذب المسيحي المؤمن في الوقت ذاته في السعي للحياة الصالحة.

كثيراً ما سمعنا وتعلمنا بأن الألم ليس دائماً دليلاً على وجود الخطية في حياة الذي يتألم، وهذا قاد البعض إلى الاعتقاد بأن لا علاقة البتة بين الخطية والألم. أما في كثير من الأحيان فتحل الشرور في حياة فرد أو أمة بسبب شر ذلك الفرد أوتلك الأمة. وفكرة الكتاب المقدس بالنسبة لهذه الحقيقة هي أن الله يعاقب على الخطية. يمكن القول، على الأقل، أن الله أوجد نظاماً أدبياً فيه تنال الخطية دائماً عقابها. ولا حاجة لأن ننظر إلى الله كما لو أنه طاغية يلتذ بإنزال الألم في الآخرين أوأنه يرقب الناس بعين التجسس ويسرع في الانتقام من كل الذين يخطئون إليه. إن هذه الفكرة لا تنسجم مع الصورة التي يصورها الكتاب المقدس لله. لكن الواقع هوأن النظام الأدبي الذي نعيش فيه قد تكون بحيث أن الإنسان لا يستطيع أن يخطئ ويفلت من العقاب. من يسرف في تناول الكحول يصبح مدمناً للمسكر،وإدمان المسكر يقضي عليه. والأمة التي تسرف في تعاطي الخطية تصبح تحت لعنة الضعف والانحلال ولا بد أن يحل بها الدمار. وإذا قامت دولة على الطغيان فأهملت حقوق الناس واحتقرت مطالب الله، فطغيانها ذاك سيؤدي بها إلى الخراب. من الممكن في أحوال كثيرة أن يرى الإنسان العلاقة التي تربط بين الخطية ودينونة الله، لكن ذلك ليس ممكناً دائماً. يعلم الكتاب المقدس أن الله يرسل الجفاف والقحط على الأمم التي تتجاهل حقوقه عليها. على كل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حال، يمكننا أن نتأكد من أن دينونة الله لا بد أن تحل، مع أنها لا تحل بسرعة دائماً. إنه هذه الحقيقة في حياة الشخص الشرير تدفعه عميقاً في حياة الخطية، الأمر الذي يؤدي أخيراً إلى هلاكه الأبدي. إنه لا ينتفع من آلامه لأنه يواصل تمرده على الله النعمة الذي يستطيع، بل يريد أن ينقذه من خطاياه. قد نشفق على إنسان كهذا، ولا يمكننا أن نلوم الله على مصيره. الله يريد له الخلاص، فليس من قصده إيقاع الألم بأحد. ما الآلام إلا النتيجة الجانبية، التي لا مفر منها، لرغبة الله الشديدة في جعل الناس يدركون الفداء إدراكاً كاملاً. قد يأسف الله ويحزن لحدوث الآلام، ولكن لا يجد سبيلاً لتجنبها إن كان سيقوم بإنجاز قصده.

يمكن رؤيا الصفات الفدائية الحقيقية التي للآلام وللشر في ذلك الأثر النافع الذي تحدثه في الاشخاص الذين يُخضِعون أنفسهم لله. فالآلام هي التي توجد، أو على الأقل، تسهم في إيجاد خضوع الإيمان في المؤمن كما سبق ولاحظنا. إنها تعمل كمؤدبين روحيين في الحياة المسيحية. والآلام التي يعانيها المسيحيون المؤمنون، سواء كانت نتيجة مباشرة لخطيتهم أم لم تكن، هي دائماً تدفعهم إلى الدخول في شركة أعمق مع الله، وإلى بذل جهد أكبر لخلاص الناس وتحسين أوضاع المجتمع. والآلام بعملها ذاك تحقق في المسيحيين على نحو تقدمي تدريجي ذلك الخُلُق المشابه لخُلُق المسيح. لا غنى للبشر عن الآلام. وما دمنا غير كاملين في سعينا وطلبنا للبر، فلا بد أن يكون هناك نظام للجزاء والعقاب يدفعنا باستمرار لنحقق في حياتنا خلق الله وصفاته تحقيقاً كاملاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فمثلاً، يتعرض الطلاب في أية مدرسة لتدريب أو تأديب معين يفرضه المعلمون عليهم، وليس القصد منه معاقبة الذين لن يتعلموا بل، بالأحرى، تقدم الذين يستطيعون الاستفادة والتعلم. توضع في المدارس قواعد معينة للدراسة، فتمنح مكافآت للذين يجيدون وتفرض معاقبات على الذين يهملون. والسبب في وضع هذا النظام هو أن الطلاب طلاب علم وليسوا علماء. عندما يصبح الإنسان عالماً يطل يدرس لأنه يجب الاستزادة من المعرفة. في تلك الحال لا يكون محتاجاً لمن يرغمه على القيام بواجبه. لا يعود في حاجة إلى مكافاة غير مكافأة العلم، ولا يحتاج إلى معاقبة.

يصدق هذا الأمر نفسه في تنشئة الأولاد في البيت. يضع الوالدون لأولادهم حدوداًلكي لا يتعدوها، ويفرضون على من يتعدى على تلك الحدود عقاباً معيناً عندما تدعو الضرورة. يظهر أن هذا الأسلوب ضروري في تربية كل طفل. لكن عندما يكبر الطفل ويصبح رجلاً أو إمرأة وتصبح أخلاقه مستقرة ومتجهة الاتجاه الصحيح لا تظل حاجة لتأديب الأبوين. يشعر أكثر الكبار أنهم متمسكون برغائب والديهم أكثر مما كانوا وهم في الطفولة، فيظل تأثير الأبوين واضحاً في سلوك أبنائهم بعد انقضاء فترة تأديبهم بزمن طويل.

قد يكون هذا هو الذي يجعلنا ننظر إلى السماء كمكان البركات الكاملة التي لا يخالطها ألم. فبعد أن نبلغ كمال نضجنا الروحي لا تظل حاجة لتأديب الألم والموت والحزن التي هي بمثابة معلمين. يظهر بالنسبة للحياة الحاضرة، أن أي عالم يخلو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من الحزن والألم والموت لا يمكن أن يكون حقلاً تنشأ فيه الأخلاق وتتقدم. لنفترض أننا علمنا سلفاً أنه لن يصيبنا أي شر، وأن الحياة ستكون حلماً جميلاً ناعماً، وأننا لن نموت، أفلا تخمد هذه الظروف الممتازة كل رغبة فينا في عمل الخير؟ ألا تنحط أخلاق الإنسان انحطاطاً كاملاً ما دام له هذا التأكيد وهذه الطمأنينة؟ نعم، هذا ما سيجري في تلك الحال، ولذلك نعتقد أن وجود الشر في العالم يتفق تماماً مع الفكرة القائلة بأن الله يسطر على العالم ليتمم مقاصده الفدائية.

نقول، أخيراً، أن الله يستخدم الشر لإنجاز فدائنا نهائياً. يتلخص جوهر الشر الطبيعي في الموت. إن أكثر الشر والألم ما كان ليحسب ظلماً أو غير مرغوب فيه لو أنه لا ينتهي بالموت. وكلما نبحث في الشر الطبيعي لا بد من أن نواجه حقيقة الموت ونطرح السؤال لماذا كان على الناس أن يموتوا؟ وينجلي لنا الجواب عن هذا السؤال عندما ندرك أن على الناس أن يموتوا لكي يتمكنوا من الحصول على الفداء كاملاً. الجسد في الحياة البشرية فاسد بسبب الخطية مثلما أن النفس فاسدة. هو، إذن، في حاجة للفداء ليكون فداء الإنسان كاملاً. إن اختبار الموت القيامة ضروريان لفداء الجسد. عندما يذكر سفر التكوين قصة سقوط الإنسان الأول وفشله يقول أن آدم طُرد من جنة عدن لئلا يأكل من شجرة الحياة. والذي نستخلصه من هذا القول هو أن آدم. إذا أكل من شجرة الحياة، فإنه سيحيا إلى الأبد في هذا العالم. إي أنه يكون قد قضي عليه أن يظل طوال الأبدية في حال الخطية والجسد غير الكامل. إن ما يحاول المؤلف قوله هو أن الموت، الذي يصيب الإنسان كلعنة بسبب خطيته، يحل بالإنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المفدي كبركة متخفية، لا كلعنة. كانت هذه فكرة بولس عندما كان يتكلم بتشوق عن الموت بوصفه الوسيلة التي تمكنه من الاستمتاع بمسكنه السماوي (2كورنثوس 5: 1، 2) ويسائل نفسه فيما إذا كان يرغب في الموت، ذلك الموت الذي كان في نظره ربحاً عظيماً (فيلبي 1: 21- 23). ونجد هذه الفكرة نفسها في رسالة بولس إلى أهل رومية 8: 17- 23 حيث يصف العالم الطبيعي بأنه يئن ويتمخض في بُطله منتظراً القيامة الأخيرة عندما ستشترك الخليقة، أي العالم الطبيعي، في مصير المفديين المجيد. في كل هذه الآيات يريد الله أن يقول لنا أن الموت، الذي يعتبر الشر النهائي الذي يصيب البشر، هو في الحقيقة الباب الذي يؤدي إلى الخير النهائي حسب القصد الإلهي الفدائي.

يتبين من هذه الأبحاث أن من الممكن وجود الشر في عالم يحكمه الله الخير والصلاح. وهناك أفكار أخرى مما يمكن إيراده للتوفيق بين حقيقة وجود الشر في العالم وبين فكرتنا المتعلقة بصلاح الله المسيطر على العالم. من هذه الأفكار الأخرى أن الله يسيطر على الشر الذي يأتي إلى حياتنا ويضبطه ضمن حدود. فهو لا يتركه يجتاح حياتنا بلا ضبط أو سيطرة. هذا ما يعلم به سفر أيوب في العهد القديم وسفر الرؤيا في العهد الجديد. يعالج هذان السفران مشكلة الشر من زاويتين مختلفتين ولكنهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة. سفر أيوب يعالج مشكلة الشر بالبحث في أمر إنسان مؤمن بالله، وعلى الرغم من إيمانه وأمانته تحل في حياته الآلام، ويخلص إلى القول أن الله يسيطر على الشر في حياة ذلك المؤمن ويضبطه ضمن حدود. أما سفر الرؤيا فيبحث في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مشكلة كنائس آسيا الصغرى التي كانت تستعد لمواجهة جبروت الامبراطورية الرومانية. يقول هذا السفر بأن الله يسمح للشر بأن يستمر لفترة من الزمن وفي شكل يؤدي إلى غاية فدائية، ولكنه آخر الأمر يقضي على ذلك الشر وينهيه. إن الكتاب المقدس يصور لنا الله أباً حكيماً، لا يتدخل بإفراط في حياة أولاده، بل يسهر عليهم ويراقبهم باستمرار، فلا يدع الصعوبات والمحاربات أن تغلبهم ولا يسمح لتجارب الحياة أن تنتصر عليهم.

هناك فكرة أخرى يمكن إضافتها وهي أن الحياة يجب أن ينظر إليها في ضوء الأبدية لا في ضوء الحياة على هذه الأرض. فكثيراً ما يحدث لنا حادث نعتبره شراً أول الأمر ثم يتبين لنا بعد مرور الوقت أنه كان خيراً لا شراً. لقد تعلمنا جميعاً أننا لا نستطيع أن نقيِّم اختبارات الحياة تقييماً دقيقاً ما لم ننظر إلى تلك الاختبارات في ضوء الحياة كلها. إننا في حاجة أن نتعلم أن ننظر إلى اختباراتنا في ضوء الأبدية لكي يكون تقييمنا لتلك الاختبارات تقييماً دقيقاً حقاً. فالكثير مما يؤلم في هذه الحياة قد يكون السبب للأفراح التي سنختبرها في الأبدية. مثال ذلك واعظ شاب كان راعياً لإحدى الكنائس، وعانى في أثناء عمله الكثير من الاضطهاد والمتاعب. وجاء وقت تضايق فيه جداً، وشعر بأنه يواجه أعظم شر يحل في حياته. واجه صاحبنا ذلك الوضع بشجاعة وإيمان وانتصر عليه، ووجد بانتصاره أن ذلك الاختبار الذي حسبه شراً عظيماً كان في الحقيقة من أسعد اختبارات حياته. ويفرح الآن كلما تذكر تلك الأيام الشريرة، لا بما حملته إليه من شر بل بنعمة الله وقوته التي غمرت حياته في أثنائها. فعندما سيقف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا الواعظ على أسوار المدينة السماوية، ويتطلع إلى خلف مستعيداً ذكريات الحياة الأولى، ناظراً إليها في ضوء الأبدية، فإن فرحه دون شك سيتضاعف.

هناك أيضاً فكرة أخرى تستحق أن نشدد عليها وهي أن الشر لم يكن قط الشيء الذي يقصده الله. الشر شر ولا يمكن أن يكون صالحاً إلا إذا أوجد الخير في حياة البشر، وهذا الخير هو الذي يقصده الله. إذا أوجدت أية طريقة أخرى يمكن بها إنجاز الخير فإن الله، دون شك، يستخدم تلك الطريقة. ولكن حيث لا سبيل لبلوغ خير ما إلا باستخدام الشر فإنه تعالى يستخدم ذلك الشر ويحوله لإيجاد الخير. إننا نرى هذه الحقيقة ممثلة لنا من نواح عديدة في قصة الفداء الواردة في الكتاب المقدس. لقد قصد الله أن يخلص العالم، ولكن، لإنجاز ذلك الخلاص، كان لا بد من الصليب. لذلك قبل الله بحدوث الصلب، لا من أجل فرح الموت بل من أجل مجد الخلاص. وقصد الله أن ينتشر الإنجيل فيعم كل الشعوب، ولكن كان لا بد، في سبيل ذلك، أن تعاني كنيسة أورشليم الاضطهاد لكي ينتشر التلاميذ منها إلى بقاع الأرض حاملين الرسالة. فالاضطهاد لذلك كان ضرورياً وقد سمح به الله واستخدمه لعمل الخير. كان في قصد الله أن يجعل من بولس رسولاً عظيماً، غير أننا نجد بولس وكأنه يقول عن نفسه أنه كان ذا طبيعة خاصة بحيث كان من الضروري أن تعمل "شوكة في الجسد" على إبقائه مذعناً لإرادة الله، لذلك سمح الله لتلك الشوكة أن تكون في حياة بولس واستخدمها للخير (2كورنثوس 12: 7- 9). وهذه هي حال اختباراتنا في الحياة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يريد الله لنا الخير، ويسمح بالشر أن يصيبنا، ولكنه بنعمته وقوته يحول هذا الشر إلى أداة للخير.

آخر ما نقوله في هذا الموضوع، والنغمة التي بها ننهي كل هذا البحث في قصد الله في التاريخ، هو أن إيماننا يجب أن يقبل أحياناً ما لا تستطيع عقولنا أن تتحقق منه أو أن تفسره. وتصبح كل المشاكل المتعلقة بوجود الشر في العالم مسألة ثقتنا بالله– هل نستطيع أن نثق به، على الرغم من تلك المشاكل، أم لا نستطيع؟ يقول يوحنا (1يوحنا 5: 4) أن الغلبة التي بها نغلب العالم هي إيماننا. الإيمان هو الغلبة والانتصار. لا يقول يوحنا أن الإيمان يأتي بالغلبة بل أن الإيمان هو نفسه الغلبة، إننا نواجه اختبارات الحياة وما تحملها إلينا من مشاكل فكرية. فإذا استطعنا أن ننهض ونقف فوق ظروفنا ومحدودياتنا، وأن نمارس إيماناً خلاقاً قوياً بالله، فإننا نكون بذلك قد أحرزنا انتصار الحياة. وأني بهذا لا أدعو إلى الاعتقاد الأعمى بصلاح كل الأشياء، لأننا نعترف بأن الأشياء ليست جميعها صالحة وخيرة في ذاتها. وإنما أحث على الإيمان الصابر المؤسس على الصخر الثابت– على الاعتقاد بصلاح الله وسيادته المهيمنة.

قصد الله والحياة المسيحية

القسم الثاني

قصد الله والإنسان الفرد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مقدمة

اهتمام الله بالفرد

إن قصد الله، المعبّر عنه في الاختيار، ليس فقط قصداً عالميّ المدى. إنه أيضاً قصد يتناول الفرد. ومهما عظمت أهمية خطة الله للكون ككل. يجب ألاّ يغرب عن بالنا عظم أهمية الإنسان الفرد في خطة الله. إن هذا لخطر قد نتعرض له. مرّ عصر كان الناس فيه يشدّدون كثيراً على مسألة الفرد والفردية، وجاء عصرنا هذا فأصبحنا في خطر الانكفاء عن الفردية والذهاب بعيداً في الاتجاه المعاكس. إن تشديد العصر الحديث على النشاط الجماعي، والحركات الجماهيرية. الإنجيل الاجتماعي، كثيراً ما يقضي على الاهتمام بالفرد (1). بل أن علماء الكتاب المقدس أصبحوا مشغولين "بعمل الفداء العظيم" حتى أنهم نسوا أن الفداء، في الدرجة الأولى، فداء الإنسان الفرد. نجد على سبيل المثال أن هـ. هـ. راولي (H. H. Rowley) في كتابه "عقيدة الكتاب المقدس في الاختيار"، وهو الذي قد يعتبر أهم كتاب حديث في هذا الموضوع، لا يذكر شيء عن مصير الإنسان الفرد (2). إن البحث الكامل في عقيدة الاختيار يوجب معالجة اختيار الله للإنسان الفرد لينال هذا الإنسان الخلاص، ويقوم بالخدمة، ويدخل المجد. ليس اختيار الله للفرد أمراً فرعياً، بل هو أساسيّ. كان اهتمام الله دائماً، وبالدرجة الأولى، بالإنسان الفرد وبما هو لخيره، مع أن الإنسان كان في أغلب الأحيان يجهل هذه الحقيقة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ليس أدل على هذه الحقيقة مما نراه في خدمة يسوع التي كانت موجّهة لسد حاجة الإنسان الفرد (3). لقد أثبتت خدمة يسوع، بقدر ما أثبت تعليمه، ما للإنسان الفرد في نظر الله من قيمة غير محدودة اهتمام الله بالفرد.

(4). كانت معجزات الشفاء تستهدف انتشال الفرد من هوّة الشقاء والفاقة. إن قصة يسوع والخدمة التي قام بها طافحة بالدليل على أنه لم يستطع قط التحول عن سماع الاستغاثة الصادرة من قلب أي إنسان، بل كان دائماً يجيب دعوة الداعي ويسد حاجة المستغيث. وما شفاؤه المفلوج (مرقس2:1-12) والرجل ذا اليد اليابسة (مرقس3:1-5) وابنة المرأة الفينيقية – السورية (مرقس7:24-30) وبرتيماوس الأعمى (مرقس10:46-52) وكثيرين غيرهم، الأمثلة تبين عطفه العظيم على الناس من رجال ونساء واهتمامه الشديد بسد حاجاتهم. وعندما انتقده البعض على مجالسته أفراداً من الذين نبذهم المجتمع في ذلك العصر، أجاب أولئك المنتقدين بالقول: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة" (مرقس2:17). وعندما قابل رجلاً ورأى فيه توبة صحيحة صادقة فرح جداً وقال إن "ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلّص ما قد هلك" (لوقا19:10).

ما سر هذا الاهتمام من جانب يسوع بالإنسان الفرد؟ لقد كان يسوع يرى انه انعكاس لفكر الله. فالله هو الذي يهتم بالفرد. أجاب يسوع الذين انتقدوه على مصاحبته الخطاة والعشارين بثلاثة أمثال قالها لهم، وهي مثل الخروف الضال ومثل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الدرهم المفقود ومثل الأخوين (لوقا 15). وأبرز ما في هذه الأمثال اهتمـــام الأب بالأفراد الضالين و الذين هم في حاجة. نرى موقف يسوع نفسه من قيمة الإنسان في إصراره على أن حياة الإنسان أعظم أهمية من العالم المادي كله (مرقس 36:8)، وأن سد حاجته أولى و أهم من سد حاجة الحيوانات (متى12:12)، وإن العمل لخـــيره ولسعادته أهم من المحافظة على المؤسسات والتقاليد الدينية (مرقس 27:2).

عندما كان يسوع يعلّم كان يشدد على اهتمام الله بالإنسان الفرد. نـــراه يقول أن عبادة الله الحقة هي العبادة الروحية لأن الله روح (يوحنا24:4). لذلك فهي أساساً غير مقتصرة على أي مكان، أو تقليد أو أسلوب، أو مؤسسة، إذ هي لقـــاء النفس الأمينة المخلصة بالإله الحي. نجد هذا التشدد واضحاً في تعاليم يسوع عن نبوة الله. نظر اليهود إلى الله على أنه أب لهم كشعب، وكانت علاقة الفرد اليهودي بالله عن طريق العلاقة بالشعب. كانت علاقة الفرد، إذن، غير مباشرة بل علاقة عن طريق الشعب ومستمدة من العلاقة به. جاء يسوع وغير هذا كله. لقد علّم يسوع أن الله أب للمؤمن. وقال بأن علاقة الإنسان بالله علاقة مباشرة، وشخصية، وجوهريـــة، للمؤمن الفرد الحق، بوصفه ابناً لله، في أن يختار الاجتمـــاع بـــالمؤمنين الآخـــرين والاشتراك معهم في ما يسمى بالكنيسة ولكن مع ذلك يظل للمؤمن الفرد علاقتـــه المباشرة والجوهرية بالله كل إنسان مؤمن يعرف الله ويعبده كشخص وفرد لا ككيان نصف شخصي في مؤسسة دينية حيث تختفي حياته الشخصية . لقد علّم يسوع أن الله الأب بعتني بأولاده عناية شخصية دقيقة ، بل لقد قال: "أما أنتم فحتى شـــعور

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رؤوسكم جميعها محصاة " (متى 10:30). إن يسوع بتصريحات كهذه إنّما شدد على حقيقة معرفة الله وعنايته بأبسط تفاصيل حياتنا. لم تكن ليسوع النظرة العصرية المعروفة هذه الأيام والقائلة بأن الله يشرف على شؤون الأمة وقضاياها الكبيرة ولكنه غير منشغل بشؤون الفرد. كان يسوع يعتقد أنه ليست للإنسان الفرد قضية، مهما كانت صغيرة وتافهة ، إلاّ وتحظى باهتمام الله.

كتب ت.و.مانسون (T. W.Manson) فقال أن كل تعليم يسوع عن أبوة الله يمكن تلخيصه بالصلاة الربانية (متى 6:9-13). إن هذه الصلاة، التي يجتمع فيها كل ما يمكن أن نطلبه أو نرغب فيه من الأب، تعطينا فكرة صادقة عن الله الذي نؤمن به. من الممكن قسمة هذه الصلاة إلى مجموعين رئيسيتين: مجموعة الطلبات الأولى التي هي – "ليتقدس اسمك" و"ليأت ملكوتك " و "لتكن مشيئتك"، ويمكن أن ندعوها بالقضايا العلمية. ومجموعة الطلبات الثانية، وهي – "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" و "اغفر لنا ذنوبنا" و "نجنا من الشرير"، فتتعلق بحاجات الإنسان الفرد اليومية. صحيح أننا قد لا نستطيع التشديد كثيراً على تقسيم الصلاة الربانية بالشكل المذكور، لكن مانسون على حق في القول بأن هذه الصلاة تبين اهتمام الله بالإنسان الفرد وكذلك باهتمامه بشؤون العالم. هذه هي أبوة الله وما تعنيه في تعاليم يسوع.

إن ما سبق قوله لا يعني أن يسوع ابتعد كلياً عن تعاليم العهد القديم، بل إنما غيّر التشديد. فبعد أن كان الاهتمام في العهد القديم منصرفاً إلى الأمة أصبح في العهد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجديد منصرفاً إلى الإنسان الفرد. كانت آراء يسوع تتفق تماماً مع صميم تعاليم العهد القديم. هناك فكرة شائعة تقول أن ديانة العهد القديم تتصف بالجماعية، وأنها كانت تحصر تعاملها مع شعب إسرائيل. ليس هذا كل ما في الأمر. فالعهد القديم يقول الكثير عن علاقة الفرد بالله (8). كانت الشرائع اليهودية موجّهة إلى الفرد وقد صيغت على ذلك الأساس إذ أنها تخاطب الفرد ، مثل :"لا تقتل، لا تسرق."وكثير من تلك الشرائع عبّر، بشكل غير مباشر، عن قيمة الفرد الرفيعة. فلا يجوز للمرء أن يكذب أو يشهد بالزور على شخص آخر، ولا أن يسرق منه أو يقتله أو يزني معه، لأن لكل شخص قيمته الرفيعة وأهميته. لا يحق أن نعتبر أي إنسان مجرد وسيلة، إذ أن كل فرد هو في ذاته غاية. إن ما فعله يسوع بصميم تعليم العهد القديم هو أنه جمع أشعة ذلك التعليم في بؤرة دقيقة وأكد على أن اهتمام الله بالإنسان الفرد اهتمام أوليّ ورئيسي وليس اهتماماً جانبياً أو ثانوياً.

كان هذا هو التشديد في العهد القديم. نرى ذلك واضحاً في سفر أرميا حيث أعلن هذا النبي أن الله سيقيم عهداً جديداً (أرميا 31:31_34). لقد اعتبر كاتب الرسالة إلى العبرانيين هذه الآيات في ارميا نبوة مباشرة تتكلم عن صميم الديانة المسيحية (راجع عبرانيين 8:8-12). إن المظاهر الإيجابية التي اتصّف بها العهد الجديد هي، أولاً، الاتجاه إلى الداخل: "أجعل شريعتي في داخلهم". وثانياً الفردية :"كلهم سيعرفونني". وثالثاً الغفران: "ولا أذكر خطيتهم بعد". لكن لا بد من الاعتراف بأن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اليهود أخطأوا في تفسير تعليم الله على نحو جعل الفرد غير ذي أهمية، مع أن هذا لم يكن قط قصد الله.

إننا نرى صدق هذا القول. لا في تعاليم يسوع وحسب، بل أيضاً في اهتمام المجتمع المسيحي بالإنسان الفرد. لقد أظهر هذا الموقف جميع كتّاب أسفار العهد الجديد (رومية 8:10-31). وشدّد يوحنا على الاختبارات المتعلقة بحياة الفرد، مثل الغفران، والولادة الثانية، ومحبة الإنسان لأخيه، غير ذلك من الاختبارات. إن جميع هذه الحقيقة ذاتها عندما يوصي بأن يعامل الفقير بالاحترام ذاته الذي يعامل به الغني في اجتماعات المسيحيين (يعقوب 1:2-8).

لا حاجة لقول المزيد في هذه القضية، ويمكن القبول بها كإحدى القضايا المسلم بها والرئيسية في علم اللاهوت الكتابي. ولنأتِ الآن إلى بحث اختيار الله للإنسان الفرد للخلاص، وللخدمة، وللمجد. إن ما سبق ذكره في القسم الأول من هذا الكتاب، على الرغم من أهميته لفهم قصد الله في العالم، ليس سوى الخلفية للبحث الذي سنشرع به الآن. إن كل تحرّكِ قصدِ الله في الفداء يظل بلا معنى أو جدوى ما لم يؤدّ، آخر الأمر، إلى خلاص الإنسان الفرد. يمكن أن نقول بثقة أن هذا الخلاص كان منذ البداية موضوع اهتمام الله الرئيسي.

إن الطريقة التي اعتمدناها للسير في هذا البحث الجديد تتطلب منا كلمة توضيح. سنبدأ بالبحث في معاملات الله الواقعية مع الفرد، أولاً في خلاص الذين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حصلوا على الخلاص، وثانياً في هلاك الذين لم يحصلوا على الخلاص. سنفعل هذا لأننا نجد في هذا البحث من المعطيات التي نستند إليها أكثر جداً مما نجد عندما نبحث في قصد الله الأبدي. وهذا يعني أننا سنحاول أن نربط بين معاملات الله الواقعية مع البشر وبين قصده الأبدي. سنستخدم طريقتين للوصول إلى الحق. أولاً، سنحاول الـــربط منطقياً بين الاعتقاد المسلم به والقائل بأن الله يفعل ما يفعل بناء على قصد، وبـــين النتيجة الفعلية لمعاملاته مع الناس. ثم سننظر في بعض المشاكل التي تنشأ في الفكـــر البشري عندما تعرض له هذه الحقائق. وأخيراً سنعمل على الربط بين هذه الحقيقـــة بأكملها وبين عيشنا الحياة المسيحية في شركة مع الله وفي الخضوع لإرادته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل التاسع

للرب الخلاص

عندما قال يونان النبي "للرب الخلاص" (يونان 9:2) لم يكن الوحيد الذي قال ذلك، إذ أنه تصريح نابع من صميم الكتاب المقدس. وهناك إجماع بين علماء الكتاب المقدس في كل العالم على أن تلك حقيقة بديهية لا تحتاج إلى برهان. لقد كتب أولئك العلماء فبيّنوا، الواحد بعد الأخر، أن الكتاب المقدس باستمرار يصور الخلاص الحقيقي نابعاً من الله (1)، وأنه يجيء نتيجة لعمل الله (2)، وإن نعمة الله هي التي بدأت به، وهي التي تبحث عن الإنسان وتعمل على جعله يستجيب ويقبل نعمة الله المقدمة من قبل(3). هذه الحقيقة تقف في الوسط في مكان نقطة الدائرة من تعاليم كلا العهد القديم والعهد الجديد، حتى أننا لسنا في حاجة ألا إلى النظر في بعض المقاطع التي تعلّم هذه الحقيقة. "أليس أنا الرب ولا اله آخر غيري؟ اله بار ومخلّص، ليس سواي. التفتوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر" (أشعياء 21:45-22). وكاتب المزمور103 يدعو نفسه لتبارك الرب، ويقول عنه تعالى أنه يغفر الذنوب ويشفي الأمراض ويفدي الحياة ويكلل نفس المؤمن بالرحمة والرأفة ويشبع العمر بالخير (103:1-5). يصر بولس على أن الله هو الذي باركنا بكل بركة روحية (أفسس1:3)، ويقول بطرس أن الله هو الذي ولدنا ثانية لرجاء حي (بطرس1:3). وهكذا حيثما نظر المرء في كلا العهد القديم والعهد الجديد يشاهد أنوار مجد الله مخلص البشر وفاديهم ومعينهم تشعّ ساطعة صافية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذه الحقيقة أكيدة لا تحتاج لمن يدافع عنها، لكنها تحتاج إلى المزيد من التوضيح، إننا نعجز عن إدراك المعنى الكامل لنعمة الله ألا إذا أمعنّا النظر في الخلاص بكل تفاصيله. ولا بد من القول أن الخلاص لا يجيء نتيجة لتدبير عام يقوم به الله حيث يتعاون الإنسان المخلَّص ويشترك بهذا العمل بقوته الذاتية. لا، بل الخلاص بكليته هو عمل الله في قلب الإنسان. يشدد العهد الجديد باستمرار على أن الإنسان لا يساهم أبداً بشيء في أمر خلاصه. إن هذا ناتج عن حالة الخطية التامة التي يعيش فيها الإنسان وهي الحقيقة التي لمّح إليها يسوع (لوقا11:13) وصرّحت بها آيات كثيرة في الكتاب المقدس. يصر بولس على أن "الجميع اخطئوا وأعوزهم مجد الله" (رومية3:23). وإن وصفه لحال الإنسان غير الحاصل على الخلاص في أفسس 2: 1-12 لا يكاد يصدّق. يصف بولس الخطاة بأنهم أموات بالذنوب والخطايا (الآية1)، وأنهم تحت سلطان الشيطان (الآية 2)، وأنهم بالطبيعة أبناء الغضب (الآية3)، وبلا رجاء وبلا اله في العالم (الآية12). إن القصد من هذا المقطع من رسالة أفسس وما فيه من صورة مظلمة لخطية الإنسان هو إبراز الحقيقة القائلة "بالنعمة انتم مخلّصون" (الآية 8). يقول بولس، في الواقع، إن الإنسان مادام قد أخطأ ضد الله فليس لديه أي استحقاق يستطيع بموجبه أن يطالب بالعون من الله، ومادام ميتاً بالخطايا فلا قوة لديه ليحطم بها قبضة الخطية التي تسيطر على حياته.

الخلاص، إذن، من الرب، وأكثر من ذلك، هو بنعمة الله. النعمة هي الكلمة التي وردت في العهد الجديد لتصف كل ما يصنعه الله لخير إنسان لا استحقاق له ولا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فضل. يقول بولس بإصرار "بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم- هو عطية الله ، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" (افسس2:8-9). إنه يقول أن مصدر الخلاص هو الله وليس الإنسان، وأن وسيلة الخلاص ليست الأعمال بل الخضوع لله في الإيمان. هذا هو التشديد الدائم الذي قام به بولس وأصرّ عليه. يعود المجد كلياً في الخلاص لله وحده دون الإنسان. لا يستطيع الإنسان بأي حال أن يفتخر من هذه الناحية. وإن بولس ليؤكد ويصر على هذه الحقيقة بكل صراحة ووضوح (انظر رومية 2:3، واكورنثوس1:29، وغلاطية6:14، وفيلبي2:3، وتيطس3:4-5، وغيرها).

ليست عقيدة الخلاص بالنعمة مجرد فكرة بولسيّة، على الرغم من ورودها بأوضح عبارة في كتابات بولس. ويشير جيمس موفات إلى أن كلمة "النعمة" لم ترد قط على لسان المسيح في البشائر الأربع، لكن هذه البشائر تظهر أن فكرة النعمة كانت ضمناً موجودة في مهمته وفي اعتقاده بأن تلك المهمة كانت أن يتمم قصد الله، وفي صراعه مع ديانة الأعمال التي شاعت بين الناس في أيامه، وفي يقينه واقتناعه بأن "حكم الله" أو ملكوته لا بد أن يظهر عن طريق رسالته ومهمته. ولقد بين يسوع، في إجابته عن سؤال الشاب الغني، إن "الحياة الأبدية" لا يمكن أن تعطى كجزاء لإطاعة الناموس، ولكنها عطية الله التي يمنحها للمكرسين تكريساً تاماً (مرقس10:13-22). وعندما اندهش تلاميذه إذ سمعوا تصريحه بأن من العسير أن يخلص الأغنياء سألوه: "من يستطيع أن يخلص؟" فأجابهم: "عند الناس غير مستطاع، ولكن ليس عند الله، لأن كل شيء مستطاع عند الله" (مرقس 10:26، 27).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويعقوب يردد صدى تعليم يسوع وتشديد بولس إذ يقول: "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار" (يعقوب1:17).

ليس في ما يؤول لخلاص الإنسان ما يمكن أن يعزى آخر الأمر للجهد البشري أو لإنتاج الإنسان. صحيح أن الإنسان من ناحيته يقوم بتسلّم الخلاص، وأنه يتجاوب مع نعمة الله، ويفعل هذا كله حراً مختاراً، إذ أن الله لا يرغمه على قبول الخلاص. غير أن خلاصه يجيء نتيجة لعمل الإله المنعم الكريم، الذي، على الرغم من خطية الإنسان وعدم استحقاقه، يعمل في قلبه ليسبب خلاصه، ويهيئ بتدبير رحمته وعنايته الظرف الملائم لإتمام ذلك. من أجل هذا يصدق القول أن الإنسان إذا أصبح مخلصاً فبنعمة الله. وهذا ثابت إذا ما اعتبرنا العناصر الضرورية المعتادة لخلاص الإنسان، وهي كما يلي:

أولاً، الله هو الذي يقوم بإرسال من يكرز بالإنجيل، وهو الذي يثير في الإنسان الذي يسمع البشارة الشعور بحاجته، ويوجهه ليجد العلاج الذي تحتاج إليه نفسه. إن عمل الشهادة للإنجيل هو عمل الله وليس عمل الإنسان. يقول بولس: "إن إنجيلنا لم يَصِر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضا وبالروح القدس وبيقين شديد" (1تسالونيكي1:5). جاء في سفر الأعمال أن المسيحيين في يوم الخمسين تكلموا "كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" (اعمال2:4). لقد تكلم الكارزون والوعاظ في العهد الجديد ولهم اليقين بأن رسالتهم كانت "كلمة الله" شأنهم في ذلك شأن الأنبياء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في الأزمنة القديمة. ومادام الناس لا يقدرون أن يؤمنوا إن لم يسمعوا، ولا يقدرون أن يسمعوا كلمة الله إن لم يأتهم من يكرز لهم بها (رومية14:10)، لذلك كانت الكرازة بالإنجيل عنصراً جوهرياً في خلاص الإنسان. إن من ينظر إلى هذا الأمر نظرة سطحية قد يرى أن الجهد البشري هنا يسهم في خلاص الإنسان. لكن هذا غير صحيح بدليل أن العهد الجديد يشدد على أن مثل هذه الكرازة أو الشهادة هو في الحقيقة عمل الله وإن كان يعمل من قبل الناس.

ثانياً، إن تقديم الشهادة ليس فقط عمل الله بل إنه ينال المساندة من قوته لكي تكون الشهادة فعّالة. بل إن الشاهد للمسيح، وإن كان يعمل بإرشاد الروح، لا يقدر أن يغيّر قلب الإنسان دون أن تكون شهادته مصحوبة بعمل الله في قلب السامع ليثير فيه تبكيتاً على الخطيّة ورغبة في أن ينال الخلاص، . صرّح يسوع بإصرار: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب" (يوحنا 6: 44). لقد وعد تلاميذه أنه بعد أن يتمجد يرسل الروح إليهم الذي "يبكّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة" (يوحنا16:8)، وقد تحقّق هذا الوعد لأول مرة في يوم الخمسين. إن ما جاء في سفر الأعمال عن إحداث ذلك اليوم يضيء بنور أخّاذ إذ يروي ما قام به روح الله من أعمال متلاحقة. فقد جاء الروح إلى الكنيسة أولاً فملأ كل مؤمن بالقوة (أعمال 2: 4). بعد ذلك تكلم كلّ منهم كما ألهمه الروح القدس (أعمال 2: 4). وكانت عظة بطرس مثالاً لما يعظ به المسيحيون. وجاء في ختام تلك العظة إنّ الذين سمعوها "نُخسوا في قلوبهم" (أعمال 2: 37)، وهذا يعبّر، حسبما يظهر، عن عمل الروح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القدس في قلوب السامعين. وتجيء في آخر ذلك الفصل من السفر عبارة تصف باختصار النجاح الأول الذي حقّقته الكنيسة عندما اجتذبت مهتدين جدداً إلى الإيمان، وهي إن الرب "كان...كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون" (أعمال 2: 47)، الأمر الذي يشير إلى قوة الله بوصفها القوة الفعّالة في التبشير بالإنجيل. ويعيد كاتب رسالة العبرانيين إلى الأذهان كيفية انتقال الإنجيل من الرب يسوع إلى الجيل الأول من المسيحيين فيقول عن الخلاص إنه "قد ابتدأ الرب بالتكلّم به، ثم تثبّت لنا من الذين سمعوا شاهدا الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوّعة ومواهب الروح القدس حسب إرادته" (عبرانيين 2: 3- 4). إن شهادة العهد الجديد كلها من هذه الناحية هي أن قوة الله التي ترافق الوعظ بالإنجيل وتقديم المسيحي شهادته للمسيح هي التي تجعل ذلك الوعظ وتلك الشهادة فعّالين في قلوب الذين يسمعون.

ثالثاً، يخلق الله الإيمان الذي يجعل من الممكن قبول الخلاص. يتكلم البعض عن الإيمان كما لو كان، كليّاً، عمل الإنسان واستجابته هو لدعوة الخلاص دون أي عون من أحد. ليست هذه فكرة العهد الجديد، ولا هي حقيقة الإيمان. صحيح إن الإيمان عمل يعمله الإنسان وإنه استجابة كل كيانه لقبول عطية نعمة الله ولكنه، كما يقول الدكتور كونر، "ليس عملاً يعمله الإنسان بقوته هو، بل يعمله بمعونة الله" (6). يقدّم بولس الرأي ذاته في تصريحه المعروف عن الخلاص "لأنكم بالنعمة مخلّصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله" (أفسس 2: 8). تقول هذه الآية ليس الخلاص وحده عطية الله بل الإيمان، الذي هو وسيلة قبول ذلك الخلاص، هو أيضاً عطية الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإن بولس في استعماله كلمات مثل "دعانا" و"مدعوين" في رسائله إنما يشدّد على أن الإيمان هو بذاته عطية الله ، إذ أنه عبارة عن عمل الله في القلب البشري. يتتبّع بولس في مقطع واحد امتداد خلاص الإنسان الرائع من الأزل إلى الأبد مستخدماً خمس كلمات إذ يقول إن الله سبق فعرف المؤمنين، وعيّنهم، ودعاهم، وبرّرهم، ومجّدهم (رومية 8: 29- 30). وقوله "دعاهم" يجيء في وسط برنامج الخلاص هذا. إن كلمة "دعا" ذاتها قد تشير إلى دعوة عامة يستطيع كل فرد أن يلبيّها إذا شاء. لكن بولس في الواقع لم يستخدم الكلمة قط بهذا المعنى، فقد كانت دائماً تعني "دعوة فعالة" (7). إنها تبيّن إن الله يضيف إلى الدعوة الخارجية "عنصراً جوهرياً ثابتاً هو شعور متجاوب داخلي يتكوّن مباشرة لدى اتصال النفس بالله" (8). يقول هذا الرأي، بكلمة أخرى، إن قوة الله وحدها هي التي تمكّن الإنسان الخاطئ من أن يؤمن بالمسيح وأن يقبل الخلاص الذي يقدّمه الله له.

رابعاً، يخلّص الله الإنسان الخاطئ عندما يستجيب هذا الخاطئ للنعمة. هذه حقيقة وردت كثيراً وبوضوح في العهد الجديد حتى أننا لا نكاد نحتاج أن نذكرها. إن الكلمات التي يقصد بها تفسير ما يجري للإنسان في اختبار الخلاص تشير كلها إلى هذه الحقيقة وهي أن الخلاص هو عمل الله في القلب البشري. إن هذه الكلمات، وهي تصف اختبار الخلاص، تبين باستمرار أن الله هو الذي يعمل الخلاص، وإن الإنسان هو الذي ينفّذ فيه هذا العمل. يقول العهد الجديد أن الإنسان، عندما يقبل المسيح ربّاً على حياته، يولد ولادة جديدة، وتغفر خطاياه، ويتبرّر، ويتصالح مع الله،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويتقدّس. يبيّن جميع كتّاب العهد الجديد، بلا استثناء، إن هذا الاختبار يحدث نتيجة لعمل الله الفعّال في القلب البشري. فإن الله هو الذي يغفر للإنسان الخاطئ خطاياه، ويبرّره، ويصالحه، ويقدّسه، ويجدّده، وهكذا يصيّره ابناً لله.

خامساً، الله هو العامل، لا في إنشاء اختبار الخلاص وحسب، بل أيضاً في مساندة المسيحي في علاقته بالله. فقد حثّ بولس المؤمنين في فيلبي في رسالته إليهم على أن يتمّموا خلاصهم بخوف واهتمام إذ أنّ الله هو الذي يعمل فيهم، سواء في رغبتهم أو في إتمامهم مشيئته (فيلبي 2: 12- 13). ويقول بطرس لقرّاء رسالته الأولى أنهم "بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن في الزمان الأخير" (1بطرس 1: 5). واعتبر يسوع أن السبب الفعّال الذي بفضله لا يمكن أن تهلك خرافه هو أنها محفوظة في يد الآب، "ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي" (يوحنا 10: 28 – 29). وعبّر بولس عن ثقته المؤكدة عندما قال: "لأنني عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم" (2تيموثاوس 1: 12). لا يعني هذا أن المسيحي المؤمن بالمسيح محفوظ على أي حال ، وسواء بذل جهداً أم لم يبذل، بل أنه يعني أن قوة الله هي التي تمكّنه من أن يعيش أميناً للمسيح طوال حياته. هذا هو الأساس الذي إليه يستند المؤمن في تأكّده من أن الله، لا يخلّص أولاده وحسب، بل يحفظهم أيضاً في هذا الخلاص.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهكذا نجد أن عملية خلاص الإنسان بكاملها تعود نهائياً إلى نعمة الله وتعتمد كلياً على هذه النعمة. فالإنسان يخلص بنعمة الله وبها وحدها. إن هذه الفكرة قد تثير مشكلة بالنسبة لنا. ربما نتساءل: هل النعمة تعني أن يكون المؤمن سلبياً كليّاً، وأنه لا يعمل من جانبه أي شيء تجاه اختبار الخلاص؟ لا. إذن، ما الذي تعنيه النعمة؟ قد يكون الجواب على هذا السؤال في التمييز بين "العمل" وبين "التصرّف". لكن التمييز بين الكلمتين أمر صعب، فنحن عادة ننظر إلى "الأعمال" كنتيجة لا بدّ منها "للتصرّفات". إن هذا، على أي حال، يندر أن يصدق في الشؤون العادية، ولا يصدق أبداً في الشؤون الروحية.

لنأخذ مثلاً من حياة الفلاح، فهو "يتصرّف" عندما يقوم بتحضير الأرض وزرع البذار، لكن كثرة الغلال تعتمد على عوامل لا يسيطر عليها الفلاح – مثل خصب الأرض ونزول المطر وإشراق الشمس. صحيح أنه لا تأتي أية غلّة من الأرض دون أن يقوم الفلاح بما يتوجب عليه، لكن مجيء الغلة في الواقع لا يعتمد على ما يفعله الفلاح بقدر ما يعتمد على عوامل أخرى. كذلك عندما يشخّص الطبيب المرض، ويصف الدواء أو يُجري عملية جراحية، فإن تلك ليست هي التي تشفي. يجيء الشفاء نتيجة لعوامل أخرى – يجيء نتيجة لقوة طبيعية التي هي في الحقيقة قوة الله. لا يكاد يوجد شيء يفعله الإنسان وحده دون أن يستعين على فعله بأسباب خارجية تُسهم في إنجاح الفعل والحصول على النتائج. يتمكّن الطالب من التعلّم بالمساعدة التي يُسديها إليه المعلم، ويتمكن رجل الأعمال من تحصيل الأرباح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالاعتماد على المجتمع الذي يتعامل معه، وينجح السياسي بالاعتماد على وطنه ومواطنيه.

أما عمل الله في القلب البشري فيفوق كل ما يعمله البشر. يستطيع الإنسان في الأمور العادية أن يضع أهمية كبيرة على الإسهام الذي يسهمه لإخراج النتيجة النهائية لأعماله، ويظن أنه بذلك الإسهام كان، في ذاته ومن ذاته، العامل الذي أدّى إلى النتيجة. لا يقدر أن يعزو ذلك الاختبار إلى شيء معيّن في نفسه أو إلى أي عمل قام هو به. إن كل شيء يعتمد على نعمة الله. الإنسان لا يسهم بشيء في أمر خلاصه. ليس هناك أي إسهام يجيء من مصدر بشري ويمكن أن يُعزى إليه الخلاص، فالخلاص بكليته من نعمة الله. لكن مع هذا يعمل الإنسان عندما يقبل الخلاص. لا يجوز بأي حال اعتبار الإنسان مجرّد طينة يعمل بها الفخاري ما يشاء دون إرادتها. فإن الإنسان، على الرغم من أنه موضوع عمل الله، يظل له ما يعمله باختباره قوة الله.

إننا نعترف أن هذا لغز لا يمكن تفسيره. إن ما يعنيه، أساسياً، هو أن الإنسان، في إنجازه أيّة نتيجة روحية حقيقية، لا يعمل مستقلاً عن الله. فإن الله هو الذي يقوم بالمبادرة في كل أعمال الإنسان الخيّرة، وقوة الله هي التي، إذ تسيطر على كيان الإنسان وتسكن فيه، تمكّن هذا الإنسان من العمل بطريقة روحية ظاهرة وهامّة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ربما نستعين على فهم اللغز باستخدام مثل. يقول لنا بولس: "كذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها" (رومية 8: 26). إن الكلمة المترجمة "يعين" تعني في الأصل "أن يحمل شخص شيئاً بدلاً من، أو بالاشتراك مع، شخص آخر، " وذلك يعني" أن يعين الشخص المذكور." يمكن إيضاح الأسلوب الذي به يساعد الروح القدس الإنسان المسيحي أو المؤمن في ضعفه باتخاذ اختبار الصلاة مثالاً. يصلي الإنسان ، لكنه يحس أنه لا يعرف كيف يصلي كما ينبغي. وبينما يجاهد لتكون له شركة روحية مع الله يصبح عنده اليقين بوجود قوة الله في قلبه تدفع قوى تمييزه وتوجّهها إلى أبعد مما يمكن بالشكل الطبيعي. فيجد نفسه ينطق بأنّات لا ينطق بها. من الذي يصعّد إلى الله تلك الأنات، الإنسان أم الروح القدس ؟ الاثنان معاً. لا يعمل الإنسان مستقلاً عن الروح، إنه لا يقدر على ذلك. الروح أيضاً لا يعمل مستقلاً عن الإنسان.

يمكن أن يقال الشيء ذاته بشأن كل عمل روحي بارز يقوم به المسيحي المؤمن. فإنه عندما يواجه التجربة وينتصر عليها يحس بأن حضور الله وقوة الله هما اللذان مكّناه من الانتصار. إنه يصيح "شكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين" (2 كورنثوس2 :14). تهبّ في وجه هذا المؤمن العواصف وتجابهه صعوبات الحياة فيشعر بعجزه عن الصمود، ولكنه يعرف في الوقت ذاته أنّ "كل الأشياء مستطاعه لي وأنا متّحد بالمسيح الذي يقوّيني" (فيلبي 4 :13 الآية من ترجمة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المؤلف). وعندما يواجه مهمّة الشهادة لعالم هالك عن نعمة الله يقول "نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله" (2كورنثوس 5: 20). أن هذا ليدلّ على أنه من الممكن أن يكون العمل عمل الإنسان، لكن يقال، في الوقت ذاته، عن نتيجة ذلك العمل أنها عمل الله.

يعلّم العهد الجديد أن الخلاص هو بالنعمة وأنه بكلّيته عمل محبة الله، وسواء فهمنا ذلك أم لم نفهمه فأنه الحقيقة. لقد أنشأ الله الخلاص وهو الذي يتممه. إنه المخلص. وإذا عدنا بأفكارنا إلى الماضي وراجعنا تاريخ حياتنا الروحي فلن نجد في خلاصنا عاملاً واحداً كان مصدره الإنسان. هذه هي الفكرة المركزيّة في الكتاب المقدس عندما يتكلم عن خلاص الإنسان.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل العاشر

الهلاك من الإنسان

ليس كل الناس يخلصون. أما البعض فقد قالوا بخلاص كل البشر (Univeresalism)، لكن هذا القول، على الرغم من انتشاره وتزايد عدد الآخذين به، ليس تعليم العهد الجديد. يعلّم العهد الجديد أن بعض الناس، وربما الكثير منهم، سيهلكون في النهاية. تكلم يسوع في إنجيل يوحنا عن قيامة أولئك الذين "عملوا السيّئات" ولكنه قال أنها "قيامة الدينونة" (يوحنا 5: 29). لقد علّم أنه، عند الدينونة الأخيرة، سيكون هناك الذين يمضون"إلى عذاب ابدي" (متى 25: 46). يصور لنا كاتب الرؤيا صورة حيّة للدينونة الأخيرة ويقول: "وكل من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة طرح في بحيرة النار" (رؤيا 20: 15). أما بولس فلا يبحث كثيراً على نحو مباشر في هذا الموضوع، لكنه مع ذلك يصرّ على أن الذين لا يؤمنون سيدانون (2 تسالونيكي 2: 12). وكاتب رسالة العبرانيين، وهو يفكر بالدينونة الأخيرة، يقول: "مخيف هو الوقوع في يديّ الله الحي" (عبرانيين 10: 31). بل لو أننا أخذنا في حسابنا وجود شيء من الخيال في اللغة عند اليهود وأعطينا لقصد الله الخلاصي المكان الكافي، فإننا لا نجد مفرّاً من الاعتراف أخيراً بأن جزءاً من الجنس البشري لن يختبر الخلاص اختباراً فعلياً.

لماذا سيهلك البعض؟ اعتقد كتّاب العهد الجديد أن علّة هذا الهلاك هي في الإنسان وفيه وحده، وأن الله غير مسؤول عن دينونة أحد أبداً. يمكننا التثبّت من هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحقيقة بملاحظة عدّة نقاط. أولاً، دبّر الله طريقاً للخلاص يمكن أن تكون فعّالة على نطاق كونيّ إذا ما قُبلت من جميع من في الكون. يرى الكثير من الناس أن كلمات الآية في يوحنا 3: 16 تلخّص كل تعليم العهد الجديد في موضوع الخلاص. "هكذا أحبّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل لتكون له الحياة الأبدية. "لاحظ أن حبّ الله هو للعالم كلّه، وأن تضحيته ابنه كانت للعالم كلّه أيضاً، وأن "كل من يؤمن"، بلا استثناء، يستطيع قبول الخلاص. يصر بولس على أن الابن بذل لأجلنا أجمعين"(رومية8: 32)، وإنه "لا فرق بين اليهودي واليوناني، لأن رباً واحداً للجميع غنيّاً لجميع اللذين يدعون به، لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص" (رومية 10: 12، 13). وقد صرّح بولس أيضاً بكل وضوح وتحديد "أنه قد ظهرت نعمة الله المخلّصة لجميع الناس" (تيطس 2: 11). ويقول يوحنا في سفر الرؤية بلسان المسيح المقام من الموت "الروح والعروس يقولان تعال، ومن يسمع فليقل تعال، ومن يعطش فليأتي ومن يرُد فليأخذ ماء حياة مجاناً" (رؤيا 22 : 17). يظهر أنه من المستحيل فهم إنجيل يسوع المسيح بأية طريقة أخرى غير هذه. الخلاص مقدّم لجميع الناس، وجميع الناس مدعوون لقبول هذا الخلاص.

هناك، علاوة على ما تقدّم، المزيد من الأدلّة على أن الله بالفعل يريد الخلاص لجميع الناس، وإنه لا يُسَرّ بهلاك من يهلك. يقول حزقيال إن الله قال له : "قل لهم: حيّ أنا يقول السيد الرب، إني لا أُسَرّ بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه فيحيا"(حزقيال 33 : 11). يفسّر بطرس تأخّر انتهاء العالم ومجيء المسيح ثانيةً على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أنه ليس تباطؤاً من الله عن وعده بل هو بالأحرى دليل على رغبة الله في أن جميع الناس يخلصون. يقول بطرس: "لا يتباطأ الرب عن وعده، كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنى علينا وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة" (2 بطرس 3 : 9). إن الكتاب المقدس، باستمرار، يصوّر لنا الله ساعياً لخلاص الناس ولا يصوّره ساعياً للحكم على الإنسان وإهلاكه. إن كنا نبغي الإجابة عن السؤال "لماذا يهلك الإنسان؟" على أن يكون ذلك متّفقاً مع تعاليم العهد الجديد، فالإجابة هي أن سبب هلاك الإنسان هو عصيانه وتمرّده وليس أن الله يريد له الهلاك.

يبيّن العهد الجديد أن دينونة الإنسان عالمياً تعود إلى أن هذا الإنسان يسيء الاختيار عندما يواجه بحقيقة الله، سواء وجد تلك الحقيقة في ضميره أو في الطبيعة أو في الشريعة أو في الإنجيل . إن البحث المستفيض في موضوع خطية الإنسان في العهد الجديد هو في رسالة بولس إلى رومية من 1 : 18 إلى 3 : 19. ويفتتح بولس بحثه هذا بالقول بأن "غضب" الله معلن (رومية 1 : 18). ويقول أيضاً إن هذا الغضب هو على الجميع، يهوداً أم أمماً. أما سبب افتقاد الله العالم بهذا الغضب فهو لأنهم "يحجزون الحق بالإثم" (رومية 1: 18). هل يستطيع إنسان أن يقف أمام الله مبرّراً في عصيانه؟ الجواب: لا. أما السبب فهو أن جميع الناس قد واجهوا حقيقة الله بشكل أو بآخر. فإن الأمم واجهوا الله في الطبيعة. ويعتقد بولس أن العالم الطبيعي كافٍ ليعلن الله للناس حتى أنهم يستطيعون بذلك أن يروا "قدرته السرمدية ولاهوته" (رومية 1: 20). لكن العالم الوثني، على الرغم من معرفته الله، لم يمجّده كإله، بل صنع لنفسه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تماثيل وراح يسجد لها ويعبدها عوضاً عن الله. لذلك فالوثنيون الذين يعبدون التماثيل على الرغم من انتشار النور الروحي هم "بلا عذر" (رومية 1: 20). ويمكن أن يقال هذا الشيء ذاته عن اليهود. عن ما لدى هؤلاء من نور يختلف عما لدى الوثنيين، لكن المبدأ واحد. كان لليهودي امتياز على الأممي في أنه "استؤمن على أقوال الله" (رومية 3: 2). لكنه فعل كما فعل الأممي عندما رفض نور كلمة الله وعصى وتمرّد على الله. لذلك فهو كالأممي واقع تحت دينونة الله، وليس له عذر.

نجد هذا المبدأ ذاته قائماً عندما ننظر إلى إنجيل يسوع المسيح، وإنما ذنب المذنب أصبح أعظم من ذي قبل. "الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحبّ الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة" (يوحنا 3: 18، 19). أعلن يسوع أن إحدى نتائج وجوده في العالم ستكون "الدينونة". وعندما سأله الفريسيون ألعلّنا نحن أيضاً عميان؟" أجابهم "لو كنتم عمياناً لما كانت لكم الخطية. لكن الآن تقولون أننا نبصر فخطيتكم باقية" (يوحنا 9: 39- 41).

يظهر، إذن، أن جميع الناس يواجهون الله ويلتقونه في الحياة بشكل ما. إن لديهم بعض النور الروحي. يغتمّ كثير من الناس بسبب ظنّهم أن الله قد يدين الناس ويلقي بهم في عقاب أبدي دون أن تتاح لهم أية فرصة ليعرفوا الله. إن لجميع الناس، باعتقاد العهد الجديد، وسائل ووسائط يعرفون الله بها. لديهم نور، وهم مسؤولون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عن كيفية تصرّفهم في ذلك النور. إنهم يدانون على عصيانهم الله وتمرّدهم على نوره. لا يعني هذا أن جميع الناس العائشين في الخطية حاصلون على النور الكافي الذي يمكّنهم من أن يخلصوا، بل يعني أن لجميع الناس النور الذي يكفي لجعلهم بلا عذر في خطيتهم ولوضعهم بعدل تحت دينونة الله. وأنهم يهلكون، لا لأنهم يجهلون الله بل لأنهم رفضوا النور. صحيح أن على الناس مقادير مختلفة من الذنب، وكلما ازداد النور الذي لدى الإنسان كلما كانت خطيته أعظم إذا رفضها. لكن القضية التي نحن بصددها الآن هي لكل إنسان نوراً وأنه مسؤول تجاه الله بقدر ذلك النور. فالبعض يرى وجه الله في الطبيعة، والبعض الآخر يراه في الضمير البشري، أو في الشريعة اليهودية أو في الإنجيل المسيحي – لا يهمّ اختلاف الأسلوب الذي يرى الإنسان فيه الله. جميع البشر هالكون، وجميعهم تحت الحكم، وجميعهم أخطأوا. كلهم ملومون على حالتهم الروحية ولا عذر لهم. إن سبب هلاك الإنسان هو الإنسان نفسه لا سواه.

كان من الممكن التوقّف عند هذا الحد، لكننا نصرّ على أن الله يقوم بتنفيذ قصد خلاصي وخطة فدائية في العالم. لكن، عندما نقول أن الله كليّ القدرة، ويُسَرّ بالخلاص، ويسعى ليخلّص جميع الناس نواجه مشكلة فكرية صعبة. فنسأل: لماذا، إذن، لا يخلّص جميع الناس؟ إن كان الله قادراً على كل شيء وراغباً في خلاص جميع الناس، فلماذا لا يخلّصهم جميعاً؟ يبدو أننا في حاجة لأن نجد جواباً عن هذا السؤال كي نتمكّن من المحافظة على إيماننا بجودة الله السائدة. إن القول بأن وجود الشر في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

العالم هو الجواب لا يمكن أن يكفينا. لا نستطيع بحال أن نقول أن هلاك البشر بشكل أبدي نهائي يمكن أن يسهم في خير البشر. إنه لا بد من التوصّل إلى الحق وإلا يعسر علينا أن نحافظ على إيماننا.

لقد أُعطي بشكل عام جوابان أو حلاّن لهذه المشكلة. إن أحد هذين الجوابين هو هذا الذي يظن الناس، خطأً، أنه يرتبط بالاعتقاد بالاختيار الإلهي المُسبق للخلاص. إنه الجواب الذي يقول بما يسمى"الاختيار المزدوج." يقول أصحاب هذا الجواب إن الله، بموجب اختيار سيادته المطلقة، عيّن إن بعض الناس يخلصون والبعض الآخر يهلكون هلاكاً أبدياً. أن العامل المتسبّب في خلاص المفديّين وإدانة الهالكين، حسب هذا الجواب، هو اختيار الله حسب قصده وسيادته. لا يمكن أن يكون هذا جوابنا إن كنا نؤمن أن التعليم الذي سبق البحث فيه هو من صميم تعليم العهد الجديد. أن ذلك الجواب يجعل الله مسؤولاً عن هلاك الإنسان. لأنه، إن كان الله يقدر أن يخلّص جميع الناس ولكنه يُحجم عن ذلك، فكيف يكون الإنسان مذنباً إذا هو هلك؟ صحيح أن قسوة هذا الموقف تخفّ كثيراً بالقول أن لدى الله أسباباً تجعله يختار الهلاك لبعض الناس- أسباباً تخفى علينا- لكن ذلك لا يكفي لإزالة ما نراه متناقضاً في الفكرة الكتابية المتعلقة بمحبة الله الفادية. أن هذا الموقف، الذي نعتقد أنه مغلوط، مؤسّس على ثلاثة أخطاء أساسية هي: الخطأ في تفسير الكتاب المقدس، والخطأ في تطبيق المنطق، وعدم فهم الطبيعة الصحيحة لعلاقة الله بالناس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أولاً، إن هذه الفكرة القائلة بأن الله يعيّن أناساً للهلاك قد بنيت على التفسير المغلوط لبعض المقاطع في العهد الجديد. ربما كان المقطع الرئيسي الذي يتّخذه البعض دعامة لعقيدة "الاختيار المزدوج" هو رومية 9: 6 -24. في هذا المقطع ترد آيات مثل: "فإذن، هو يرحم من يشاء ويقسّي من يشاء " (9: 18)، "أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان؟" (9: 21)، "أنية غضب مهيّأة للهلاك" (9: 22). حسب الظاهر، تعلّم عبارات كهذه أن مصائر جميع الناس قد سبق فتقرّرت بأمر إلهيّ، وإن الله يتعامل مع الناس كما لو كانوا كتلاً من الطين يصنع بهم ما يريد ويختار. لكن، إذا فحصنا هذا المقطع في ضوء قرينته في الفصل الذي ورد فيه، لا نجد أن له هذا المعنى. إن استخدام الآية من رسالة رومية، لإثبات العقيدة القائلة بأن البعض مختارون للهلاك، لهو مثال لخطر اتخاذ آية من الآيات حجة دون الرجوع إلى قرينتها (1). إن هذا المقطع، كما سبق أن ذكرنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، يعالج قصد الله التاريخي. الاختيار السابق الذي تتكلم عنه الآية هو اختيار لدور في التاريخ. وعلاوة على هذا تصبح الآية ألطف معنى إذا اعتبرنا الإصحاحات التي تجيء بعدها. فإن الإصحاحات 9 و10 و11 من الرسالة إلى رومية تشكّل وحدة فكرية. يريد بولس في الإصحاح 9 من الرسالة أن يبيّن بشكل عام أنه ليس لإسرائيل كشعب أي حق يطالب الله به، وأن الله سيّد التاريخ ويستخدم أدوات مختلفة ليتمّم إرادته بها ثم يلقي بها ويطرحها جانباً. إن النقطة المركزية في الإصحاح هي أن كون الإنسان من نسل إبراهيم حسب الجسد لا يخوّله حق المطالبة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بنعمة الله. نرى هذا موضحاً لنا في تدخّل الله بسيادته واختياره اسحق ويعقوب كأداتين لإتمام الوعد المعطى لإبراهيم. عندما يختار الله فهو يمارس حقه في أن يفعل ما يشاء وليس لإنسان أي حق في الاعتراض على ما يقرّره الله ويختاره (الآيات 19و20).

مع كل هذا يشير بولس في رومية 10 إلى أن الله لم يعامل إسرائيل بتقلّب أو بطغيان. سعى الله عبر العصور ليجعل بني إسرائيل يخضعون له، لكنهم عصوا ورفضوا نعمة الله المعروضة عليهم. إذن، فالسبب الحقيقي لرفض الله لإسرائيل هو عصيانهم وليس لأن الله اختار أن يرفضهم. أما رومية 11 فيجيء بعد ذلك ملطّفاً للفكرة إذ يبين أن الله لم يعتبر قول إسرائيل "لا" قولاً نهائياً. إنه لا يزال يعمل ليخلّصهم، وسوف يفعل ذلك عن طريق الخلاص الذي في يسوع المسيح. ليس في هذه الإصحاحات من الرسالة إلى أهل رومية ما يؤيد الاعتقاد بان الله فعلاً يقرّر سلفاً هلاك أي إنسان كفرد. بل، على النقيض من ذلك، في هذه الإصحاحات الكثير مما يدلّ على اهتمام الله بخلاص الإنسان وأنه يعمل بكل طريقة ممكنة ليوصل الخلاص إلى جميع الناس.

هناك مقطع آخر استعصى على المفسرين هو مرقس 4: 11- 12 :"فقال لهم قد أعطي لكم أن تعرفوا سرّ ملكوت الله. وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء، لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا ويسمعوا سامعين ولا يفهموا،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لئلا يرجعوا فتُغفر لهم خطاياهم." يقول ظاهر هاتين الآيتين كما لو أن يسوع يقوم بعمله ليضمن هلاك قسم من الناس. إن هاتين الآيتين، وإن كانتا لا تقولان شيئاً عن اختيار الله المسبق لهلاك بعض الناس، لكنهما، إذا أخذتا بمعناهما الحرفي، تثيران الشك في رغبة الله في خلاص جميع الناس. الحقيقة هي أنه يجب ربط هذا المقطع من الإنجيل بقرينته، سواء في قصة خدمة يسوع أم في العهد القديم. من الضروري، أولاً، أن ندرك أن القصد الأساسي من تعليم يسوع أمران مختلفان: دينونة للبعض، وفهم وإدراك للبعض الآخر. إن المقطع الذي يستشهد يسوع به هنا مأخوذ من أشعياء 6: 9- 10 ومصوغ في شكل أمر من الله إلى الشعب. من أساليب التعبير في اللغات الساميّة استخدام "صيغة الأمر" بينما يكون المقصود "إعلان نتيجة" (2). إن هذا المقطع، في الحقيقة، يعني أن تعليم يسوع الذي عرّف التلاميذ بحقيقة ملكوت الله وحكمه هو نفسه يؤدّي بغير المؤمنين إلى العمى الروحي. إن هذه النتيجة في غير المؤمنين هي عمل قضائي من جانب الله لكنها ليست في ذاتها ما يقصده الله من التعليم – إذ أن قصد الله هو في أن يسمع المؤمن التعليم ويفهمه.

ليس هذا، في الواقع، إلاّ مثلاً آخر على حقيقة ضياع الإنسان كنتيجة لرفضه النور. إن كل رفض من جانب الإنسان إنما يزيد في انحراف النفس، حتى إن من هو أعمى وفي ظلام بسبب خطيته يمسي في ظلام أشد. إن كل كارز بالإنجيل يعرف هذه الحقيقة الخطيرة. عندما يلقي أحدنا عظته على الجمهور يأمل أن بعضاً من سامعيه يستنير ويتبارك من سماعة البشارة. لكنه يعلم أيضاً أن البعض الآخر سيسمع ويرفض،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ونتيجة لذلك الرفض يتحوّل ما قصد به خير وينتج منه الخير فيصبح مصدراً للدينونة في حياة أولئك الرافضين. كان يسوع يعرف صدق هذه الحقيقة فيما يختص بتعاليمه. إن هذا المقطع المأخوذ من إنجيل مرقس له المعنى ذاته والأهمية ذاتها اللذان لغيره من مقاطع العهد الجديد التي تتحدث عن الله وإخفائه الحق وتقسيته قلوب الناس. بحسب النظام الأدبي للكون يتوجّب على البشر، إذا واجهوا الله، أن ينصاعوا له ويستجيبوا دعوته. أما إذا كان ردّهم على دعوته هو العصيان والتمرّد فإنهم يهلكون، إذ أن النور الذي وجد لإنارتهم يمسي أداة لدينونتهم. لكنّ سبب دينونتهم، في النهاية، ليس النور بل رفضهم للنور. وهكذا، فالإنسان مسؤول عن وقوعه تحت الدينونة. لا بدّ لنا من قبول هذه الحقيقة إن كنا نؤمن بتعاليم العهد الجديد.

ثانياً، هناك خطأ في تطبيق المنطق لدى أولئك المتمسكين بعقيدة "الاختيار المزدوج، " الذين يستندون في عقيدتهم تلك إلى المنطق. لا بدّ من القول أنه من غير الممكن أن يكون المنطق أساساً للعقيدة المسيحية. في هذا خطر جسيم، وهو أن المنطقي الذي يبدأ بداية صحيحة قد يصل آخر الأمر إلى استنتاج مغلوط. بكلمة أخرى، إن عقل الإنسان محدود وعرضة للخطأ. لا، لا يمكن الاعتماد على المنطق. إن المؤمن المسيحي ليصرّ على أن تكون كل العقائد مؤسسة على إعلان الله، أي أن تجيء كلها من الكتاب المقدس. في هذه الحال وحدها يجد المؤمن المسيحي ما يبرّر المغامرة بالحياة بناء على الثقة بصدق العقيدة. على كل حال، لا ضرر من فحص الناحية المنطقية لأي موقف لكي نرى إن كان ذلك الموقف هو حقاً منطقي أم لا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يبدأ الجدل حول الاختيار المزدوج بتلك الحقيقة المتعلقة بالاختيار للخلاص. هذه البداية صحيحة إذ أنها تأتي من الأسفار المقدسة الموحى بها، كما سنرى في الفصل التالي. من نقطة البداية هذه يقول أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان الخلاص يجيء نتيجة لاختيار الله فالدينونة، إذن، لا بدّ لها من أن تجيء من المصدر ذاته. والواقع إن هذا الحوار مبنيّ على الاعتقاد بأن نقيض ما هو حقيقي لا بدّ من أن يكون حقيقياً أيضاً. قد يصدق أحياناً، ولكنه في الغالب لا يصدق. مثال على ذلك: الرجل المريض، إذا رفض تناول الدواء الذي له فيه الشفاء فإنه يُعدّ غبياً، لكن ذلك لا يعني إنه إذا تناول الدواء عدّ ذكياً وعبقرياً. الوالد الذي يسعى لتعليم أولاده في الجامعة يحسب أباً محبّاً لأولاده، لكن هذا لا يعني إن من لا يعلّم أولاده في الجامعة يبغض أولاده ويكرههم. الحاكم في أي بلد ينشئ المدارس لأنه يريد لأهل بلده العلم والتقدّم، لكنه إذا بنى سجناً فذلك ليس لأنه يريد أن يصير الناس مجرمين. عندما نقول أن الله يخلّص الناس لأنه يحبهم ويعمل عن قصد لكي يأتي بهم إلى الخلاص فقولنا هذا ليس من الحق في شيء. إن فكرة كهذه مبنية على المنطق، وهو منطق زائف لا يحظى بتأييد الكتاب المقدس.

ثالثاً، هناك سبب، قد يكون رئيسياً، لرواج عقيدة الاختيار المُزدَوِج في بعض الأوساط، وهو عائد لعدم فهم طبيعة علاقة الله بالناس. يشهد العهد الجديد بشكل عام بأن هذه العلاقة شخصيّة وليست ميكانيكية ولا نصف شخصية. حالما يدرك الإنسان هذه الحقيقة تتغيّر لديه صورة محبة الله الفادية وكيفية عمله. مثال ذلك إن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

علاقة الإنسان بأولاده تختلف كثيراً عن علاقته بسيارته. إن علاقته بسيارته علاقة آلية محضة. فهو يستطيع أن يتصرّف بسيارته كما يريد إن استطاع ذلك، والآلة تطيعه لأن لا خيار لها وليست لها إرادة في ذاتها. الإنسان في هذه الحال هو الذي يختار ويقرر ماذا يفعل، وينفّذ بالسيارة ما يريده. لكن هذا الإنسان لا يتصرّف مع أولاده بهذا الأسلوب. يشعر الأب أن ابنه شخص، ويستطيع أن يختار، وإن ما يمكن عمله بالقوة محدود. يجد الإنسان أن الولد يحتاج إلى أن يتعلّم وأن يبذل الجهد في إقناعه وتوجيهه وتدريبه وتربيته لينمو ضمن حدود شخصيّته. في التعامل مع الطفل، المحبة أعمق أثراً من القوة، والإقناع أقوى من القصاص. ربّما تستخدم القوة في التعامل مع الأشخاص وتستخدم القصاص، لكنّ لذلك حدوداً لا يمكن تجاوزها. قد ينجح الوالدان في إرغام ولدهما على تكنيس الأرض، ولكن لا يستطيعان إرغامه على احترامهما.

هذا تماماً ما يجري بالنسبة لله وعلاقته بالإنسان. إن الإنسان شخص خلقه الله ومنحه مقوّمات خاصة تجعله شخصاً مميّزاً، والله أيضاً شخص ، والعلاقة التي يسعى لتوطيدها بينه وبين الإنسان علاقة شخصية. إن الله، بناء على ما يرشدنا إليه العهد الجديد، يعمل على جعل الناس يسلّمون حياتهم له ويحبونه ويتبعونه لكي يباركهم بالشركة معه. لا يسعى الله ليقيم علاقة قسرية بالإنسان، فهو يعرف أن القوة المجرّدة لا تأثير لها في هذه العلاقة. إن الحاجة هي لتعليم الإنسان، وإقناعه، وتدريبه، واجتذابه، وتنميته في اتجاه قصد الله في ما يختص بذلك الإنسان. يرغب الله بفضل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

محبته أن يفعل كل هذا لإنسان، لكنه لا يفعله لإنسان هو غير راغب في الحصول على العون والمساعدة.

يتبيّن هنا الخطأ في العقيدة المسماة عقيدة "النعمة التي لا تقاوم." قد يسأل البعض عن المقصود بهذه العبارة. إنها توحي للعلماني أو للشخص العادي بالفكرة بأن الله يستطيع أن يفعل بأي إنسان كل ما يريد، ولا حول لذلك الإنسان ولا طول على مقاومة نعمة الله، وهكذا لا يستطيع أن يُحبط إنجاز قصد الله. إن كان هذا هو المقصود بالنعمة التي لا تُقاوم فهذا لا ينطبق بحق على اختيار الخلاص. إن كان الله يخلق الإنسان فيعطيه القدرة على قبول الخلاص، فإن ذلك يوجب أن يعطيه أيضاً القدرة على رفض الخلاص. إننا عندما نفترض أن الإنسان يرغم على اتخاذ قرار ضد رغبته فإننا بذلك نسلب هذا الإنسان إنسانيته. إن القدرة على الاختيار اختياراً حرّاً تفترض أن يكون للإنسان أيضاً حرية اختيار ما هو معاكس لإرادة الله. إن هذا لأمر ضروري لا مفر منه. إذا كان الإنسان مُجبراً على الدخول في أية شركة فتلك لن تكون شركة بل عبودية. ليس من سبيل لإرغام الإنسان على حب الله لأن الحب لا يكون بالإرغام.

إن الإجابة الصحيحة عن السؤال المطروح أمامنا هو أن الله "لا يستطيع" أن يخلّص كل إنسان، من أجل هذا هو لا يخلّص كل إنسان. إنه يريد ويرغب في أن يفدي كل إنسان، لكنه لا يستطيع أن يخلّص من يرفض أن يَخلُص. قد يقول البعض

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن هذا القول يجعل قوة الله محدودة. هذا صحيح، ولكن هذه المحدودية لا تتناول ذات الله بل تتناول القوة فقط. القوة ليست الحقيقة النهائية في عالم شخصي. قوة الله غير محدودة، لكن، للقوة ذاتها حدودها. إن الذي نقوله هو أن العمل الذي يقوم بـــه الله محدود، إذ أن هناك أشياء لا يستطيع أن يفعلها. يتفق هذا مع ما يعلّم به الكتـــاب المقدس. مثلاً، جاء في رسالة العبرانيين أن الله لا يستطيع أن يكذب (عـــبرانيين 6: 18). إن ما يجعل الله غير قادر على الكذب ليس أنه لا قوة له على ذلك بل لأنه الله. إن مجال العمل الذي يقوم به أي إنسان مجال محدود. وما ينطبق على الإنسان في هذا الأمر ينطبق أيضاً على الله. في أمر الخلاص، الله محدود بطبيعة الأشياء التي يريـــد أن يعملها. عندما تقول إن حالة الخلاص هي التي يكون فيها الإنسان في شركة حـــرة وطوعية مع الله، فإنك بهذا التعريف تحدّد عمل الله وتقيّده. إن تحقيق شركة كهـــذه يتطلب ممارسة وسائط ووسائل غير استخدام القوة.

إن القول بأن الله لا يستطيع أن يخلّص جميع الناس يتضمّن فكرتين تؤلفان معاً فكرة الكتاب المقدس كطاقين في حبل واحد. الطاق الأول هو القول، الذي يتـــردّد كثيراً بين الناس، بأن الله يريد الخلاص لجميع الناس. أما الطاق الثاني فهو القـــول، المؤيّد من الكتاب المقدس، بأن بعض الناس لن يخلصوا. لكن، يستحيل القول بأن الله يريد خلاص كل إنسان ومع ذلك فالبعض لا يخلصون إن كنت تفترض أن لله القوة ليخلّص جميع الناس. لا بد من الاستنتاج، بناء على هذا، إن السبب في أن البعض لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يخلصون هو أن الله، بالنسبة لهؤلاء، لا يستطيع أن يفعل لهم ما يحب أن يفعله. إنه لا يستطيع أن يخلّصهم قسراً وعلى الرغم منهم.

نرى، إذن، إن المسؤولية النهائية عن هلاك الإنسان تقع على هذا الإنسان بسبب تمرّده على الله ورفضه لنعمته. لا يمكن أن يُلام الله، بأي حال، على وقوع اللعنة والدينونة على الإنسان الذي يهلك نهائياً. إن هذا تصريح أساسي يقول به الكتاب المقدس مثلما هو الاستنتاج الضروري للفكر المنطقي. صحيح أن الله خلق هذا العالم الذي نعيش فيه كما هو في الواقع وخلقنا كما نحن. قام بالخلق وهو يعلم إن النتيجة النهائية ستكون إن بعض الناس يهلكون. ليس ذلك فقط بل هو أيضاً ينفّذ الدينونة في الإنسان الذي يظل مستمراً في خطيته. قد نقول إن الله، حتى هذا الحد، مسؤول إلى أبعد المدى عن هلاك الإنسان. فلو إنه لم يخلق أحداً لما كانت ضرورة لهلاك أحد. لكن هذا يعني أيضاً أنه إذا لم يخلق الله أحداً لا يكون خلاص لأحد.

وهكذا، على الرغم من التأكيد بأن الإنسان نفسه مسؤول عن هلاكه إذا هلك، يظل هناك بعض من الاضطراب في تفكيرنا في هذا الموضوع، ونظل في حيرة من أمرنا أمام لغز يصعب علينا حلّه. ربما يزول من نفوسنا هذا الاضطراب الناشئ عن مواجهتنا لحقائق علاقة الله بالناس الذين يهلكون، لكن اللغز يظل لغزاً وتصعب إزالته كلياً. إننا نحتاج، أولاً، أن نذكر أن الله يريد الخير ويعمل على إيجاده بقوته الخلاّقة. ويجب ألا نسمح لأنفسنا بالانسياق في خطأ الظن بأن الله يريد الشر، والمعاناة، والألم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لأحد. يجب أن نذكر أن الوصف الذي يصف به الكتاب المقدس كلاً من جهنم والعقاب الأبدي وصف تصويريّ يُقصد به التعبير بلُغةٍ بشرية عن فظاعة الحياة بدون الله. ليس الله كائناً مخيفاً يحب إيقاع الأذى والألم بالمخلوقات العاصية ويلتذ بصبّ غضبه عليها. الله إله محبّ ويرغب في خلاص العاصي، ولكن رغبته تلك مُعاقة بسبب استمرار العاصي في انحرافه عن جادة الصواب. علينا أن نفكّر بجهنم على أساس أنها المكان الذي إليه يسمح الله بذهاب العاصين لكي يواصلوا إلى المنتهى ذلك النوع من الحياة الذي اختاروه لأنفسهم – أي الحياة بدون الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الحادي عشر

الخلاص هو بالاختيار

يتركز تعليم الكتاب المقدس عن الفداء في الفكرة القائلة بأن الناس يخلصون لأن الله اختار أن يخلّصهم فقام بتحرّكات في حياتهم أدّت إلى خلاصهم. الهلاك هو من الناس، أما الخلاص فمن الرب. ولا يكتفي العهد الجديد بالقول إن اختبار الخلاص الذي يختبره الإنسان تاريخياً يجيء نتيجة لعمل قوة الله الفعّال في الحياة البشرية، بل يقول أيضاً إن الله يعمل في حياة الفرد بموجب قصد أزلي كان قد قصده في نفسه. إن هذه الفكرة تحتاج للدفاع عنها أمام التفكير العصري. إن التفكير العصري يسلّم بأن لله قصداً خلاصياً في التاريخ ولكنه لا يقبل بفكرة اختيار الله للإنسان الفرد للخلاص. لكننا سنرى أن الاختيار هو من التعاليم العامة في العهد الجديد، وإن هذا الاختيار هو للفرد، لا للجماعة، وإنه من الأزل وإلى الأبد، وإنه اختيار "غير مشروط."

بالنسبة للتلاميذ الأولين كانت مسألة الاختيار حقيقة إلى حدّ أن من أشهر الألقاب التي دعي المسيحيون بها كان لقب "المختارين." لقد درجت هذه التسمية، واستعملها يسوع وتلاميذه، حتى إننا نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأنها كانت تسمية دارجة ومقبولة، ولم يكن المسيحيون الأولون في حاجة لمن يفسّرها لهم. إننا نقتبس آيات من العهد الجديد كأمثلة كافية لتبرهن على هذه الحقيقة: "أفلا ينصِف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً؟" (لوقا 18: 7)، "من يشتكي على مختاري

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الله؟" (رومية 8: 33)، "فالبسوا كمختاري الله..." (كولوسي 3: 12)، "لكن لأجل المختارين الذين اختارهم قصّر الأيام" (مرقس 13: 20، وقارن متى 24: 22) (1). لدى تحليل جميع المقاطع حيث ترد كلمة "مختارين" نجد أنها مستخدمة ستة عشر مرة على الأقل وتعني في كل مرة إتباع المسيح كأفراد. إلا أنه في ثلاث من تلك المرات ربما قصد بالكلمة الكنيسة (قارن 1بطرس 2: 9 و2يوحنا 1، 13)، مع إنه من المرجّح إن الكلمتين في رسالة يوحنا الثانية تشيران إلى امرأة مسيحية. ترد ثلاث كلمات منها في إنجيل متى، وهي إعادة لما جاء في إنجيل مرقس، ولكن حتى هذه الإعادة لدليل هامّ يؤكّد صحّة معنى الكلمة. وينفرد متى في تأييد استعمال كلمة "مختارين" وذلك بإيراده مثلاً قاله يسوع وهو "لأن كثيرين يدعون وقليلين يُنتخبون (يُختارون)" (متى 22: 14).

يجب ألا نقلل من أهمية استخدام هذه الاصطلاحات التي تصف أتباع المسيح الحقيقيين. إذا بحثنا عن عدد المرات التي استخدم فيها كل من الكلمات التي تدور حول هذا المعنى نجد أن كلمة مختارين تجيء في المرتبة الثالثة بعد الكلمتين "تلاميذ" و"قدّيسين". إن استعمال الكلمة بهذه الكثرة في العهد الجديد، مضافاً إليها العلاقات بالقرينة التي تؤيد المعنى بأكثر وضوح وقوة، يبيّن أن المسيحيين الأولين بشكل عام كانوا يعتبرون الاختيار موازياً للخلاص، أي أن المخلّصين هم أنفسهم المختارون. عندما نلاحظ، إن "الاختيار" هو التعليم الموجود في كل طاق في حبل فكر العهد الجديد، ندرك أن هذه كانت الفكرة العامة وليست أمراً انفرد به أحد كتّاب العهد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجديد. ظن كثيرون أن عقيدة الاختيار هو التعليم الخاص بالرسول بولس، لكن الأدلّة تؤكد خطأ هذا الظن. قد نقول أن بولس يذكر هذه القضية أكثر مما يذكرها سواه، (وهذا ينطبق على كثير غيرها أيضاً، لأن التي لدينا أكثر من كتابات غيره من الرسل)، لكن كتّاب أسفار العهد الجديد الآخرين يؤيدون ما يقوله بولس.

تدلّ الأناجيل الثلاثة الأولى على أن فكرة "الاختيار" كانت حقيقة أساسية في تعاليم يسوع. إن كثيراً من الآيات التي ترد فيها كلمة "مختارين" أو "ينتخبون" هي من أقوال يسوع (قارن متى 22: 14 و24: 22، 24، 31 ومرقس 13: 20، 22، 27 ولوقا 18: 7). وإن للآية في مرقس 13: 20 أهمية خاصة إذ استعمل الفعل بالإضافة إلى الاسم. تقول الآية إن الرب سيقصّر أيام الضيق من أجل "المختارين الذين اختارهم." إن صيغة هذا الفعل، كما هو في الأصل اليوناني، تتفق مع الاستعمال العام في العهد الجديد عند الكلام عن اختيار الله– إنها صيغة "الاوريست" وحالة "المُشتَرك". إن صيغة الاوريست اليونانية هنا تدلّ على أن الاختيار جرى في الماضي بل ربما قبل النبوة نفسها. أمّا حالة "المُشتَرك" للفعل فتشدد على الفاعل الذي اختار لا على الأشخاص الذين اختارهم، فيكون المعنى "إن الله سبق فاختارهم، واختارهم لنفسه." ثم، من بين أقوال يسوع في الأناجيل الثلاثة الأولى آياتان هامّتان أخريان تُظهران قوة فكرة الاختيار في فكر يسوع. أولاً، يقول يسوع في إجابته عن سؤال يعقوب ويوحنا: "أما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعدّ لهم" (مرقس 10: 40). إن الفعل "أعدّ" اليوناني هو الماضي التام ويدلّ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على أن الأعداد سبق العمل أي الجلوس عن يمين المسيح ويساره. ويقول يسوع في عبارة الدينونة "ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم" (متى 25: 34). إنه لواضح كل الوضوح إن الله يقوم بالإعداد بناء على قصده الأزلي الذي كان سيتحقّق في المستقبل.

أما في كتابات يوحنا فنجد كلمة "مختارة" أو "محتارين" في ثلاثة مواضع – رسالة يوحنا الثانية الآيتان 1 و13، ورؤيا 17: 14. صحيح أن مسألة الاختيار ليست بارزة في هذا النطاق من حبل فكر العهد الجديد قدر بروزها في فكر بولس والأناجيل الثلاثة الأولى، ومع ذلك فهي موجودة. جاء في إنجيل يوحنا قول يسوع "لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني" (يوحنا 6: 44). وهو يدل بوضوح على أن لقصد الله الأولويّة في خلاص الإنسان. أما قول يسوع: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم" (يوحنا 15: 16) فيشير إلى ذلك الحادث التاريخي، حادث دعوة يسوع الإثني عشر ليكونوا رسلاً (قارن مرقس 3: 13-19). وإذ كان لوقا قد ذكر في إنجيله أن يسوع قضى الليل كله في الصلاة قبل قيامه بهذا العمل الهامّ فإننا لا نستطيع استبعاد فكرة قصد الله السابق في الاختيار. وفي سفر الرؤيا مقطعان هامّان يتكلمان عن هذا الموضوع وهما رؤيا 13: 8 و17: 8 (2). يبحث هذان المقطعان في أمر غير المخلّصين الذين ليست أسماؤهم مكتوبة سفر الحياة منذ تأسيس العالم" (17: 8). إن هذا، بالنسبة لكاتب السفر، بمثابة القول بأن المخلّصين هم فقط أولئك الذين كُتبت أسماؤهم في سفر الحياة منذ تأسيس العالم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما سفر الأعمال الرسل ففيه عبارة واحدة (13: 48) تبحث مباشـــرة في فكرة الاختيار، وهي عبارة في غاية الأهمية. تقول الآية: "فلما سمع الأمم ذلك كانوا يفرحون ويمجّدون كلمة الرب، وآمن جميع الذين كانوا معيّنين للحياة الأبديّة." إن عبارة "كانوا معيّنين" في صيغتها اليونانية كان من الأصح ترجمتها "كانوا قد تعيّنوا." إن صيغتها هي أقوى صيغة ممكنة في اللغة لتدل على أن التعيين سبق الإيمان.

لا نجد ضرورة للمزيد من القول إن الاختيار هو من عقائد بولس الرئيسية، إذ إن هذا أمر مسلّم به ومقبول عالمياً. إن بولس لا يكتفي باستخدام كلمة "مختارين" هنا وهناك في رسائله ولكنه يبحث في هذه العقيدة في مقاطع هامّة كثيرة وعلى نحو مباشر. من أقوال بولس إن الله "باركنا بكل بركة روحية في السمويات في المســـيح كما اختارنا فيه قبـــل تأســـيس العـــالم" (أفســـس 1: 3، 4). وإن الله خلّصـــنا ودعانا..."بمقتضى القصد والنعمة" (2تيموثاوس 1: 9). وإننا نلنا نصيباً في ميراث ملكوت المسيح "معيّنين سابقاً حسب قصد الذي يعمل كل شـــيء حســـب رأي مشيئته" (أفسس 1: 11). و"الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم" (رومية 8: 29). "عالمين أيها الأخوة المحبوبون من الله اختياركم" (1تسالونيكي 1: 4). "الله اختاركم من البدء للخلاص" (2تسالونيكي 2: 13).

هناك موضع واحد في العهد الجديد حيث يبدو وكأن تفكير بولس يختلـــف عن تفكير يسوع، لكننا إذا فحصنا الآيات نكتشف أن الاختلاف هو مجرّد اختلاف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في الكلمات المستخدمة وليس في الفكر. يعتبر بولس المدعوّين والمختارين اسمين لمسمّى واحد، أما يسوع فقد قال: "لأن كثيرين يُدعَون وقليلين يُنتخَبون (باليونانية: يُختارون)" (متى 22: 4). يظهر أن يسوع هنا يستخدم كلمة "يُدعون" بمعناها العام فتعني أولئك الذين تبلغهم الدعوة للاشتراك في امتيازات الخلاص. إن جميع البشر، من هذه الناحية، مدعوون. لكن بولس يستخدم هذا الاصطلاح ويقصد به دعوة الله التي تنجح في جعل الناس يصمّمون على قبول المسيح، ومن هذه الناحية المخلّصون وحدهم مدعوون. ويمكن القول أن يسوع وبولس، كليهما، اعتقدا أن المخلّصين هم المختارون (أو المنتخبون). كان كلاهما يربط بين خلاص الناس واختيار الله لهؤلاء الناس.

والعجيب أن يعقوب على الرغم من الاختصار والقصد الخاص في رسالته، يقول إن الخلاص نتيجة للاختيار. نراه يذكّر قرّاء رسالته بأن "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة" (يعقوب 1: 17) ويستنتج من ذلك إن الله "شاء فولدنا بكلمة الحق" (يعقوب 1: 18). وعندما يؤنّب الشعب على موقفهم تجاه الفقراء نراه يقول: "أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان؟" (يعقوب 2: 5). لا نستطيع التشديد على أن يعقوب عظّم هذه العقيدة كثيراً، فلو أنه فعل ذلك لكان مستغرباً، وهو إنما يستخدم عقيدة الاختيار في كلا الموضعين من رسالته كأساس يبني عليه وعظه العملي. إن هذا في ذاته ليكشف لنا مدى عمق الاقتناع المسيحي بأن الخلاص يجيء نتيجة لاختيار الله السابق.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبطرس، مثل يعقوب، لا يشدّد كثيراً على هذه العقيدة، ومع ذلك فالاختيار يشكّل جزءاً مميّزاً من اقتناعاته كما يتبين ذلك من رسالتيه. إنه لم يبحث قط في هذه العقيدة، ولكنه يستخدم الكلمات "مختارين، ومختار، ومختارة"، وهو يصف بها، أولاً، الأفراد المسيحيين (1بطرس 1: 1)، وثانياً، الجماعة المسيحية (2بطرس 2: 9 و5: 13). ويستعمل كذلك كلمة "اختياركم" وهو يعظ المسيحيين بالقول "اجتهدوا أيها الأخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين" (2بطرس 1: 10).

أما الرسالة إلى العبرانيين فتمثّل النطاق الكبير الوحيد في حبل فكر العهد الجديد الذي لا يشير مباشرة إلى فكرة الاختيار. إلا إننا نجد حقيقة الاختيار في هذه الرسالة في شكل غير ظاهر وتتضمنها عقيدة التقديس. ينظر كاتب الرسالة إلى مجيء المسيح إلى العالم فيرى فيه ذروة برنامج الفداء الإلهي في العالم، وهو البرنامج الذي يهدف إلى خلاص بني الإنسان أي تقديسهم. ويقول إن كلاً من المقدِّس الذي يقوم بعمل التقديس، أي المسيح، والمقدَّسين الذين هم المؤمنون، جميعهم يأتون من مصدر واحد، الذي هو الله (عبرانيين 2: 11). هذه فكرة أساسية في الرسالة، ويمكننا لذلك أن نخلص إلى القول إن الآراء التي تتضمنها عقيدة الاختيار كانت تشكّل جزءاً من العقائد الأساسية التي كان يعتقدها كاتب هذه الرسالة أيضاً.

لذلك نرى أن عقيدة الاختيار هي تعليم أساسّي في العهد الجديد. ومهما كانت نظرتنا إلى هذه العقيدة فلا بدّ لنا من أخذها بعين الاعتبار إن كنا نودّ فهم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أفكار كتّاب العهد الجديد. كثيراً ما نجد هذه العقيدة معبّراً عنها بطرق مباشـــرة لا التباس فيها، ونجدها أحياناً مستترة ولكن تشكّل كل فكرة الأساس التي تقـــف وراء الفداء والخلاص. إنها جزء مما هو بديهي ومسلّم به في فكر العهد الجديد.

الاختيار فرديّ وليس مجرّد مسألة اجتماعية. يميل علماء العصـــر الحديث إلى محاولة بحث الاختيار بالنسبة لعلاقته بالقصد الإلهي التاريخي فقط، ذلك القصد الذي تجلّى في دراما الفداء الرائعة. يقول هـــ. هـــ. راولي في كتابه الهامّ الذي يبحث في موضوع الاختيار: "من الضروري بادئ ذي بدء القول بوضوح إنه لـــيس من قصدي معالجة المسألة اللاهوتية، مسألة الاختيار السابق للخلاص أو للـــهلاك، للسماء أو لجهنم، فتلك مسألة مختلفة كلياً عن البحث الذي نحن بصدده" (3). إن عبارة راولي هذه مبنية على خطأين خطيرين. الخطأ الأول هو أن هذا المؤلف يظن أن باستطاعته البحث في العقيدة الكتابية، عقيدة الاختيار، مع إغفال البحث في اختيار الفرد للخلاص. والخطأ الثاني هو إنه يظن أن بالإمكان التفريق بين تينك الناحيتين من الاختيار.

أما الكاتب أنطون فريد ريتشون في كتابـــه (The Root of the Vine) فيخالف راولي في هذه القضية بالذات إذ يقول بإصرار: "إن تحفظاً كهذا، علـــى أي حال، غير ممكن إذا أريد للموضوع أن يُبحث بحثاً كاملاً" (4). ويكتـــب فريـــد ريتشون أيضاً بانياً بحثه بشكل رئيسي على قول يسوع "لأن كثيرين يُدعون وقليلين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يُنتخبون" فيقول إن أي بحث كامل لعقيدة الاختيار الكتابية لا بدّ من أن يتضمن البحث في اختيار الفرد أو، ما هو أفضل، البحث في عقيدة التعيين السابق. ويرى هذا الكاتب إنه من غير الممكن إيجاد أي معنى لكلمات يسوع إلا إذا فهمناها على أنها تبحث في خلاص الفرد وصيرورته عضواً في ملكوت الله (5). ويقول أيضاً: "إن رفض الاعتقاد بالتعيين السابق رفضاً تاماً يجعل التعليم الجديد مبهماً محرّفاً" (6). ويبدو أن راولي تسبّب بمثل هذا الإبهام أو، على الأقل، بسوء تفسير الكتاب المقدس. إنه يفسّر تلك الآية المشهورة في رسالة بولس إلى أفسس فيقول بأن الكنيسة هي التي اختارها الله (7). لكن، يبدو من غير الممكن فهم كلمات بولس بهذه الطريقة. يقول بولس: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السموات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدّامه في المحبة، إذ سبق فعيّننا للتبنّي بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته" (أفسس 1: 3- 5).

ولما كتب ج. ب. ستيفنز، إن بولس هنا يعزو ما يعمله الله فعلاً، بمباركته البشر تاريخياً، إلى قصده الأزلي ليس إلا. وما يفعله الله في الخلاص قصد منذ الأزل أن يفعله. وقصده يتضمن ويراعي جميع المبادئ التي هي الأساس الذي عليه يعمل الله عندما يبارك البشر ويخلصهم (8). تحلّ بركات الخلاص على الناس واحداً واحدا بشكل فردي، على الرغم من أن الإنسان ينال تلك البركات وسط علاقات قائمة بينه وبين الآخرين، ولا بدّ لنا من القول أن اختيار الله اختيار فرديّ. إنها لحقيقة ثابتة إن الفرد يقف في الواجهة في بعض أبحاث بولس التي تدور حول الاختيار، وهذا مؤكد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عليه في قول بولس، "لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً في أخوة كثيرين. والذين سبق فعيّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً. والذين دعاهم فهؤلاء برّرهم أيضاً، والذين برّرهم فهؤلاء مجّدهم أيضاً" (رومية 8: 29، 30).

كتب بول أ. ديفيز مقالاً بحث فيه "الفرديّة" في تعاليم يسوع وبيّن الاتفاق الجوهري القائم بين تعاليم يسوع وتعليم بولس في التشديد على مسألة الفرد. ويقول ديفيز إن اهتمام بولس الرئيسي منصرف إلى المؤمن كفرد وكيف يصبح هذا الفرد مؤمناً مسيحياً وكيف يحافظ على حياته المسيحية. ويقول بالحرف: "إن هذه الحياة المسيحية حياة شخصية من بدايتها: لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك إن الله أقامه من الأموات خلصت. وهكذا نجد أن الشرط المركزي للإيمان شخصيّ وفرديّ. فالناس في الواقع يؤمنون واحداً واحدا، ويحصلون على الغفران واحداً واحدا، وعلى هذا النحو الفردي أيضاً يختبرون نعمة الله في كل من التبرير، والمصالحة، والتبنّي. ليس من حركة جماعية في قول بولس (في رومية 8: 14) لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله. **إن عقيدة بولس صعبة، أي عقيدة التعيين السابق، تتركز على الفرد كما هو في قصد الله**" (9). يمكن إيراد الكثير من الآيات التي تبيّن أن عقيدة الاختيار في الكتاب المقدس يجب أن تتضمن بحثاً في اختيار الفرد للخلاص، ولكننا نكتفي بالآيات التي أوردناها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إننا لا ننفي صحة نظرة راولي الخاصة إلى عقيدة الاختيار، وإنما ننفي إمكان استثناء عقيدة اختيار الفرد عند البحث في فكر الكتاب المقدس. صحيح إن قصد الله يتضمن كل ما يجري في تاريخ الفداء ولكن من غير الجائز التفريق بين هذا القصد التاريخي وبين خلاص الفرد واختياره. يمكن الاختيار العام أن يكون ذا أثر بالغ ومعنى وذلك فقط بترابطه مع اختيار الفرد للخلاص وللخدمة. إن راولي نفسه يوافق على هذا إلا أن ما يستهلّ به بحثه غير واضح ويمكن أن يساء فهمه. يقول إن معنى الاختيار يتوقّف على الإيمان، وإن "زمام المبادرة في الفداء هو دائماً في يد الله، وذلك ما يجعل كل إنسان مَفديٍّ يحسّ بأنه إذا هو اختار الله فذلك لأن الله سبق واختاره، وإذا هو أحبّ الله فذلك لأن الله أحبه أولاً، وإن كل حب بشريّ موجّه نحو الله فما هو إلا تجاوب مع ذلك الحب الإلهي".

لا بدّ من الإقرار بأن الاعتقاد باختيار فرديّ لهو أصعب اعتقاد متّصل بدراسة قصد الله، فإنه يضخّم المذمّة التي ينسبها البعض للتخصيص الإلهي. إنّ بول س. ماينير يبحث في "أهمية قصد الله، وسلطان ذلك القصد، واستمراره وأولويته، " ثم يضيف: "قد يكون أسهل على الفكر العصري أن يستوعب هذه النواحي الأربع في قصد الله من أن يستوعب الاستدلال الخامس الذي هو التخصيص في قصد الله. عندما يقوا الله "أنا اخترتك" فإنه يميّزك أنت ويختصّك دون أي شخص آخر سواك. إن القول بأن لله قصداً عاماً يتناول جميع بني الإنسان وكل ما ينتج عن التاريخ لهو قول مبتذل ويتحول بسرعة ليصبح مثل "كليشة" لا معنى لها. أما القول بأن لله قصداً خاصاً فيّ الآن فهو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أمر أعظم ولا يكاد يصدّق". ومع هذا فإن فكرة التخصيص هذه فكرة أساسية في تعليم العهد الجديد. إنها تعليم يجب ألا نهمله إن كنا نريد حقاً أن نفهم قصد الله الكامل.

لا يستطيع المرء أن يرى بوضوح المكانة المركزية التي لعقيدة الاختيار ما لم يدرك إنها العامل الذي يحيط بكل عقيدة هامّة من عقائد الكتاب المقدس. فلا يكفي كونها واردة في تلك الآيات التي تتكلم عنها على نحو مباشر أو غير مباشر، بل نراها مضمّنة بالضرورة في العقائد الأخرى أيضاً. يتكلم أميل برونر عن عقيدة الاختيار فيسميها "قلب الإنجيل" (12). إن فكرة الاختيار هي النتيجة الطبيعية التي لا بدّ منها لفكرة الخلاص بالنعمة. وهذه كانت الحقيقة التي أثّرت في كلفين، المصلح المعروف، فجعلته يكتب صيغة العقيدة المسيحية. لقد فكّر كلفين، وكان على حق، إنّه لا بدّ أن يكون الله صاحب السيادة في منحه النعمة، فإنه ينتخب الناس للخلاص بإرادته وسيادته، وإلا فالنعمة لا تكون نعمة. لم يكن كلفين في هذا الاعتقاد وحيداً بل شاركه فيه المصلحون الآخرون، وأصبح الاعتقاد بالاختيار العقيدة البروتستانتية الأساسية التي ثارت ضد النظرية الكاثوليكية الرومانية القائلة بأن الخلاص هو بالعمل والاستحقاق البشري. كان المصلحون على صواب في هذه النقطة على الأقل وهي: إن الاختيار هو النتيجة الطبيعية التي لا بدّ منها لعقيدة الخلاص بالنعمة. إذا قلنا إن الله يخلّص البشر بنعمته المجانية غير المحصّلة بالاستحقاق من جانب أولئك البشر فمن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الضروري القول أيضاً إن المبادرة الإلهية في الخلاص مؤسسة في شخص الله وقصده وغير مُعتمِدة بأي حال على استحقاق البشر.

نرى إذن أن عقيدة الاختيار هي من عقائد العهد الجديد الأساسية وإنها متعلقة بخلاص الفرد إذ إن الفرد محور اهتمامها. بقي الآن أن نسأل: متى حدث الاختيار أو متى يحدث؟ هناك من يقولون إن الله يقوم بالاختيار على ضوء الأحوال وكيفية تكاملها، وإن الاختيار يجيء وليداً للوقت أو الزمن وليس أمراً مقرراً من الأزل. **يعلّم العهد الجديد، من الناحية الأخرى، إن الاختيار هو من الأزل وإلى الأبد.** يصف كاتب الرؤيا عابدي الوحش فيقول عنهم "الذين ليست أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة منذ تأسيس العالم" (رؤيا 17: 8 وقارن رؤيا 13: 8). إنه، ولا شك، يقصد أن يقول بهذا الوصف أن المخلّصين هم أولئك الذين أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة **منذ تأسيس العالم.** وهذا التعبير الأخير يعود بنا إلى وقت تأسيس النظام الكوني المنظور كله، وكما يقول هـ. ب. سويت، "الخليقة موصوفة كبنيان ضخم تحت يدي المهندس الإلهي". إن التعبير المذكور هنا، وحسب ما قاله بولس، يبيّن أن قصد الله الذي يتحقّق في خلاص الفرد يعود إلى الماضي إلى ما قبل بدء التاريخ. إنه يبيّن أن قصد الله أزلي. يقول بولس إن الله باركنا "كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم" (أفسس 1: 4). ويقول أيضاً عن الله "الذي خلصنا...بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية" (2تيموثاوس 1: 9). ويقول أيضاً "إن الله اختاركم من البدء للخلاص" (2تسالونيكي 2: 13). ونجد الفكرة ذاتها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مُضَمّنة بوضوح وقوة في قول يسوع "تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم" (متى 25: 34).

يبدو إنه ليس من طريقة أخرى لتفسير هذه الآيات على النحو الصحيح إلا إذا أدركنا إنها تعني أن قصد الله في الخلاص هو قصد أزلي، الأمر الذي يتّفق مع كيانه الأزلي. تقترح هذه الآيات إن الذين كتبوا أسفار الكتاب المقدس لم يفكّروا بأن الخلاص كان فكرة طارئة خطرت للخالق في زمن متأخر، ولا كان حادثاً وقع مصادفة في أثناء التطوّر البشري بل هو قصد مؤسس في الأزلية نفسها. إن مجمل آراء العلماء يؤيّد هذا التفسير. ويقول برونر: "الاختيار الإلهي ليس فقط حسب الكتاب المقدس بل هو بالحق مركز هذا الكتاب". ويقول ستيفنز إن بولس في كلامه عن نعمة الله كان بحسب الفكر اليهودي "يعزو عمل الخلاص إلى قصد الله الأزلي". ويعتقد كونر (في كتابه إنجيل الفداء) إن العهد الجديد يعلّم بأن الله لم يفكّر فجأة بأن يخلّص أفراد الناس بل بالأحرى كان منذ الأزل يعمل سائراً في اتجاه أولئك الذين اختارهم. يكاد يكون هناك إجماع في آراء المفسّرين حول هذه النقطة حتى لنقول بالحق إن هناك اتفاقاً إجمالياً في الرأي على أن العهد الجديد يعلّم إن اختيار الله بطبيعته اختيار أزلي. ليس جميع الذين يقرأون يعترفون بسلطان العهد الجديد في معتقداتهم، ولكنهم مع ذلك يقرّون إن الاختيار عقيدة مؤسسة على العهد الجديد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكن، على الرغم من الوضوح في آيات الكتاب المقدس وإجماع العلماء القويّ على تفسير الآيات تفسيراً صحيحاً يظل هناك من ينكر أن الاختيار أزليّ. مثلاً، إن ويليبالد بيشلاغ في كتابه "لاهوت العهد الجديد وهو يعلّق على الآية في 1بطرس 1: 1- 2، ينكر أن المفهوم من الاختيار هو إنه جرى قبل خلق العالم، ويعتقد أن الاختيار يحدث في التاريخ أو في الزمن. ويرى أنه كما جرى اختيار إسرائيل من بين جمهور من الأمم هكذا اختار الله المؤمنين بالمسيح كأفراد من بين جماهير الوثنيين الذين يعيشون بينهم". يبدو أنه ليس هناك أي سند من الكتاب المقدس يؤيّد موقف بيشلاغ هذا. وإن بطرس لم يذكر شيئاً قط عن زمن حدوث الاختيار بالنسبة لاختيار الخلاص، إذ إن ما يقوله هنا هو أن الاختيار جرى "بمقتضى علم الله الآب السابق" دون تحديد للوقت. هذه الآية، إذن، لا تؤيد أزلية الاختيار ولا تنفيها. وما دام بيشلاغ لا يربط بين كلمات بطرس في الآية والآيات الأخرى التي في الكتاب المقدس التي تصف بوضوح اختيار الله على أنه جرى قبل "تأسيس العالم"، لذلك فلا سبيل لتعيين الأساس الذي عليه بنى بيشلاغ عقيدته. إن الحل الوحيد هو أن نعتبر موقفه هذا مجرّد تسرُّع في الحكم. إنه لا يؤمن بالاختيار الأزلي، لذلك يفهم من الكتاب المقدس ما يجول في أفكاره هو.

هناك معترض آخر يبدو أن لاعتقاداته أساساً أقوى مما لاعتقادات بيشلاغ. فالكاتب ج. روسون لمبي، في تفسيره لأعمال الرسل وتعليقه على الإصحاح 13، يوازي بين الآية 48 "وآمن جميع الذين كانوا معيّنين للحياة الأبدية" والآية 46 التي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يقول بولس فيها لليهود الذين رفضوا رسالته: "ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجّه إلى الأمم." ويقول لمبي إن ما تعنيه الآية 48 هو على نقيض ما جاء في الآية 46. أي أن اليهود بيّنوا بأعمالهم عدم استحقاقهم للخلاص، بينما أبدى الأمم رغبتهم في أن يخلصوا. هنا فريقان، وقد وضع كلّ منهما في وضع مُغاير للآخر. يظن لمبي إن العمل الأساسي في كل من الحالين هو عمل أولئك الناس الذين قرّروا مصائرهم بأنفسهم، وما الله إلا عامل مسبِّب عن بعد. إن تفسير لمبي هذا لا ينكر الاختيار الأزلي وحسب بل ينكر الاختيار من أي نوع أصلاً. إن خطأ هذا الموقف هو في القول إن الخلاص والهلاك نقيضان حقيقيان. يقول هذا المنطق إنه إذا عُزي الهلاك لاختيار الإنسان فلا بد من عزو الخلاص أيضاً لاختيار الإنسان. إن اعتبار الخلاص عائداً لاختيار الإنسان هو عمل مؤذٍ في بحث هذه العقيدة، وقد أدّى في بعض الحالات إلى فكرة الاختيار المُزدَوج وفي الحالات الأخرى إلى فكرة " اللا اختيار". إن عزو الخلاص إلى اختيار الإنسان غير مؤسّس على تفسير صحيح للكتاب المقدس بل على المنطق أو بالأحرى على منطق مغلوط. إن كلمات الآيتين في سفر الأعمال تتنافى مع أي تفسير لا يعتبر فكرة الاختيار الإلهي في الآية 48. تقول الآية في 13: 46 إن اليهود في إنطاكية بيسدية دفعوا عنهم كلمة الله وحكما أنهم غير مستحقين للخلاص، بينما تقول الآية في 13: 48 إن الذين آمنوا هم "الذين كانوا معيّنين للحياة الأبدية". لو أن كاتب سفر الأعمال قصد أن يورد ما يتباين مع الاختيار البشري لكان استخدم عبارات أخرى غير هذه. إن الكاتب هـ.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ب. هاكت (في تفسيره لسفر الأعمال) يعارض تفسير هذه الآية المناقض لعقيدة الاختيار ويعتبره تفسيراً "قسرياً وغير مُرضٍ". أما الكاتب ج. هـ. ماك غريغور فمع إنه يقول في تفسيره هذه الآية إن الكلام عن الذين خلصوا قد يعني أنهم كانوا يشعرون بميل إلى الخلاص بل أكثر من ذلك قليلاً، لكنه يرجّح أن الكلام في الآية يشير إلى تعيين الله السابق.

لذلك يبدو أن البرهان القوي هو في صالح الاعتقاد بأن الاختيار للخلاص هو أزلي، وإن الاختيار الأزلي يتفق تماماً مع طبيعة الله. إن ما يفعله الله الآن لا بدّ من أن تكون له بداية وعلة منذ الأزل. إن مقاصد البشر هي دائماً زمنية لأنهم مخلوقات محدودة بالزمن. يجدر بنا أن نتوقّع أن نجد قصد الله قصداً أزلياً لأن الله أزلي. إن هذا هو ما نجده فعلاً في ما يعلّم به الكتاب المقدّس فيما يتعلق بقصد الله في الاختيار. يشير الدكتور كونر إلى فكرة الاختيار هذه تثبت اتفاق الله مع صفاته. يقول الدكتور كونر في كتابه "إنجيل الفداء" إن عقيدة الاختيار "تقول بأن طبيعة الله، ومقاصده، وأعماله تتفق جميعها الواحد مع الآخر".

لقد كان الجدل الرئيسي في تاريخ عقيدة الاختيار يدور حول قضية واحدة وهي: هل الاختيار مشروط أم غير مشروط؟ وتستعمل كلمة "مشروط" في هذا الجدل مشيرة إلى سبب خارج عن الله نفسه يجعله يختار أن يخلّص أولئك الذين يختار أن يخلّصهم. إذا كان هذا المقصود بكلمة مشروط فعلينا أن نعتقد أن الاختيار غير

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المشروط، إذ أنه مؤسّس في الله وحده. ربما كان أوغسطين أول من استخدم هذا الاصطلاح وأصبح ذلك جزءاً من علم اللاهوت، مع إننا نعتقد أن الاختيار عقيدة موجودة في الكتاب المقدس وليست من اكتشاف أي كاتب متأخر. لقد بدأ أوغسطين بفكرة شرّ الإنسان وعجزه في الأمور الروحية فتوصّل من ذلك إلى عقيدة التعيين السابق أو الاختيار غير المشروط. كان أوغسطين يعتقد أن أولئك الذين نالوا الخلاص لم يقرّر الله اختيارهم ليكافئهم على إيمانهم لكنه اختارهم لكي يقبلوا الإيمان المخلّص، هذا الإيمان الذي هو نفسه عطية الله. و لم يستطع أوغسطين قط أن يتوصّل إلى تفسير وافٍ لاختيار الله فئة من بني البشر ليقبلوا الخلاص، إذ كان يؤمن "بالنعمة التي لا تقاوم"، لكنه كان مُصرّاً، وله الحق في ذلك، على اختيار الله لخلاص بعض الأفراد لم يكن مؤسساً على أن الله سبق فرأى إيمان أولئك الأفراد الذي سيظهر في حينه.

وكثيراً ما نجد اسم جون كلفين، المصلح الديني المعروف، مقروناً بعقيدة الاختيار. بل لدى البعض، ولا شكّ، انطباع بأنه هو الذي أوجد هذه العقيدة. لكنّ هذا ليس صحيحاً. كان كلفين متّفقاً بشكل جوهري مع أوغسطين ومع زملائه رجال الإصلاح، فلم يوجد عقيدة الاختيار. إن ما أسهم به كلفين بشكل رئيسي في هذا الأمر لم يكن إيجاد العقيدة بل جعلها جزءاً من علم اللاهوت الذي كتبه في كتابة "إنشاءات الديانة المسيحية" (Institutes) الذي اتّخذته البروتستانية الغربية كلها مرجعاً لعقائدها. إن جميع هؤلاء الرجال شدّدوا باستمرار على الحقيقة القائلة بأنه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ليس من شيء "خلف إرادة الله أو فوقها يضبطها أو يقرّرها". ليس هناك من شكّ أن كلفين كان يؤمن بأن الاختيار مؤسس كليّاً على طبيعة الله وقصده وليس على أي شيء أخر.

لقد ظهر موقف لاهوتيّ عام مناهض لهذا الموقف وقد عرف بالموقف الأرميني، نسبة إلى أرمينيوس، وهو لاهوتيّ مشهور جاهد ضد ما يسمى بالعقيدة الكلفينية القائلة بالاختيار غير المشروط. كان أرمينيوس يعتقد أن اختيار الله محصور في علمه السابق، وإنه تعالى صمّم أن يهب الخلاص لجميع الذين سبق أن عرف أنهم سيؤمنون بواسطة نعمته. وإننا، إذا فحصنا فكرة إرمينيوس عن كثب، نجد الاختيار في رأيه هو تصميم الله على ألاّ يوجد الإيمان في الإنسان بل أن يكافئ ذلك الإنسان على إيمانه. أي أن أرمينيوس كان يؤمن بالاختيار المشروط، وهو، كما يقول فيشر، "اختيار يعتمد على معرفة الله السابقة لإيمان ذلك الشخص المختار". لقد تقدّمت عقيدة أرمينيوس هذه في المسيحية الحديثة إلى حدّ أن الاعتقاد بالخلاص بواسطة النعمة أصبح في خطر.

قد يبدو هذا الانقسام الصريح في الفكر ضرورياً في درس عقيدة الاختيار، ولكنه انقسام مؤسّس على استخدام المنطق في بحث القضية استخداماً مغلوطاً. إن هاتين المدرستين الفكريّتين اعتقدتا أن كل ما يقال عن الشخص المختار يجب أن يقال بالمقابل عن غير المختار. لذلك نجد الكلفينيين يصرّون على أن البعض خلصوا لأنهم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مختارون من الله للخلاص، والبعض الآخر، على غرار ذلك، قد هلكوا لأن الله اختارهم للهلاك. ويصرّ الأرمينيون، من الناحية الأخرى، على أن أناساً هلكوا لسبب واحد وحيد وهو أنهم رفضوا أن يؤمنوا عندما سمعوا بشارة الإنجيل. لذلك، فهم يرون على هذا الأساس، أن الذين نالوا الخلاص قد نالوه لأنهم، من تلقاء أنفسهم، آمنوا. وإذ إنهم يعتبرون قصد الله اعتباراً جدياً يكتفون بالقول إن اختيار الله هو نعمته المخلّصة، هو عندما يختار أن يكافئ الإيمان الذي سبق فعرفه بعلمه السابق.

وكما يحدث كثيراً في مجادلات كهذه أن كلاً من جانبي الجدل مصيب ومخطئ في آن معاً. إن القضية هي أن علينا أن نفصل الفكرتين، الواحدة عن الأخرى، لكي نتمكّن من فهم آيات الكتاب المقدس فهماً صحيحاً. تبحث عقيدة الاختيار في السبب والكيفية التي بها الناس يخلصون. أما السبب والكيفية التي بها يهلك الناس فموضوع مختلف تماماً، وهو الموضوع الذي سبق أن بحثناه في فصل سابق. إن الخط المنطقي الذي كان الناس يسيرون عليه في الماضي في هذه المنطقة من الجدل اللاهوتي، يؤدّي بنا، لو تتّبعناه في القضايا الحياتية الأخرى، إلى استنتاجات سخيفة، ونصل إلى النتيجة نفسها في قضية الاختيار أيضاً. مثلاً، يصح أن نقول أن طبيباً عالج مريضاً وشفاه لأنه، أيّ الطبيب ، كان يعرف الدواء وكان يسعى لشفاء المرضى. لكن من السُّخف والخطأ أن نقول أن الطبيب ذاته تسبّب بالموت لمريض لأنه لم يحاول و لم يرد أن يشفيه. يختار الله الناس للخلاص لأنه يريد خلاصهم وهذه هي الطريقة الوحيدة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التي بها يكون الخلاص ممكناً. لكن، من الناحية الأخرى، يهلك الناس لأن الله لا يقدر أن يخلّصهم، ذلك لأنهم لا يريدون الخلاص ولا يتيحون له أن يخلصهم.

عندما ندرس الكتاب المقدس نجد الاختيار مؤسّساً على محبة الله وطبيعته. إنه من هذه الناحية خلاصٌ غير غير مشروط. يقول بولس بلهجة التأكيد أننا مخلّصون لأن الله "سبق فعيّننا للتبنّي بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرّة مشيئته" (أفسس 1: 5). ويضيف بعد ذلك قوله أنه تعالى "عرّفنا بسرّ مشيئته حسب مسرّته التي قصدها في نفسه" (أفسس 1: 9). ويقول أيضاً أن الفداء هو "حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته" (أفسس1: 11). وقال بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس إن الله خلّصنا، "لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية". ويقول يعقوب عن الله أنه "شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه" (يعقوب 1: 18). ليس في آيات الكتاب هذه أية إشارة إلى أي شيء خارجي حرّك الله ودفعه فجعله يصمم أن يفعل الذي فعله في خلاص الناس. ويظهر أن التعريف الذي يعرّف به اللاهوتي سترونغ (A. H. Strong) الاختيار متفق تماما مع العهد الجديد. يقول هذا اللاهوتي في كتابه "اللاهوت النظامي" ما يلي: "إن الاختيار هو ذلك العمل الإلهي الأزلي الذي به يبادر الله، بدافع من مسرته السائدة المطلقة وليس لأي استحقاق لدى الناس، فيختار بعضاً من وسط مجموع الخطاة ليكونوا قابلين لنعمة روحه الخاصة ولكي يكونوا بذلك المشاركين التلقائيين في خلاص المسيح".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لا يعني قولنا هذا أنه ليس هناك أي سبب يجعل الله يفعل في أمر الخلاص ما يفعله، فهذا ليس المقصود بالقول أن الاختيار غير مشروط. لدى الله أسباب دائماً، أسباب لأعماله وقصده. قد لا تكون هذه الأسباب معروفة لدينا ولكن عدم معرفتنا إياها لا يعني أنها غير موجودة. لله أسباب هو يعرفها. أظن أننا نجد تلميحاً يتعلق ببحثنا في رسالة بطرس الأولى التي يقول فيها أننا مختارون "بمقتضى علم الله السابق" (بطرس 1: 2). سنحاول فحص معنى هذه العبارة في الفصل التالي من هذا الكتاب. ولنقل، ختاماً، إن تصميم الله على اختيار الذين اختارهم للخلاص يعود إلى سبب واحد وتام، وهذا السبب هو في الله ذاته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني عشر
الاختيار هو بمقتضى العلم السابق

أنه من غير الممكن للعقل البشري أن يَسبُر غور قصد الله، لكننا نعتقد أننا إذا درسنا قضية علم الله السابق فسنجد في ذلك ما يرشدنا لفهم سبب اختيار الله لجزء من مجموع البشر دون سواهم للخلاص. إن الاعتقاد بأن الله يعرف كل الأشياء معرفة تامة قبل حدوثها لهو جزء هام لا يتجزأ من إيمان الكتاب المقدس. هناك آيتان فقط تربطان علم الله السابق ربطاً مباشراً باختياره الناس للخلاص. إن أولى هاتين الآيتين لبولس: :"لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين أخوة كثيرين. والذين سبق فعيّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً. والذين دعاهم فهؤلاء برّرهم أيضاً. والذين برّرهم فهؤلاء مجّدهم أيضاً"(رومية30،29:8) صحيح أن هناك مفسرين، مثل جون نوكس، اعتبروا هذه الآية تنطبق على الكنيسة كجماعة. إلا أن الصواب هو أن بولس كان يتكلم عن خلاص الأفراد. نجد في هاتين الآيتين من رسالة رومية صورة كاملة للخلاص من الأزل إلى الأبد. في قصد الله الذي هو قبل التاريخ يتّحد علمه السابق بتعيينه السابق. وفي اختبار الخلاص الذي هو ضمن التاريخ تتّحد دعوة الله وتبريره. إن كل شيء يشير إلى الخاتمة المجيدة وهي النهاية التي إليها يتجه قصد الله وتتجه أعماله الخلاصية في التاريخ. والنقطة التي هي جديرة بالملاحظة هي أن الدعوة والتبرير يكوّنان ناحيتين من قصد الله للخلاص. ويرى بولس أن بين الفكرتين علاقة أكيدة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما الآية الأخرى التي تربط بين فكرتي الاختيار والعلم السابق فموجودة في بداية رسالة بطرس الأولى. يخاطب بطرس قراء هذه الرسالة بوصفهم "المختارين بمقتضى علم الله السابق" (1بطرس 2:1). ظن البعض أن ترتيب كلمات الآية في الأصل اليوناني لا يمنع عبارة "بمقتضى علم الله السابق" من أن تعود إلى عبارة "بطرس، رسول يسوع المسيح." أي أن كون بطرس رسولاً للمسيح هو بمقتضى علم الله السابق. هذا ممكن ولكن أكثر المفسرين يرون أن العبارة المذكورة تعود إلى كلمة "المختارين". يبدو أن هذا هو التفسير المعقول، فهو يتفق تمام الاتفاق مع استعمال الكلمات اليونانية في الأصل، كما يتفق مع المقطع المماثل في الرسالة إلى رومية. هاتان الآيتان لبطرس وبولس تبينان، إذن، أن الاختيار للخلاص يتعلق، على نحو ما، بعلم الله السابق.

هناك علاقة بين الاختيار والعلم السابق، فما هي؟ يقولون بان الاختيار مؤسس على علم الله بأن هناك عاملاً ما في حياة الإنسان، عاملاً عرفه الله قبل ظهوره، وعزم على أن يكافئ ذلك الإنسان ببركة الخلاص (4). لكننا سبق أن وجدنا استحالة موقف كهذا في الفصل السابق، عندما بيّنا أن الاختيار يجب أن يكون "غير مشروط" إذا كنا نعتقد بأن الخلاص هو بالنعمة. ويقولون، كجواب ثانٍ عن السؤال، بأن العلم السابق مؤسس على التعيين السابق. هذا هو الموقف الذي كان ينسب إلى كل من أوغسطينوس وكلفين. يرى أصحاب هذا الموقف أن الله يقرر جميع الأشياء، أما علمه السابق فيعني أنه يعرف ما قد سبق وقرر أن يفعله. إن العيب في هذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التفسير هو أنه يجعل فكرة العلم السابق بلا قيمة وبلا معنى. فإن هذا التفسير يقول أن الله يعلم ما يحدث لأنه سبق وقصد لذلك الشيء أن يحدث. إذا كان هذا هو كل ما في الأمر فما الحاجة لاستخدام كلمة أخرى لوصف ما سبق الله فضمّنه في قصده؟ ما قيمة علم الله السابق بشيء إذا كان هو الذي عيّن ذلك الشيء ليكون كما هو؟

يبدو أن كلمة الله تشير إلى وجود علاقة حيوية وضرورية بين الفكـــرتين: العلم السابق والتعيين السابق، وإن هناك فروقاً في معنى هاتين العبارتين. يعود الخلاف الناشئ حول هذا البحث في الغالب إلى السؤال القائل: أي الأمرين كـــان ســـابقاً للآخر؟ إذا كان القصد من هذا السؤال محاولة معرفة الترتيب الذي انتظمت بموجبه أفكار الله فالسؤال يصبح مستحيلاً. مثال ذلك، إذا داهم خطر الموت إنساناً فإن ذلك الإنسان يدرك أولاً وجود ذلك الخطر، ثم يصمم على الابتعاد عنه، وبعد ذلك يشرع في الركض منفّذاً ما صمم على عمله. لكن ليس من الممكن الفصل بين الخطـــوات المختلفة التي اتخذت إذ أن الأمر جرى بسرعة فائقة في ذهن ذلك الإنسان غير أنه تظل هناك علاقة منطقية تربط بين الخطوات. إن إنساناً كهذا لا يركض أولاً وبعد ذلك يدرك وجود الخطر. أنه يدرك وجود الخطر وبعد ذلك يركض. هكذا هي العلاقة بين العلم السابق والقصد. إذا كان القصد هو بموجب العلم السابق، كما يقول بطرس، فالعلم السابق، منطقياً وإن لم يكن من حيث الترتيب، يسبق قصد الله في الاختيـــار وبشكل ما يهيمن على ذلك القصد. يمكننا، بالنسبة لهذه النقطة، أن نحكم أن الموقف الأرميني معقول ويمكن إثباته أكثر من الموقف الكلفيني. إلا أننا مضطرون لرفض القول

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بأن هذا يجعل الاختيار "مشروطاً" أي بمعنى أنه مؤسس على استحقاق شخصي في الناس المختارين، استحقاق رآه الله بعلمه السابق. إن الإيمان هو عطية من الله وليس عملاً من صنع الإنسان. على هذا الأساس. علم الله السابق بأن الإنسان سيؤمن لا يمكن، منطقياً. أن يسبق قصد الله وعزمه على إيجاد الإيمان في ذلك الإنسان. لذلك، ليس من الحق القول أن الله اختار إنساناً لأنه سبق فرأى الإيمان الذي سيكون فيهم.

ما الذي علم الله به مسبقاً فجعله يحصر نعمته ويخص بها أولئك المختارين؟ لا سبيل للإجابة عن هذا السؤال الصعب عن طريق تحليل كلمات الكتاب المقدس. فالآيات التي تربط بين الاختيار والعلم السابق لا تبدي أية إشارة لمساعدتنا على إيجاد الجواب. يقول الكتاب: "...المختارين بموجب علم الله السابق". ولكن يظل السؤال المحير: :ما هو هذا الذي كان الله يعلم به مسبقاً؟". لا يجيبنا الكتاب المقدس عن هذا بالضبط. قال البعض أن هذا لغز ويصرون على أنه سيظل لغزاً لا نجد له حل إلى الأبد. قد يكون هذا هو واقع الحال. وربما يتوجب علينا، بالنسبة إلى هذه المسالة، أن نتعلم الاكتفاء بما قاله بولس في رسالته إلى أهل رومية: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه، ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء." (رومية11:23). تعبر هذه الكلمات عن دهشة بولس العظيمة وهو يواجه حقيقة قصد الله في الخلاص وكيف وضح ذلك القصد في معاملات الله مع بني إسرائيل. وهي لا تعني أن بولس لا يحاول فهم قصد الله المعلن بل تبين أنه إذا فهم المرء قصد الله هذا فإنه سيشعر بالرهبة والدهشة في حضور محبة الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن هذا ليشجعنا على التخمين ما دام الأمر يصعب فهمه. إن كنا نود معرفة محبة الله في كل ملئها فلا بد لنا من التخمين إذ أن الأمر أعلى من فهمنا. إن ما سنتوصل إليه في هذا المجال سيكون نظرية نطرحها. لا نقدم هذه النظرية بروح التعصب والتزمت بل على أساس أنها حل للمشكلة بينما تتفق في الوقت ذاته مع معرفتنا لله ولطرقه. وهذا لا يعني أننا نخبط خبط عشواء وليس ما يقودنا أو يكبح جماحنا. في الواقع إن هذه النظرية مؤسسة على ثلاثة أدلة مأخوذة من تعاليم العهد الجديد.

أولاً، إن هذه النظرية مؤسسة على حقائق معاملات الله مع الناس. يبدو أن علينا أن نحذو حذو كتّاب أسفار العهد الجديد فنعتبر ما يحدث فعلاً في عمل الله لخلاص البشر عائداً لقصده الأزلي. يمكن فحص أية نظرية وكشف مقدار صحتها وصوابها باستخدام هذه القاعدة ذاتها. يجب علينا، في كل الأحوال، ألا نعتبر شيئاً أنه حق إذا كان ذلك الشيء يظهر الله مناقضاً لذاته. ذلك أننا نقر بأن أعمال الله تتفق مع طبيعته وأنها حصيلة قصده.

ثانياً.، إن النظرية المذكورة مؤسسة على الحقيقة القائلة بأن الخلاص هو كلياً بنعمة الله. إن الخطأ في الوقف الأرميني بالنسبة لهذه القضية هو أن ذلك الموقف يقضي على هذه المعطيات الأساسية التي لفكر الكتاب المقدس. لا يمكن أن يكون الخلاص مقسوماً مناصفة بين الاعتدال والإيمان. إذا كان الخلاص هو بالأعمال، ولو جزئياً،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

"فليست النعمة بعد نعمة" (رومية 6:11). إذا كنا نعتقد أن الله رأى مسبقاً في الإنسان أي مقدار من الاستحقاق أو أي شيء رآه الله بعلمه السابق في الإنسان وكان سبب اختيار ذلك الإنسان فلا يجوز تفسيره على أنه استحقاق بشريّ.

ثالثاً، إن النظرية المبحوث عنها مؤسسة على الاعتقاد بأن ما يعرفه الله عن الناس بسابق علمه لا بد من أن يشكل فرقاً هاماً وحيوياً بين إنسان وآخر. إن الكتاب المقدس لم يدل قط على أن الله يستخدم الاعتباط والتحكم أو التعسف في أعماله. يعمل الله أعماله بناء على أسباب يراها هو وقد لا يراها الناس دائماً. إذن، إذا كان اختيار الله للخلاص يجيء، بطريقة ما، بناء على علمه السابق، فهذا الشيء الذي يعلم الله به مسبقاً لا بد من أن يشكل سبباً كافياً لاختيار الإنسان أو لعدم اختياره.

إن نظريتنا هي: إن الله علم مسبقاً استحالة خلاص بعض الناس بأية وسيلة ممكنة. إن علم الله السابق الذي حدد تصميم الله على الخلاص ليس مستنداً إلى ما سبق فرآه في المختارين بقدر استناده إلى ما سبق فرآه في عير المختارين. لقد عرف مسبقاً أن هناك إمكانية الإتيان ببعض بني البشر إلى الإيمان بوساطة نعمته، فاختار، لذلك، أن يخلّص أولئك الناس، وراح يعمل منذ الأزل لإجراء ما عزم عليه ولتنفيذ اختياره. ولكن الله رأى أيضاً من الناحية الأخرى عناد قلوب الآخرين، الأمر الذي يجعل من المتعذر، بأية وسيلة، إنهاضهم إلى الإيمان، ونتيجة لذلك اختار الله ألا يخلصهم. أنهم ليسوا "غير مختارين" إذا كان معنى هذه العبارة أنهم مختارون للهلاك.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أنهم غير مختارين بالنسبة للخلاص، ولذلك يهلكون، لا لأنهم مختارون للهلاك. من الضروري جداً توضيح الفرق بين الأمرين. صحيح أن النتيجة واحدة، سواء قلنا أن الله اختار هلاك إنسان ما أو أن ذلك الإنسان غير مختار للخلاص. لكن الفرق بين الأمرين يؤثر كثيراً على نظرتنا إلى الله والفكرة التي نحملها عنه.

والآن لنفحص نظريتنا، وذلك بأن نسأل إن كانت تتفق مع معاملات الله الواقعية مع الناس في خلاصهم وهلاكهم. سبق أن ذكرنا أن الله هو العامل الخلاق في خلاص الذين يخلصون. وإن الإنسان في الواقع لا يسهم بشيء في أمر خلاصه. ووجدنا أيضاً أن اللوم على هلاك الهالكين يقع كله عليهم. إن السبب الوحيد الذي من أجله يهلك غير المؤمن هو أنه يرفض أن يقبل الله. إن الله في تعامله مع الناس في أمر خلاصهم يجد ذاته محدوداً ومقيّداً بمقدار الاستجابة التي يستطيع الحصول عليها من جانب قلب الإنسان نتيجة للنعمة التي يستخدمها لإيقاظ ذلك الإنسان وإشعاره بحاجته. إن الذي نقول به في نظريتنا هو أن الاختيار محدود بعلم الله السابق ومعرفته لعناد بعض الناس في عصيانهم وتمرّهم على الله.

إننا نفضل القول أن اختيار الله كان محدوداً بعلمه السابق على أن نقول أنه كان مشروطاً به. وذلك لسببين. السبب الأول هو أن كلمة "مشروط " كانت مركزاً للجدل بين مدرستين فكريتين متباينتين هما الأرمينية والكلفينية. بالنسبة للتفكير اللاهوتي، إن القول أن الاختيار "مشروط". مهما كان القصد، يجعل السامع عرضة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للاعتقاد بأنه مشروط بالمعنى الأرميني، أي أنه مؤسس على العلم السابق بإيمان الناس الذين يخلصون. لقد بيّنا بوضوح عدم موافقتنا على هذا الموقف، ونحن لذلك نفضل ألا نغامر ويساء فهمنا. ثانياً، على الرغم من التشابه الظاهر في معنى الكلمتين "محدود" و "مشروط"، فالكلمتان توحيان معنى ضمنياً مختلفاً. إن كلمة "شرط"، تستعمل غالباً لتصف ترتيباً اعتباطياً إرغامياً يتعهد بموجبه أحد الفريقين بأن يبادل الفريق الآخر الامتيازات أو المنافع. فالكلمة تتضمن عدم إتمام عمل معين إلا بعد الوفاء بشرط معين. أما الكلمة "حدّ" أو "محدود" فتوحي من الناحية الأخرى بوجود مانع يحول دون تحقيق شيء أو عمل ما. إن ما هو اقرب إلى هذه الفكرة القول بأن المرء يفعل شيئاً معيناً إذا كان لا يمنعه من عمل ذلك الشيء ظرف هو خارج عن سيطرته. لذلك نفضل القول أن اختياره محدد بعلمه السابق للظرف- الذي هو عناد الإنسان غير المختار في الخطية- هذا الظرف الذي لم يوجده الله كما ليس لله سيطرة عليه. ويعرف الله مسبقاً أنه بسبب هذا الظرف لا يستطيع أن يوجد الإيمان في قلوب البشر غير المختارين ولذلك لم يخترهم للخلاص.

هل تنسجم هذه النظرية مع شرطنا الثاني؟ هل إذا قبلنا بها نكون بقبولنا منكرين أن الخلاص هو كلياً بالنعمة؟ لسنا نظن ذلك. إن هذه النظرية تفسر السبب في أن الله لم يختر للخلاص بعض الناس، لكنها لا تبين لنا. بأي حال، لماذا اختار الله أناساً آخرين للخلاص. مثلاً، إذا قلنا أن إنساناً معيناً ساعد المحتاجين على قدر طاقته، لا نكون بذلك قد فسرنا لماذا هو. فعلاً، ساعد أولئك الذين ساعدهم، بل لماذا هو لم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يساعد أولئك الذين لم يساعدهم. في قول كهذا تكون قدرة الإنسان، وهي الظرف الذي ليس لله سيطرة عليه، هي العامل المانع أو المحدد. على هذا نقول إن حب الله للناس كان العامل الخلاق الذي جعله يساعدهم ولكن ضمن حد قدرته على ذلك. كذلك، عندما نقول أن الله اختار أناساً للخلاص "بموجب علمه المسبق" فنحن إنما نفسر بذلك لماذا هو لم يختر الآخرين، الجواب على هذا هو أن اختياره كان محدوداً بعلمه السابق. لقد بينا قبلاً أن السبب الوحيد الذي جعل الله يختار إنساناً للخلاص يعود إلى طبيعته الإلهية ومحبته. الاختيار غير مشروط. لكن الحقيقة الواقعة هي أنه ليس اختياراً غير محدود، أنه ليس اختياراً كونياً. ونحن نعرف هذا لأن الخلاص ذاته غير كوني.

يجب أن يكون واضحاً للجميع أن الاختيار محدد بعلم الله السابق باستحالة خلاص بعض الناس، لكن هذا لا يعني أن الاختيار، لذلك، مؤسس على علم الله السابق ببعض الخير الكامن في بعض الناس. لا يمكن بناء الاستنتاج الأخير على الأول. جميع الناس خطاة ويرسفون تحت دينونة الله العادلة. "لا إنسان صدّيق في الأرض يعمل صلاحاً ولا يخطئ" (جامعة20:7). عندما يخلّص الله إنساناً ما يجد أنه لا بد له من استخدام كل نعمته، ورحمته، وقوته. إن ما يكلفه خلاص إنسان واحد هو بالذات ما يكلفه خلاص جميع الناس- أي موت الابن (يوحنا16:3). لماذا تحمل الله عناء دفع ثمن الخلاص؟ لم يكن السب في ذلك أنه عرف مسبقاً إمكان خلاص البشر، بل لأن محبته وطبيعته جعلتاه لا يستطيع رؤية الناس يهلكون بينما هناك طريقة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لتخليصهم. إن علمه السابق وحده لا يكفي لتفسير السبب الذي جعل الله يختار أن يخلّص، لكنه يفسر السبب الذي جعله يحجم عن اختيار جميع الناس. وهكذا نرى أن عقيدة الخلاص بالنعمة لا تتعرض للنقض إذا قلنا أن اختيار الله مهيمن عليه ومحدد من قبل علم الله السابق بإمكان تخليص بعض الناس وعدم إمكان تخليص الآخرين.

ليس من الضروري القيام بالمزيد من الفحص للنظرية السالفة الذكر. من المؤكد أن وجود ذلك العامل في الناس، (أي عامل الاستعداد لقبول نعمة الله أو رفض هذه النعمة). يجعل فرقاً كبيراً في أولئك الناس من حيث خلقهم الروحي. إن هذا، في رأينا، واضح في العالم حولنا ولا يحتاج إلى برهان. إن الناس غير المخلصين متصلبون في رفضهم انجيل نعمة الله. وعندما يواجَهون بحقيقة الله يثورون ويتهربون من مواجهة حاملي رسالة الله. انهم يعيشون حياتهم كلها ضمن حدود اهتمامهم بأنفسهم. قد يكون هؤلاء، من وجهة نظر المجتمع، أناساً طيبين وذوي أخلاق في أعمالهم وتصرفاتهم، لكن قلوبهم بعيدة عن الله ويعيشون في عبودية لقوة الخطية. لا نعرف جازمين إن كان أولئك سيهلكون حتماً وأنه لا رجاء لهم، إذ لا نقدر أن نعرف سلفاً. الله وحده يعرف ذلك وقد كان يعرفه منذ الأزل. أما عدم اختياره إياهم للخلاص فيرجع لعلمه السابق بعدم توافر الحالة القلبية المطلوبة لديهم.

كان بحثنا يدور حتى الآن حول الافتراض القائل بأن علم الله السابق هو شيء حقيقي وأنه في الواقع مجرد علم سابق وليس تعييناً. يبقى لنا أن نفحص هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الافتراضات لكي نرى إن كانت صحيحة ومتفقة مع الكتاب المقدس أم لا. صحيح أن علم الله السابق هو في الغالب ليس موضوعاً للبحث في الكتاب المقدس، لكنه مع ذلك افتراض نجده في ثنايا قصة الكتاب المقدس، إن العلم السابق، على سبيل المثال، هو الافتراض الطبيعي للتنبؤ بالأحداث والذي نجد الكثير منه في الكتاب المقدس. كان الأنبياء، بلا شك يؤمنون بحقيقة علم الله السابق. بل أن تاريخ عمل الفداء كله كما هو في الكتاب المقدس مؤسس، في الواقع، على الاعتقاد بعلم الله السابق وقصد الله السابق.

قليلون هم الذين ينكرون حقيقة علم الله السابق، إلا أن هناك من يعترف بتلك الحقيقة ولكنه يحورها إلى حد جعلها بلا معنى. وقد رأينا حتى الآن مثالاً على ذلك التحوير أن البعض جعل علم الله السابق وتعيينه السابق كما لو كانا أمرين متعادلين متماثلين. إن هذا التفسير الخاطئ للعلم السابق يقول فقط أن الله يعرف ما قد صمم على عمله ولذلك يعرف نتيجة أعماله. قد يكون هذا القول صحيحاً، ولكنه يجعل مسألة العلم السابق بلا قيمة أو معنى. عندما يبحث الدكتور سانداي والدكتور هدلام في عبارة "الذين سبق فعرفهم" (رومية 9:8) فإنهما يصران على أن معنى الكلمة يجب أن يقرره استخدام الكتاب المقدس لكلمة "يعرف". يستعرض هذان الكتابان بضع آيات من الكتاب المقدس ليثبتوا ما توصلوا إليه وهو القول بأن كلمة "يعرف" أو "يعلم" في الكتاب المقدس تعني ما تعنيه في الحديث العادي. يقولان أنها تعني "أخذ العلم بالشيء"، أو توجيه الفكر إليه كاختيار بسيط لذلك الشيء لقصد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

خاص" (6). إن المعنى الوحيد الذي تضيفه كلمة "السابق" أو كلمة "سبق" هو أن تلك الكلمة تبين "أن علم الله ذلك يعود إلى مشورة الله الأزلية." وهكذا يتبين أن علينا أن نفهم الكلمة المذكورة بمعناها العام، فعندما يقول الرسول "سبق فعرفهم" فهو يعني أن الله"عرفهم قبل الوقت."

صحيح أن "العلم السابق" يتعلق بالتعيين السابق كما سبق وقلنا، لكن العلم السابق ذاته لا يحتم بالضرورة حدوث ذلك الذي سبق العلم به. ويبحث الدكتور مولنز في هذه النقطة، بانياً حججه على حقيقة كون الله يعرف مسبقاً الاختيارات الشريرة التي يختارها الناس بينما هو في الوقت ذاته ليس مسؤولاً عن تلك الشرور وهي ليست من تصميمه.

إن جميع هذه المحاولات اليائسة لتفسير علم الله السابق غير مجدية وينتج منها الخطأ الشائع وهو أنها محاولات تجعل علم الله السابق معطلاً عن العمل بالنسبة للتصميمات الحرة التي يتخذها البشر، وهي غير مقبولة لسببين. أولاً، إن عزل تصميمات البشر الحرة عن علم الله السابق مخالف لروح كتّاب الكتاب المقدس. صحيح أن أولئك الكتّاب لم يثيروا تلك المسالة الميتافيزيقية، ألا وهي إمكان معرفة الله وعلمه مسبقاً بتصميمات الإنسان الحرة، لكنهم مع ذلك يتكلمون عن هذا الأمر على أساس أنه حقيقة. نجد في الكتاب المقدس (اعمال27) قصة السفينة التي غرقت وهي مثال يصور لنا كيف يمكن أن يتفق التأكيد الإلهي مع تعدد الاحتمالات البشرية. كان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بولس الرسول مسافراً على ظهر تلك السفينة، ونجده يقف أمام ملاحي السفينة ليؤكد لهم أنهم سينجون جميعاً على الرغم من ضياع الأمل بإنقاذ السفينة. قال لهم: "وقف بي هذه الليلة ملاك الإله الذي أنا له والذي أعبده قائلاً: لا تخف يا بولس، ينبغي لك أن تقف أمام قيصر، وهو ذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك" (أعمال 23:27-24). ولكن عندما لاح الأمل بالنجاة وحاول البحارة أن يهجروا السفينة ويهربوا خفية "قال بولس لقائد المئة والعسكر: إن لم يبق هؤلاء في السفينة فأنتم لا تقدرون أن تنجوا" (اعمال31:27). كانت النتيجة، في فكر بولس، والتي هي النجاة، قد تقررت من وجهة النظر الإلهية، إذ كان الله يعلم مسبقاً ما الذي سيحدث وقد وعد بنجاة الجميع. لكن ظل من الممكن، من وجهة نظر الإنسان، إن يحدث شيء طارئ منافٍ لما وعد الله به، ولذلك كان لا بد من أن يتدخل العسكر ويمنعوا البحارة من الهرب لكي يصير بالإمكان تحقيق وعد الله بالنجاة. قد تعجز أفكارنا عن التوفيق بين وجهتي النظر هاتين، فإن عقولنا محدودة، وأحياناً نضلّ بالاعتماد على تفكيرنا. لذلك نحتاج إلى أن نرجع إلى كلمة الكتاب المقدس.

وثانياً، هناك اعتراض آخر على القول بأن أعمال الإنسان الحرة غير مشمولة في علم الله السابق، وهو أن استقلال إرادة الإنسان بهذا الشكل يرغمنا على الاعتقاد بإله عاجز لا حول له وليس ما يمكنه عمله في بعض الأحوال. إذا كان الله حقاً لا يقدر أن يعرف مسبقاً ما الذي سيفعله الإنسان بإرادته الحرة، فإنه، أي الله، سيضطر للقعود منتظراً ما الذي سيكون عليه التاريخ، فهو في تلك الحال لا يكون صانع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التاريخ. وإذا كان علم الله السابق ليس علماً مطلقاً شاملاً لكل الأشياء، وكان مجرد علم بالاحتمالات (التي قد تحدث وقد لا تحدث) لا بما سيحدث فعلاً، فيكون من العسير أن نفهم كيف يمكن أن يكون الله تعالى مهيمناً على التاريخ بأي معنى من المعاني.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثالث عشر
قصد الله والحرية البشرية

إن قصد الله، في المجال الروحي في الحياة، لا يقيد الحرية البشرية ولا يقضي عليها بل بالأحرى يُنشئ هذه الحرية ويوجدها. إن من أعظم الاعتراضات التي يتذرع بها أولئك الذين يرفضون الاعتقاد بقصد الله وعلاقته بالخلاص البشري أو بتاريخ العالم هو اعتقادهم أن تعليماً كهذا يقضي على فكرة الحياة البشرية. إن هذا الاعتراض يستمد قوته عادة بسبب عقيدة الاختيار في شكلها المتطرف، وله وزن فعلاً ضد ذلك الشكل المتطرف من العقيدة، لكن لا وزن له بأي حال ضد عقيدة الاختيار كما قدمناها في هذا الكتاب وكما هي في أسفار العهد الجديد. إذا كان القارئ قد فهم ما الذي عنيناه بعقيدة قصد الله في بحثنا السابق فإنه لا بد من أن يفهم بأننا لا نعتقد بأن الله يقتحم حياة الإنسان وقلبه فيرغمه على أن يستجيب لنعمة الله ضد إرادته ورغبته، أو أن الله يستطيع أن يجعل الإنسان يستجيب رغماً عن رغبته. الإنسان حر في كل علاقاته بالله، وليس هناك أي إرغام يفرضه الله على إرادته. فإننا، إذا قلنا أن الإنسان مرغم، بالنعمة التي لا تقاوم على قبول نعمة الله، يصبح الإنسان مجرد لعبة في يدي الله الحي. إننا لا نعتقد أن هذا هو تعليم العهد الجديد الصحيح. الله ذو سيادة مطلقة، لكن الإنسان أيضاً حر. بل، الله ذو سيادة مطلقة، فالإنسان لذلك حر. ليست الفكرتان متعارضتان متناقضتان، بل هما متكاملتان.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إننا، لكي نبين ونبرهن صدق هذه الحقيقة، نحتاج إلى أن نلاحظ، أولاً، أن الله في تعامله مع الإنسان لا يعتدي على الحرية البشرية. يعلّم العهد الجديد بكل وضوح أنه عندما يخلص الإنسان يدخل حياة الانطلاق والعمل بحرية. قال يسوع لليهود: "إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم" (يوحنا8:31-32). إن الإنسان بدون أن يعرف الحق – حق الإنجيل- معرفة اختيارية، هو مستعبد. وعندما يعرف الحق فالحق لا يستعبده بل يحرره. يتفق بولس تمام الاتفاق مع يسوع في هذا الأمر. يقول بولس: "فإنكم إنما دعيتم إلى الحرية" (غلاطية5:13). إن علينا أن نحافظ على هذه الحرية التي إليها دعانا المسيح ولا نستهين بها بالرجوع إلى الديانة الناموسية، كما يجب ألا نستغل هذه الحرية ونتخذها ستاراً للانغماس في الإثم، إذ أنها حرية نقية حقّة. يتكلم بولس أيضاً عن "حرية مجد أولاد الله" التي ستدخلها الخليقة كلها متطهرة من فسادها (رومية8:21). وأكثر من ذلك يبين بولس الطريق إلى تلك الحرية بقوله "حيث روح الرب هناك حرية" (2كورنثوس3:17). إن آيات الكتاب المقدس هذه تبين بكل تأكيد أن الله في تعامله مع الناس لا يقضي على حريتهم. أنها تبين أن الشركة مع الله توجد للإنسان حرية وتمكن هذه الحرية وتقويها. إن ما يعنيه الكتاب المقدس بالحرية هو غير ما يفهمه بعض الناس في هذا العصر من الحرية. أنها في عرف الكتاب المقدس حرية حقيقة. وسوف نوضح لاحقاً في هذا الفصل المعنى الصحيح للحرية. على كل حال، إن حرية العمل في الحياة الروحية تعتمد على علاقة الإنسان الصحيحة بالله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هناك براهين أخرى على هذه الحقيقة لا بأس من ذكرها. نجد البرهان الأول في تلك الدعوة المتكررة في الكتاب المقدس. لا بد لمن يقرأ الكتاب المقدس من أن يلاحظ كثرة الدعوات التي يوجهها الله للإنسان. نجد هذه الدعوات متكررة في كل أجزاء الكتاب. "التفتوا إلي واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر" (اشعياء22:45). "من يرد فليأخذ ماء حياة مجاناً" (رؤيا 17:22). "تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متى28:11). إن هذه الدعوات جميعها وكثيراً غيرها في الكتاب تشهد لهذه الحقيقة وهي أن الله لا يرغم الإنسان بل يدعوه لكي يستجيب تلقائياً بملء حريته. إن القوة الوحيدة التي يستخدمها الله في حواره مع الإنسان هي قوة الإقناع التي هي نفسها الدليل على حرية الإنسان وقدرته على الاستجابة بحرية لدعوة الله. إن القول بأن الله يصادر حرية الإنسان في تعامله معه كان نقول بأن دعوات الله التي يدعو بها الإنسان ما هي إلا مهزلة. إن علينا أن نصر على أن الله لا يصادر حرية الإنسان أو يحطمها في تعامله الفدائي مع الإنسان.

البرهان الثاني الذي يؤيد حقيقة حرية الإنسان هو أن الله يدين الإنسان الذي لا يستجيب لدعواته اللطيفة. "الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد" (يوحنا18:3). تدل هذه الدينونة على أن الله يراعي حرية الإنسان ويطالبه محمّلاً إياه مسؤولية اختياراته. للإنسان الحرية والحق بأن يقضي على نفسه بعصيأنه ورفضه قبول نعمة الله، وأنه إذ يرفض تلك النعمة فهو إنما يمارس سلطته البشرية وحريته ولذلك يستحق دينونة الله. لو أن ما نقوله غير صحيح،وأن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نعمة الله ترغم الإنسان على قبولها و لا سبيل له إلى مقاومتها،ولو أن ليس للإنسان حقاً أي خيار في الأمر، فإن الله يصبح عرضة لتهمة الظلم في إدانته ومعاقبته الإنسان الذي لا يؤمن. إننا ربما نشفق على شخص لا حيلة له بين يدي من هو أقوى منه ولا يستطيع التصرف كما يريد، لكننا أيضاً لا نكاد ندين إنساناً لمجرد أن لا حول له و لا حيلة. إننا نرسل بالإنسان المعتوه الذي يقترف جريمة القتل إلى مستشفى الأمراض العقلية، لا كعقاب على فعلته، بل للمعالجة من داء الجنون. أما القاتل الذي هو مسؤول عن أعماله فيحال إلى القضاء ليحاكم ويعاقب. إذا كان الله يدين من يرفض نعمته فهو لأن ذلك الإنسان الذي يرفض النعمة يفعل ذلك باختيار حر ولذلك فهو مذنب و يستحق العقاب.

إن الاختيار المسيحي يقدم الشهادة القوية والبرهان الساطع على أن الله يتعامل مع الناس دون أن يسيء إلى حريتهم؟ عندما ننال الخلاص نحس بأن الله اختارنا مثلما نحس بأننا نحن قد اخترناه. إن شعورنا بأننا قمنا باختيار حر شعور قوي في فكر المسيحي إلى حد جعل البعض ينساقون إلى تجاهل اختيار الله وإلى إنكار عقيدة الاختيار. إن هذا التجاهل لاختيار الله غير مؤسس على فهم صحيح للاختيار المسيحي ولكنه يدل على قوة الشعور بالحرية التي يتمتع بها الإنسان في تقرير موقفه. إننا نؤمن أن الاختبار المسيحي اختبار حقيقي وأن لشهادته قيمة كبيرة في تأييد تعاليم الكتاب المقدس في الموضوع المبحوث عنه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والبرهان الأخير على أن الله لا يقضي على حرية الإنسان في تعامله معه هو في هذه الحقيقة، وهي أنه، على الرغم من كثرة الأدلة على تعامل الله مع الناس، سواء في الغضب أو في الخلاص، فليس في الكتاب المقدس أية عبارة تدل على أن الله يتجاهل في تعامله مع الإنسان إرادة ذلك الإنسان الحرة. صحيح أن بعض اللاهوتيين قدموا عقيدة الاختيار بطريقة تجاهلوا بها حرية الإنسان، ولكنهم بعملهم ذاك يناقضون تعاليم الكتاب المقدس. هنا تنطبق تعاليم بولس في رومية 9و 10 و11 انطباقاً تاماً. لقد بحثنا في هذه المقاطع من رومية في فصل سابق وذكرنا أن بولس في رسالته تلك يجيب على اعتراض اليهود على عقيدة التبرير بالإيمان. أنه يصر على أن لله الحق في أن يفعل ما يشاء بحياة الإنسان وبالطريق التي يختارها، وليس للإنسان الحق في انتقاد ما يقرر الله أن يعمله. لكن بولس قال هذا كمقدمة للفكرة بأن الله لا يتعامل واقعياً وفعلاً على أساس تعسفي مع الإنسان، أنه لا يعامل الإنسان كما يفعل الفخار بالطين والآنية الفخارية التي يصنعها. في الواقع يعامل الله الإنسان على أساس أن الإنسان كائن أدبي حر الإرادة. إن سبب رفض الله لبني إسرائيل ليس أنه أراد رفضهم بل لأن بني إسرائيل رفضوا الاستجابة لدعوات الله واستمالاته الملحة المتكررة. يتضح لنا هذا الجانب من الصورة، الذي هو في الحقيقة لب تفكير بولس، عندما نقرا كلماته في الرسالة: "طول النهار بسطت يدي إلى شعب معاند ومقاوم" (رومية 10:21).

كما أنه من الحق القول أن الله لا يحطم حرية الإنسان في تعامله معه، هكذا أيضاً من الحق القول أن الله لا يستطيع أن يحطم حرية الإنسان وفي الوقت ذاته ينجز

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

قصده فيه. إن قصد الله أن يخلص الإنسان. أنه بطبيعته قصد خلاصي افتدائي. وإن كنا نفهم ما معنى الخلاص في أسفار العهد الجديد فإننا ندرك أنه من غير الممكن أن يخلص الله الإنسان وفي الوقت ذاته يحطم حريته. الخلاص ليس صفقة آلية أو سطحية يتقرر بها مصير الإنسان بعد الموت، بل أنه صفقة ديناميكية يتغير بها خلق الإنسان وقلبه. ليس ما يهم الله أين سيقضي الإنسان الأبدية. ولكي تكون للإنسان شركة أبدية مع الله كان لزاماً أن يعمل الله ليأتي بالإنسان إلى هذه الشركة معه وليستميله إلى حياة العبادة والخدمة. وهذا يعني أن تكون للإنسان حريته في هذه العملية أو الصفقة وإلا لا يكون لها أي معنى أو نفع.إن من يرغمون على أن يخرّوا خاضعين أمام أية سلطة أو قوة لا يمكن أن يقال عنهم أنهم يحبون أو يكرهون تلك القوة. ولكي يكون لمشاعر النفس الشخصية العميقة معنى وقيمة لا بد لتلك النفس من أن تكون حرة. ما أكثر النساء في العالم اللواتي يرغبن في أن يجدن لهن أزواجاً. لكن المرأة الراغبة في الزواج تريد أن تجد من يمكنها من أن تحبه وتكرمه وتعزه، رجلاً يحبها ويكرمها ويعزها. لكن ليس من هؤلاء النساء من تريد أن تتزوج رجلاً لا يرغب في الزواج منها. أنهن يشعرن أن الزواج بالقوة ليس زواجاً أصيلاً. لا يريد الله أن يكون الإنسان مرغماً في الشركة معه. إذ، لكي تكون الشركة أو العلاقة بين الله والإنسان علاقة ذات معنى، لا بد من وجود حرية الاختيار في جميع العلاقات الشخصية، وعلى الأخص علاقة الخلاص التي هي شخصية. إن علاقة الزواج توضح هذه القضية، كذلك توضحها علاقة المعلم بتلميذه. لا يقدر المعلم، مهما كانت رغبته شديدة، أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يجعل تلميذه يتعلم، فالأمر يتوقف على التلميذ الذي يجب أن تكون لديه الرغبة في العلم لكي يتعلم. أما مهمة المعلم الأساسية فهي أن يقدم ما يخلق الدوافع في التلميذ بحيث يتنبه هذا التلميذ وتصبح لديه الرغبة في التعلم. يحتاج المعلم لأن ينجح في إقناع التلميذ إلى حد أن يستجيب هذا التلميذ تلقائياً ويقبل على التعلم، وإلا فلا يكون بالإمكان تعليمه شيئاً. لذلك نلاحظ أن الله، في تعامله مع الإنسان، لا يلغي حرية هذا الإنسان بل يحافظ عليها لكي يستطيع من خلال ذلك إنجاز قصده في ذلك الإنسان.

والآن نأتي إلى بحث الفكرة المركزية في هذا الفصل، ألا وهي: سيادة الله توجد الحرية البشرية. في الحيز الروحي في الحياة تعتمد الحرية البشرية على ممارسة الله قوته في حياة الإنسان. إن علينا، لكي نفهم هذه الحقيقة، أن نقف فنسأل: ما معنى الحرية البشرية؟ الحرية دائماً، وفي كل مجالات العمل، تتحدد بأمرين: الأمر الأول الحق في عمل شيء، والثاني القوة لتنفيذ ذلك العمل. ليست الحرية أن يختار الإنسان عمل شيء إذا كان لا يحق له أن يعمله أو إذا كان لا قدرة له على ذلك العمل. إن مجرد حرية الاختيار لا يكفي لتكون هناك حرية.

إن ممارسة الحرية البشرية يجب أن تشتمل على شيئين. أولاً، على الإنسان أن يرضخ للنظام الأدبي الذي يعيش فيه، وإلا إذا تصرف بحرية ضد ذلك النظام يجد مقاومة من قوى خارجية تنكر عليه حريته. إن من يخالف القوانين في المجتمع البشري يخسر حريته إذ يلقى به في السجن. بل حتى الإنسان الذي لا يخالف القوانين المرعية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يجد أن حريته مقيدة فلا يجد أن بالإمكان التعدي على حقوق الآخرين. إن هذا هو الواقع في هذا العالم الذي هو عالم العلاقات الشخصية المتبادلة. إن حريتنا في العمل وفي الاختيار تصطدم دائماً بحقوق الآخرين. وكما أن للناس حقوقاً فإن لله أيضاً حقوقاً في حياتنا. إنه خالقنا والسلطان الأعظم على الكون ومصدر كل بركة، وعلى كل إنسان واجب مراعاة حقوق الله في حياته. عندما سلط الله الإنسان الأول على الأرض أعطاه حق السيطرة على كل الأشياء ما عدا نفسه. لقد أبقى الله لنفسه حق السيطرة على الإنسان، ولذلك، على كل إنسان واجب مراعاة حقوق الله فيه وأن يخضع نفسه ويسلم حياته لله.

طبعاً، يستطيع الإنسان أن يرفض مراعاة حقوق الله على حياته. للإنسان الحرية أو السلطة في أن يدمر نفسه إذا شاء ذلك. لكن الواقع هو أن الإنسان بممارسته مثل تلك السلطة بما يتعارض مع الحق أو الصواب يورط نفسه دائماً ويعرضها لنتائج رهيبة. إن رفض الإنسان الفرد لحقوق الله على حياته لا يؤدي إلى حرية بل إلى عبودية. الله لا يبادر حالاً لمعاقبة الخاطئ لدى اقترافه كل ذنب، وقد تكون معاقبة الخطيئة في الحاضر هي هذا الاستعباد للخطيئة أو هذه السيطرة على الإنسان من الجانب المنحط في ذاته. وكلما أمعن الإنسان في رفضه نعمة الله وحقوق الله في حياته كلما ازدادت عبوديته. وهكذا نجد أن الممارسة الخاطئة لحق الاختيار، سواء في المجال الروحي في الحياة أو في أي مجال آخر، تؤدي إلى تدمير الحرية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما الشيء الثاني الذي يجب أن تشتمل عيه ممارسة الإنسان للحرية فهو أن تكون لديه بالفعل القوة على عمل ما يختار أن يعمله علماً بأن اختياره اختيار حق من الناحية الخلقية. مثلاً، لا يختار أحد أن يقفز إلى القمر لأنه أصلاً لا يستطيع ذلك. وإننا هنا نصل إلى حيث نستطيع القول أن نعمة الله تخلق الحرية في الإنسان، إذ أن كل إنسان هو في عبودية للخطية. فقد جاء كل إنسان إلى هذا العالم وعمل وتصرف بشكل ورطه في عمل الخطية وفي الاستعباد لها. "إذ الجميع اخطئوا وأعوزهم مجد الله" (رومية3:23). إن هذا يعني إن الإنسان في حالته الخاطئة وبطبيعته الذاتية يقف في مواجهة حقيقية رهيبة. إن عليه أن يسلم حياته لله، ولكنه لا يستطيع ذلك. إن قواه الروحية فاسدة ومحطمة بسبب وجود الخطية إلى حد يجعله عاجزاً عن تحطيم قوة الخطية وتحرير نفسه منها. من الممكن أن يبدي رغبة وتشوقاً للتسليم لله، ولكنه يعجز عن الانتصار على نفسه. إن محنة الإنسان المخيفة هذه يبينها الإصحاح السابع من رسالة رومية حيث يشير الرسول بولس إلى عجز الإنسان الذي يجاهد بقوته الذاتية ضد الخطية. يكشف الرسول عن هذه الحالة باختصار بهذه الكلمات: " فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ولكن أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي" (رومية7:22-23). وهكذا نجد أن الإنسان الذي يعيش في الخطية، والذي رفض سلطان الله على حياته، ليس في الحقيقة إنساناً حراً أبداً. أنه يعيش وليس له غير خيار واحد، فهو لا يجد بداً من أن يختار الخطية وينحط إلى الدرك الأسفل إلى أعماق حماة البشر. ثم هو إنسان غير سعيد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لأنه يعرف أن طريق الحياة التي يسلكها طريق مغلوطة ولن يستريح له ضمير بالنسبة لحياته.

ثم تأتي نعمة الله. يجابه الله الإنسان بأن يعرض عليه إمكان نوال الخلاص بالإيمان بيسوع المسيح. لقد وعد الله أن يهب الإنسان القوة فيتحطم قيد الخطية الذي يقيد حياة الإنسان الخاطئ. ولأول مرة منذ أن أصبح الإنسان كائناً مسؤولاً أمام الله يجد أن أمامه اختيارين. فهو يستطيع آن يرفض نعمة الله ويواصل السير في الخطية إلى دماره وهلاكه، ولكنه يستطيع أيضاً، إذا شاء، أن يرفض خطيته ويسلم نفسه لله ويجد طريق الخلاص. لا نقدر حقاً أن نقول أن الإنسان حر دون نعمة الله، فهو في تلك الحال يفتقر إلى قوة التصميم. أنه بالطبيعة مستعبد وليس له خيار في ذلك، ولا يقدر أن يجد بديلاً لعبوديته. هذا لا يعني أنه غير مسؤول عما هو فيه، أنه مسؤول. لكننا نقول أن لا حول له على تغيير حاله. وأنه ليظل كذلك، غير أن الله يقوم بتحرك افتدائي في حياته ويفتح أمامه إمكاناً آخر ومنفذاً. لذلك يستطيع الإنسان، عن طريق نعمة الله، أن تكون له الحياة بدلاً من الموت، والحرية بدلاً من العبودية، والسماء بدلاً من جهنم. عليه الآن أن يختار، وأمامه لأول مرة إمكان اختيار خط سيره في الحياة. أنه فعلاً يختار طريقه، والله يتركه حراً ليختار ما يريد أن يختاره. صحيح أن الله يستخدم كل تأثير ممكن ليجتذب الإنسان إليه ليختار هذا الإنسان الاختيار الصحيح تلقائياً، إلا أن الله لا يرغم الإنسان في أي من الاختيارين. ومع أن الله على استعداد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

دائماً لنصرة الإنسان الذي يريد أن يختار الاختيار الصحيح فإنه تعالى لا يستخدم قوته لإرغام القلب الذي لا يريد مثل ذلك الاختيار.

بهذا المعنى فقط نستطيع القول أن جميع البشر كائنات حرة الإرادة خلقياً. وأن الله هو الذي أوجد في الإنسان هذه القدرة على الاختيار الحر، وهو تعالى لا يخرق هذه الحرية أبداً. لأنه، لو كان الله لم يقم بتحرك افتدائي في تاريخ البشر فكسر قوة الخطية بواسطة ذبيحة المسيح على الصليب، لما كان إنجيل النعمة ولما كانت حرية العمل. إن الإنسان الآن حر ليقرر مصيره وذلك بفضل نعمة الله السائدة المهيمنة هذه. إن الإنسان، من جهة، ليس حراً أن يرفض نعمة الله، فهو لا يحق له أن يرفضها. ولكن لهذا الإنسان القوة والإمكان أن يرفض هذه النعمة، وهو إذا رفضها لا يبقى له أي عذر في هلاكه ولا يقدر أن يلوم غير نفسه.

ومما تجدر ملاحظته أيضاً أن الإنسان الذي يمارس حقه في الاختيار فيقبل نعمة الله ويستسلم لحكمه هو، في الحقيقة، الشخص الذي وجد الحرية الكاملة. لكن الإنسان الذي يرفض حكم الله وسيطرته على حياته يظل تحت العبودية. قد يبدو هذا متناقضاً للبعض، إذ أن الإنسان الذي يرفض حكم الله في حياته لا يستشير غير نفسه في التصميمات الفردية التي يقوم بها بعد رفضه حكم الله. لكن الحقيقة هي أن مثل هذا الإنسان مستبعد للخطية إلى حد أنه ينساق بطبيعته دائماً في أي اختيار يقوم به. ليس السؤال الحقيقي هو: ما نوع هذا السيد؟ هناك فرق بين أن يعيش الإنسان في بلد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حر ويدين بالولاء لذلك البلد لأنه يخضع للدوافع الوطنية في داخله، وبين أن يعيش في بلد مستعبد فيخضع لحكم ديكتاتوري ولسلطة طاغية. الإنسان الذي حصل على اختبار الخلاص يعيش حراً في أرض نعمة الله. صحيح أنه يخضع لحبه لله ويتخذ قراراته مدفوعاً بالرغبة في عمل ما يريده الله منه، لكنه مع ذلك حر وغير مستعبد.

إذا بدا هذا لك متناقضاً، تذكر أن هذا النوع من التناقض الظاهري يتخلل جميع نواحي الحياة. الحرية تقوم دائماً على الخضوع لنظام من النوع الصحيح. يصدق هذا على الرياضي الذي يسعى دائماً للتفوق في حقل رياضته. فهو، لكي يبلغ الكمال في حقله، يحتاج أن يخضع نفسه لأقسى أنواع التدرب والانضباط. قد تراوده الرغبة يوماً في الاستمتاع بطيّب الطعام، ولذيذ الاسترخاء والراحة، بدلاً من مواصلة التمرن القاسي، لكنه لا يجرؤ على أن يعطي نفسه ما تهوى. إن عليه أن يقاوم رغباته ويدرب نفسه باستمرار استعداداً للسباق. وإذ يفعل هذا كله يكون حراً بشكل لا يحلم به الإنسان غير المتدرب. أنه حر وبتلك الحرية ينجز في حقله الأشياء التي كان يسعى إليها ويحلم بها. ينطبق هذا المبدأ أيضاً على عازف البيانو. فلكي يستطيع هذا أن يكون حراً قادراً أن يجلس فيعزف على البيانو أي لحن يحبه عليه قبل ذلك أن يخضع نفسه لنظام الدرس القاسي والتدرب المتواصل إلى أن يتقن ذلك الفن. قد يجد أن عليه، في أثناء تدربه، أن يرفض الرغبات المختلفة التي تتجاذبه في سبيل التركيز على الرغبة الواحدة التي يقصدها، لكنه أخيراً يجد أنه أضحى حراً ليعمل ما يريد. نرى مثالاً على هذا أيضاً في حقول العلم الطبيعي، والسياسة، والأدب، وغيرها. إن الأحرار هم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أولئك الذين على استعداد للخضوع للمبادئ والقيام بالأعمال التي لا غنى عنها لإتمام المنجزات. ويصدق هذا أيضاً في الحقل الروحي. ذلك الإنسان حر، الذي، لأنه سلم حياته لله، يجعل اختياراته تتفق مع إرادة الله. أنه حر لأجل شيء، وذلك الشيء هو إنجاز لرغبات قلبه وإتمام لها. ويجد أنه كلما ازداد تسليماً وقبولاً للحياة المنضبطة كلما أصبح أكثر حرية. ربما يصح أن نطلق على هذا اسم الحرية الإيجابية وهي الحرية التي من أجلها خلق الله الإنسان في البداية. أنها ليست الحرية السلبية، الحرية من شيء ما، بل الحرية الايجابية لأجل شيء ما.

إن كل الاعتراض على حكم الله وسلطانه، المبني على الفكرة القائلة بأن قصد الله يخرق حرية الإنسان، لهو اعتراض مبني على أساس زائف. إنه اعتراض يتجاهل حقائق معاملات الله مع الناس كما يتجاهل طبيعة اختبار الخلاص، ولكن الأخطر من كل ذلك كونه يتجاهل معنى الحرية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الرابع عشر

قصد الله والوسائل البشرية

الله لا يتجاهل الوسائل البشرية عند إنجاز قصده بل بالأحرى يستخدم تلك الوسائل. أنه من جوهر تعليم العهد الجديد أن الله يستخدم الأداة البشرية في إتمام خطته في العالم، فنراه يختار أدوات خاصة للقيام بمهمات خاصة. إن هذا ليشجعنا على المضي في جهادنا ضد العدو، إبليس. وكما في موضوع الخلاص، استخدام الله هذا لا يخرق حرية المؤمن. بل، على العكس، إن أساس حريته هو أن ينجز شيئاً لله في العمل الذي يقوم به. هناك مسائل مختلفة تستحق أن ننتبه إليها ونحن نفكر بقصد الله وبعلاقته بالوسائل البشرية. إن أولى هذه المسائل هي تثبيت حقيقة أن الله يفعل ذلك دائماً ولا أنه مضطر لذلك، بل نقول أن ذلك ما يفعله عادة، وأنه أسلوبه المعتاد في عمله في العالم.

إننا نجد أمثلة كثيرة في أسفار العهد الجديد توضح لنا كيف استخدم الله خدامه لينجز قصده في العالم. فعندما ندرس حياة المسيح ربنا كما عاشها على الأرض يبرز أمامنا كيف أنه أعد تلاميذه لكي يتمموا إرادة الله في حياتهم. ونجد التشديد في كل موضع في العهد الجديد على أن المسيح دعا أولئك التلاميذ لا لكي يحصلوا على بركة بل لكي يصيروا بركة. يبدأ مرقس كتابة إنجيله بدعوة التلاميذ الأربعة الأولين ليصبحوا أتباعاً ليسوع، وبكلمة يسوع لأثنين منهم: "هلمّ ورائي فأجعلكما تصيران

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

صيادي الناس" (مرقس17:1). لاحظوا أن دعوة يسوع هذه لتلاميذه كانت دعوة نبوية. لقد أنبا أن تلاميذه سيصيرون شيئاً لم يكونوا قد صاروه بعد، أي صيادي الناس. فكأنه كان يقول لهم بذلك أنه سيدربهم ليعملوا عمل الله. وإذا تتبعنا خطى المعلم وراقبنا الجهود التي بذلها ليصيّر تلاميذه صيادي الناس يتضح لنا تماماً ما كان يسعى إليه. نجده يعلمهم مبادئ ملكوت الله الأساسية، ويرسلهم في رحلات تدريبية ليبشروا، ويدعوهم ليستخدموا قوة الله ويعلنوا قرب الملكوت، ويحذرهم من الأخطار التي تنطوي عليها التلمذة، محاولاً تعليمهم المعنى الصحيح للتتلمذ له. إن تلميح يسوع إلى تلك الأخطار واضح في إحدى عباراته حيث يتكلّم عن حمل الصليب (متى 16:24-25). لقد انتزع منهم اعترافاً بأنه مسيح الله، ثم فسر معنى رسالته مشيراً بذلك إلى موته القريب الحدوث على الصليب. وعندما انتهره بطرس مستبعداً ومستنكراً موت المعلم رد يسوع ذلك الانتهار، وفسّر معنى التلمذة فقال أنها تتضمن حمل الصليب. وقصد يسوع بهذا التفسير إلى القول أن مهمتهم في العالم هي كمهمته، أي عمل إرادة الله ولو كلف ذلك التضحية بالنفس. إن إتمام الحياة أو تحقيق أهدافها لا يكون إلا بأن ينسى الإنسان نفسه ويبذلها من أجل الآخرين. وكان عسيراً على التلاميذ فهم هذا التفسير أو القبول به، وذلك لسببين. السبب الأول هو أنهم لم يقبلوا بالصليب كهدف يسير إليه المسيح. والسبب الثاني هو أنهم كانوا ينظرون إلى التلمذة من حيث هي امتياز ومركز في الملكوت القادم. ونجد يسوع يشدد، ويعود إلى التشديد مرة، وأكثر من مرة، على هذا التعليم العظيم المتعلق بمعنى التلمذة، ونراه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

باستمرار يربط بين تلك التلمذة ومهمته هو وأسلوب إنجازها في العالم. كما نراه بعد موته وقيامته يعود من جديد إلى هذا التعليم المركزي المتعلق بمعنى حياة التلميذ.

أمامنا فيما يتعلق بهذا البحث ثلاث آيات تستحق الملاحظة. الآية الأولى في يوحنا16:15 وهي تتعلق بموضوع التلمذة ولو أنها جاءت قبيل موت يسوع. يقول يسوع: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم." إن هذه الآية مليئة بالمعنى. إنها تصرّح بأن المبادرة في الدعوة إلى التلمذة جاءت من المسيح لا من التلاميذ أنفسهم وإن الغاية من دعوتهم لم تكن لكي يستمتعوا بعلاقتهم بالله بل ليخدموا في ملكوت الله فيأتوا بثمر. ثم لهم الوعد أن يصلوا فينالوا العون من الله لكي يستطيعوا الإتيان بذلك الثمر. فهذه هي كلمات يسوع (يوحنا 23:16) : "إن كل ما طلبتم من الأب باسمي يعطيكم." وبالمناسبة تجدر الملاحظة أن معنى الصلاة وقوتها يجب أن يفهما دائماً بعلاقتهما الجوهرية بالخدمة في ملكوت الله. هناك آية أخرى في الكتاب المقدس ترد حيث يجري ذكر ظهورات المسيح بعد القيامة، والآية هي:"جاء يسوع...وقال لهم: سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا" (يوحنا 21:20). يصرح يسوع بهذا بأن علاقة تلاميذه به ستكون كعلاقته بالآب. ولو أننا جئنا بآية أخرى مع هذه الآية فإنها توضح لنا كنه هذه العلاقة. "فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل." (يوحنا 17:5). الفكرة هي أن عمل يسوع كان عمل الآب، وأنه كان موجهاً بإرادة الآب ومدعوماً بحضوره في حياته. وأننا إذا ما تأملنا في هذه الحقيقة وفي كلمات يسوع بعد القيامة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نتعلم أن مهمة التلاميذ في العالم هي أن يعملوا عمل الله بتوجيه من الله وبدعم من قوته. وكلمات يسوع المذكورة، إذ تجيء بعد آلامه على الصليب في الجلجثة، تبين أن طريق الخدمة هي طريق الآلام المنتصرة. ثم نجد آية أخرى تبين أن خدمة التلاميذ كان لا بد من أن تكون جزءاً لا يتجزأ من حركة الفداء الإلهية، تلك الحركة التي بلغت ذروتها في الصليب و التي انتشرت في كل العالم بواسطة كرازة التلاميذ. ترد هذه الآية في لوقا 44:24 – 49 . كان يسوع بهذه الكلمات يفسّر آيات العهد القديم مبيناً علاقتها بموته في الجلجثة، ويظهر أن موته ذاك كان ذروة حركة فداء الله في العالم. ثم يقول بعد ذلك أن موته جعل بالإمكان "أن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم." ثم نجده يصف مركز التلاميذ في حركة الفداء هذه بقوله: "وأنتم شهود لذلك." لكنه يحذرهم من أن يحاولوا القيام بهذا العمل بقوّتهم، ويدعوهم لينتظروا في أورشليم" إلى أن تلبسوا قوّة من الأعالي."

إننا نرى ، إذا، أن جانباً من جهد يسوع كان أن يدعو إليه جماعة من التلاميذ و يدربهم لكي يصبحوا في العالم الباب للحركة الجديدة التي ندعوها باسم ملكوت الله. لقد أعدهم عن طريق تعليمه وعن طريق قدوته لكي يدركوا بأنهم كانوا الأدوات التي يستخدمها الله في إتمام عمله الفدائي في العالم. إننا نفهم أن أولئك التلاميذ الأولين كانوا أمثلة لكل التلاميذ في ملكوت الله في المستقبل، و إن قصد الله هو أن ينجز عمله مستخدماً خدّامه أولئك كأدوات، الذين كانوا سيجدون الإرشاد و القوة بواسطة حضور الله في حياتهم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لقد أفلح التّلاميذ في تعلمهم الدرس فذلك واضح في سجل العهد الجديد الذي يروي قصة نشاطهم الذي قاموا به. لقد كتب لنا لوقا أوفى قصة لانتشار الإنجيل من أورشليم إلى رومية مستهلاً كتابه بالقول "الكلام الأول أنشأته، يا ثاوفليس، عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلّم به" (أعمال1:1). إن هذه العبارة لتوحي بأن إنجيل لوقا يتضمن سجلاً لأقوال يسوع وأعماله الأولى، وإن سفر أعمال الرسل يتضمن بقية أقوال يسوع وأعماله، بل الاستمرار لتلك الأقوال والأعمال. حقاً لقد صار يسوع، بعد قيامته، يتكلم بأفواه أتباعه وحياتهم بدلاً من حضوره عياناً في الجسد، وإذا كانوا يحيون ويتكلمون كان، في الحقيقة، هو الذي يحيا ويتكلم فيهم ويعمل بواسطتهم. وإذا تتبعنا السجل الذي كتبه لوقا شارحاً فيه تاريخ الحركة المسيحية، نلاحظ بعين الإيمان أن بطل تلك القصة هو الله وليس الرسل. فإن الذي عمله أولئك الرسل كان عمل الله منفذاً بواسطة الناس.

وأننا نلاحظ في أول قرار اتّخذه التلاميذ ككنيسة ما يدل على شعورهم بقيادة الله لهم. كان يهوذا قد خان سيده، فوجد التّلاميذ أنه لا بد من انتخاب تلميذ آخر ليحل محلّه. تكلّم بطرس في هذا الاجتماع الكنسي الأول من نوعه وبيّن الحاجة لانتخاب شخص يخلف يهوذا، وذكر الصفات التي يجب أن يتحلّى بها ذلك الشخص. عند ذلك سمت الكنيسة اثنين كانت تجتمع بهما الصفات المطلوبة. ثم "صلّوا قائلين: أيها الرب العارف قلوب الجميع عيّن أنت من هذين الاثنين أيّاً اخترته ليأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التي تعداها يهوذا ليذهب إلى مكانه" (أعمال 25،1:24). تبيّن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذه الصلاة بوضوح أن التلاميذ كانوا يقومون بذلك العمل الكنسي ولديهم الشعور بأن عملهم كان عمل الله، وأن الله كان مهتماً بالكيفية التي بها يعلمون، وأنه اختار الوسائل لإنجاز ذلك العمل، وأنه سيقدم للتلاميذ القوة التي يحتاجون إليها، إن التلاميذ، في طلبهم إرشاد الله وإتباعهم ذلك الإرشاد في كل ما كانوا يفعلونه، وضعوا المثال الذي سار التلاميذ بموجبه في كل الأعمال التي ورد ذكرها في كل سفر الأعمال.

كان يوم الخمسين نقطة بداية جديدة في عمل الله الذي عمله بواسطة شعبه. في ذلك اليوم صار حضور الله ظاهراً ظهوراً تاماً في حياة البشر لأول مرة في التاريخ. إن القصة مألوفة ويعرفها كل قارئ، لكن مغزاها يغيب أحياناً عن الذهن بسبب التشديد الزائد على النواحي المنظورة الخارجية- على صوت هبوب الريح العاصفة والألسنة المنقسمة كأنها من نار. لكن المهم هو أن الجميع "امتلئوا من الروح القدس وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" (اعمال2:4). لاحظ أن القوة حلّت على جميعهم، لا على بطرس وحده، وأنهم جميعاً اشتركوا في تقديم الشهادة بلغات أخرى غير تلك التي كانوا يعرفونها، وأنهم جميعاً شعروا بقيادة الروح القدس لهم في تكلمهم. أما هذه الظواهر كانت تحتاج إلى تفسير ما، فتقدم البعض بتفسير أرضي –قالوا أن التلاميذ كانوا سكارى. لكن بطرس أعلن التفسير السماوي الصحيح عندما قال أن الذي جرى كان إتماماً لنبوة يوئيل النبي التي تقول بأن الله في الأيام الأخيرة سيسكب روحه على الناس حتى أن الكل يستطيع الاشتراك في عمل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ملكوته (اعمال2:17-21). وإذا كان بطرس قد اجتذب إصغاء الجميع، راح يلقي بوعظة إنجيلية تبشيرية، وهي الموعظة التي أصبحت مثالاً للشهادة المسيحية في تلك الحقبة. لقد كانت نتيجة تلك الموعظة أن السامعين جميعاً نخسوا في قلوبهم (تعمال2:37) – ويبين سفر الأعمال أن هذا كان بفضل الروح القدس الذي أيد إلقاء الموعظة بقوة- وإذا سألوا عما يجب أن يفعلوه لكي يخلصوا أخبرهم بطرس عن طريق الحياة. كانت هذه الموعظة فاتحة لفترة نمو ونشاط في الكنيسة في أورشليم، تلك الفترة التي اتّسمت بالنشاط البشري، والتي فسّرت في الوقت ذاته بهذه العبارة: "وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون" (اعمال2:47). ليس من شك أن هذه العبارة تشير إلى أن نشاط الكنيسة كان عمل الله وأن القوة الفعّالة كانت بين يدي الله.

لا نجد ضرورة للبحث بالتفصيل في كل سفر الأعمال. ولكن تكفي الإشارة إلى أن هذا السفر يعبق بالحضور السماوي، حضور الله في الآنية الأرضية التي هي البشر. شفى بطرس ويوحنا رجلاً أعرج، وفسّر بطرس تلك المعجزة بقوله: "أيها الرجال الإسرائيليون، ما بالكم تتعجبون من هذا ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقوتنا أو بتقوانا قد جعلنا هذا يمشي؟ إن إله إبراهيم واسحق ويعقوب إله آبائنا مجّد فتاه يسوع... وبالإيمان باسمه شدّد اسمه هذا الذي تنظرونه" (أعمال 3:12، 13،16). وعندما طلب الرؤساء والشيوخ منهما الكف عن التكلّم للناس عن يسوع رفضا ذلك. رجعا إلى الكنيسة وأخبراها بما جرى وبتهديد الرؤساء والشيوخ، فرفعت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكنيسة إلى الله صلاة كان يغمرها الشعور بسلطان الله المهيمن على التاريخ وبحضوره الحي في وسط شعبه. لقد طلب أولئك المؤمنون في صلاتهم أن يعطوا قوة وشجاعة ليواصلوا تقديم الشهادة، وأن يؤيد الله جهودهم بقوته (اعمال4:23-30). ونجد سجل ذلك الزمن الغابر، زمن الكنيسة الناشئة، محاطاً بجو حضور الله وقوته في العمل الذي قام به أولئك المؤمنون.

يمكن إيراد حادثتين أو ثلاث حوادث بارزة في تلك الفترة الغابرة، فنبين فيها كيف استخدم الله خدّامه لينجز قصده في العالم. الحادثة الأولى هي قصة فيلبس، أحد الشمامسة الأولين، الذي اختارته الكنيسة لأنه كان والذين معه "مملوئين من الروح القدس وحكمة" (اعمال6:3). بعد موت استيفانوس شهيداً ذهب فيلبس إلى نواحي السامرة ليكرز بالبشارة. وبواسطته افتقد الله تلك المنطقة وعمل بقوته فآمن كثيرون بالمسيح. وبدا لفيلبس كأن السامرة هي مكان خدمته لكن الرب وضع على قلبه أن يذهب إلى الجنوب إلى الطريق النازلة غزة. كانت تلك الطريق تسير في أرض مقفرة لا ساكن فيها، وكان من الصعب على المرء أن يرى الحكمة في الانتقال إلى هناك، ولكن كان لله قصد في ذلك. وصل فيليبس إلى الطريق المذكورة وإذ به يلتقي برجل حبشي عائد من أورشليم إلى بلده إثيوبيا، وكان الرجل وزير المال في تلك المملكة. دعا الروح القدس فيلبس إلى مرافقة ذلك الوزير الأثيوبي، وكان الوزير يقرأ في سفر أشعيا النبي، ففسر له فيلبس معنى الفصل الذي كان يقرأه وبشره بيسوع الذي هو المسيح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المنتظر. وإذ آمن الوزير ورغب في أن يعتمد عمّده فيلبس (أعمال8:26-40). تبين هذه القصة الطريقة التي يجمع الله بها بين شهوده وأولئك المستعدين لقبول شهادتهم.

هناك حادثة أخرى مشابهة لهذه ولكنها أعظم أهمية لأن بها وصلت الشهادة لأول مرة من الكنيسة إلى العالم الوثني وتلك هي قصة بطرس وكرنيليوس التي ترد في سفر الأعمال الإصحاح العاشر. كان كرنيليوس رجلاً تقيّاً، أي أنه كان يؤمن بتعاليم العهد القديم، ولكنه لم يعتنق الديانة اليهودية اعتناقاً تاماً. كان حسب ما يظهر، متشوقاً لمعرفة الحق، فتدخل الله ودبر أن يوصل إليه معرفة طريق الخلاص. لقد أرسل الله إليه ملاكاً فكلمه وقال له أن يرسل إلى بطرس في يافا ويستدعيه إلى بيته. وبين ما كان رجال كرنيليوس سائرين من قيصرية إلى يافا تعامل الله مع بطرس لإعداده للذهاب إلى كرنيليوس. كان كرنيليوس أممياً (من غير أمة اليهود) وكان من الضروري إقناع بطرس بأنه ليس هناك في نظر الله أمة نجسة وأخرى طاهرة. لذلك أظهر الله لبطرس، وهو يصلي، رؤيا خاصة. وإنك لتلاحظ كيف أن الصلاة تربط بشكل محدد بين الذي يصلّي والتحركات الإلهية. وكانت النتيجة أن بطرس رضي بأن يذهب إلى بيت كرنيليوس، وهناك بلّغه رسالة الإنجيل، فآمن كرنيليوس والذين كانوا في بيته فظهرت عليهم علائم اختبار الخلاص، وهي تلك التي صاحبت حلول الروح القدس في يوم الخمسين. بعد هذا عمد بطرس أولئك الذين آمنوا. وهكذا نرى مرة أخرى كيف يأخذ الله بزمام المبادرة فيجمع بين خادمه الذي يشهد له وبين من هم على استعداد لقبول الشهادة والبشارة.إن التأمل في هاتين القصتين قد يزيح عن كاهل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البعض شيئاً من الهم والتساؤل عن مصير الأمم التي لم تسمع البشارة ولم يبلغها الإنجيل إننا نشعر أنه عندما يكون الإنسان الوثني مستعداً لقبول الإنجيل، سواء في البلد الذي نحن فيه أم في أي بلد آخر، فإن الله سبحانه وتعالى يتدخل فيدبر إيصال الإنجيل إلى ذلك الإنسان.

إن حادث تجديد شاول الطرسوسي يبدو للبعض خروجاً استثنائياً على القاعدة القائلة بأن الله مضطر لاستخدام الوسائل البشرية دون سواها وأنه دائماً يستخدم تلك الوسائل، وإنما نقول أن ذلك ما يفعله الله عادةً. لكن يجب ألا نظن أن تجديد بولس كان خروجاً على القاعدة. تذكر أن هذا المعلم اليهودي الشاب كان قد شاهد استفانوس وسمع شهادته للإنجيل. ولا شك في أنه كان قد حضر بعض مباحثات استفانوس مع اليهود في مختلف المجامع في أورشليم، وكان بكل تأكيد حاضراً عندما قدم استفانوس دفاعه العظيم أمام مجمع السنهدريم، وكان حاضراً أيضاً عندما مات استفانوس شهيداً، وقد رآه وهو يرقد بعد أن أعلن أنه كان يرى يسوع واقفاً في مجده. بعد هذه الخلفية من الشهادة الشخصية نجد شاول يسير إلى دمشق مدفوعاً إلى أشد حالات التطرف بدافع من ضمير مضطرب. وبينما كان شاول في الطريق أراه الله نوراً سماوياً فتغير وأصبح حاملاً لرسالة جديدة. فإن سفر الأعمال يقول أن الله أعلن لدى تجديد شاول أنه سيكون إناء مختاراً للرب ليحمل اسمه أمام أمم وملوك بني إسرائيل (أعمال 9: 15).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وشاول، الذي صار يدعى بولس، لم يفارقه قط ذلك الشعور بأنه حقاً كان إناءً مختاراً، وأن حياته يجب أن تبقى خاضعة للرب الذي كان بولس يعمل عمله. وبفضل وجود السجل الوافي في أسفار العهد الجديد لاختبارات بولس، الخارجية والداخلية، فإننا نستطيع أن نقرأ بوضوح عن كيفية عمل الله في حياته وبواسطتها أكثر مما يمكننا أن نقرأه عن سواه من المسيحيين، ولكن يجب ألا نظن أن اختباراته كانت مختلفة في نوعها عن اختباراتنا. ويشهد العهد الجديد أن اختبارات بولس، وإن كانت غير عادية من حيث مقدار هيمنة الله عليها، فهي تتفق مع اختبارات المسيحيين الآخرين من حيث الجوهر. ولا حاجة لنا هنا لأن نسرد قصة حياة بولس كلها، ولكن يكفي أن نشير إلى بعض الأحداث البارزة فيها والتي تؤكد على الحقيقة التي نحن بصدد البحث فيها، ألا وهي أن الله يستخدم وسائل بشرية كي ينجز قصده الإلهي.

إننا قد نمر بحياة بولس ولا نذكر شيئاً عن اختباراته في دمشق، وفي أورشليم، وخلال السنوات السبع التي قضاها في طرسوس بمنطقة كيليكية، مع أننا نفترض أن الرب كان يقوده بكل وضوح طوال كل تلك السنين، وعلى الأخص إذا كان الاختبار المذكور في رسالة كورنثوس الثانية 12: 1-10 (حيث يقول أنه اختطف إلى الفردوس)، قد جرى معه في أورشليم خلال تلك الفترة. لكننا نريد أن نركز على اختبار بولس في أنطاكية وفي رحلاته التبشيرية. لقد بذل برنابا جهوداً طيبة فأتى ببولس من كيليكية إلى أنطاكية، إذ كان يشعر أن بولس هو رجل الساعة الذي سيستخدمه الله، وهكذا عمل الاثنان معاً، بولس وبرنابا، في أنطاكية فترة من الزمن.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم نجد في أعمال 13 كيف دعا الرب بولس وبرنابا ليخرجا كمرسلين من أنطاكية إلى العالم. إذ كان بعض الشيوخ في أنطاكية يصلون "قال الروح القدس، افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه" (أعمال 13: 2). أثار البعض السؤال عما إذا كان الله قد كلم تلك الجماعة من الوعاظ في أنطاكية مباشرة، أو أنه كلمهم بواسطة أحدهم الذي نطق آنذاك لكلام الله. الحقيقة أنه ليس مهماً الإسلوب الذي به بين الله مشيئته، فلا فرق إن كان ذلك جرى بصوت مسموع من السماء، أو بحلم أو رؤية، أو بكلام ملهم نطق به أنبيائه. المهم أن أولئك الرجال عرفوا صوت الله فقبلوا أمر الله بلا تردد وأرسلوا الرجلين ليعملا عمل الله. وكانت الرحلة ناجحة جداً وأدت إلى إيصال الإيمان المسيحي وتأسيسه في مواقع هامة متعددة في آسيا الصغرى. عاد بولس وبرنابا وصعدا إلى أورشليم، وهناك شرحاً أمام الكنيسة ما جرى في رحلتهما، أما أفراد الكنيسة فاهتموا بذلك "وكانوا يسمعون برنابا وبولس يحدّثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواستطهم" (اعمال12:15).

لقد جرى في هذا المجمع الكنسي ذاته الذي انعقد في أورشليم، والذي فيه بذلت الجهود للوصول إلى اتفاق بالنسبة للمؤمنين الآتين إلى الإيمان من الأمم وعلاقتهم بالنّاموس اليهودي، أو ربما جرى في وقت سابق في هذا المجمع، أن الكنيسة قررت أنّ الله أناط ببطرس مهمة تبشير اليهود وأناط ببولس مهمة تبشير الأمم (غلاطية2:7). النقطة الهامة في هذه الأمور جميعها هي أن الكنائس آنذاك كانت تسعى لتعرف قيادة الله وإرشاده في جميع شؤونها وتلتزم بتلك القيادة. لقد كانوا على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

استعداد لتناسي التعصّب والتحامل، وللنهوض حالاً للعمل بموجب ما يجدون أنه إرشاد الرب وقيادته. لقد كانوا يشعرون أنهم كانوا يعملون عمل الله بقيادته وقوته.

ولا بد لنا من أن نلاحظ أيضاً أن قيادة الله لم تنحصر في القضايا العامة لعمل الكنيسة بل كانت أيضاً في قضايا الفرد الخاصة والتصميمات الفردية التي يقوم بها. نجد مثالاً بارزاً على هذا في ما جاء في العهد الجديد عن الرحلة التبشيرية الثانية. بعد أن عاد بولس فزار الكنائس التي تأسست في رحلته الأولى جاءه إرشاد من الله للدخول إلى أوروبا بالإنجيل. "وبعد ما اجتازوا في فريجية وكورة غلاطية منعهم الروح القدس أن يتكلموا بالكلمة في أسيا. فلما أتوا إلى ميسيا حاولوا أن يذهبوا إلى بثينية فلم يدعهم الروح. فمرّوا على ميسيا وانحدروا إلى ترواس. وظهرت لبولس رؤيا في الليل، رجل مكدوني قائم يطلب إليه ويقول: اعبر إلى مكدونية وأعنّا. فلما رأى الرؤيا طلبنا أن نخرج إلى مكدونية متحققين أن الرب قد دعانا لنبشرهم" (اعمال16:6-10). يتبين من هذه الآيات أن بولس ورفقاءه شعروا في ثلاث مناسبات أن الرب كان يقودهم ويعين لهم المكان الذي يخدمونه فيه. فإنهم قد منعوا من دخول آسيا وبيثينيا في رحلتهم هذه وقادهم الله للتوجه إلى مكدونية. ولا يهم هنا كيف جاءهم صوت الله، أجاءهم عن طريق أناس ملهمين أو مباشرة (كما جرى مرة عندما أرى الله بولس رؤيا في الليل)، فالأمر المهم هو أنهم عرفوا صوت الله وعملوا بإرشاده لهم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لقد استعرضنا هذه الحقيقة وهي أن الله يستخدم وسائل بشرية لينجز قصده في العالم، ونستطيع الاستمرار في ذلك إلى ما شاء الله، إذ أن فصول الكتاب المقدس التي تتحدث عن تقدم المسيحية مملوءة بهذه الفكرة، لكننا لسنا في حاجة للمزيد من البحث في القضية. لكن علينا أن نلاحظ أن هذا المبدأ يصدق في كل قرن. وإن كان المرء لا يريد أن يكون متزمتاً وهو يستشهد بقصص القادة العظام في تاريخ الإيمان المسيحي عبر القرون العديدة لكنه لا يقدر إلا أن يرى كيف كانت يد الله عاملة في تأييد رجال أمثال لوثر، وكلفين، ووسلي وغيرهم الذين تلمع أسماؤهم بمجد في قصة انتشار الإنجيل. وعندما يقرأ أحدنا أسفار العهد الجديد يحس بأن ما فيه من قصص لم تكن فريدة في نوعها بقدر ما هي المثال لما يستطيع الله أن يفعله باستمرار في العالم. وإن من يقرأ تاريخ تقدم المسيحية في العالم لا بدّ له من أن يحس أيضاً أن الله مواصل عمله بالأسلوب ذاته. صحيح أنه ليس كل ما عمل باسم المسيحي هو مسيحي، فقد قام أناس هم مسيحيون بالاسم فقط فعملوا أعمالاً لا تمت إلى المسيحية بصلة. لكن هذه الحقيقة المؤسفة لا يمكن أن تنفي حقيقة أن الله واصل عمله عن طريق شعبه المؤمن بالمسيح لكي يتمم إرادته وينفذ مقاصده تعالى. قد يقول قائل أن الله يواصل عمل ذلك، متبعاً أسلوبه في العهد القديم، عن طريق قادة بارزين سربلهم بشكل خاص بقوة من لدنه. إلا أن قولاً كهذا يتنافى مع روح العهد الجديد ومع اختبار ربوات المسيحيين الذين كانوا يقومون بأعمالهم الصغيرة وهم يشعرون بأن الله كان يقودهم في عمل إرادته. من الجائز أن مسيحيي العصر الحديث لا يحسّون بقيادة الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لهم كما كان يحس بتلك القيادة المسيحيون الأولون بعزم القلب ووحدة القصد. قد يكون في هذه الحقيقة تفسير لسبب الضعف والعجز النسبيين اللذين ابتليت بهما الحركة المسيحية المعاصرة إذا قارنّاها بالحركة المسيحية في القرن الأول للميلاد. إن ما نقصد إلى قوله هو أن الإرشاد والقوة الإلهيين ذاتهما لا يزالان في متناول البشر في أيامنا. كما أننا نقول أيضاً أنه حينما يعمل عمل الله في أية لحظة فهو يعمل بالطريقة ذاتها، سواء في ذلك أشعرنا بقيادة الله أم لم نشعر بها.

بقي علينا الآن أن نأتي بتلك الحقائق التي تعلّمناها خلال عرضنا لمسيحية القرن الأول الميلادي فنقارنها بما نجده من عمل الله في أماكن مختلفة في العالم هذه الأيام. وفي ما قلناه الكفاية لإثبات الحقيقة أن من يوم الخمسين إلى الآن كان انتشار الإنجيل في العالم يسير بموجب المثال ذاته، وهو : إذ تحلّ قوة الله على إنسان ينقاد ذلك الإنسان ليعمل إرادة الله، وبينما يقوم بذلك يؤيّده الله بقوته. ولم يظن أحد من كتاب العهد الجديد إن العمل كان عملهم، بل اعتبروا أنهم إنما يعملون عمل الله. لقد كان عمل الله ولكنه كان يجري بالأداة البشرية لا بمعزل عنها.

يعلّم العهد الجديد أن استخدام الله للوسائل البشرية يتفق تماماً مع اختياره الإلهي. وهذا الاختيار، مثل الاختيار للخلاص، يبدأ من الأزل، وهو مؤسس على محبة الله ومعلن في الاختبار البشري خلال حقب التاريخ. يجب ألا نظن أن الله، وهو يعزم أن يقوم بمهمة، يجد أنه لم يهيئ الأداة التي سينجز بها تلك المهمة. يظن البعض أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اختيار الله الإنسان للخدمة يجري بأن يتفحص الله الإمكانات الموجودة فيختار منها شخصاً معيناً ليقوم بالمهمة التي يريد منه إنجازها. لكن ما نفهمه من الكتاب المقدس هو أن الله في تخطيطه لخلاص البشر وفدائهم يرتب سلفاً استخدام الأداة البشرية الأزمة لإنجاز قصده- أي أنه حسب علمه السابق يعد الأداة التي اختارها حتى أن خادمه يكون مستعداً في الوقت المطلوب ليعمل إرادته. إن هذا ظاهر في تعليم بولس إذ يقول: "لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أفسس 2: 10). في هذه الآية يعلم بولس ثلاث حقائق وهي: (1) أن خلاصنا هو عمل الله، (2) إن القصد من خلاصنا هو القيام بأعمال صالحة، (3) هذه الأعمال الصالحة معدة لنا من قبل لكي نعملها.

السؤال الآن هو: هل هذه التهيئة السابقة للأعمال ومن يعملها تهيئة عامة أم خاصة؟ يقول البعض أن الله أعد مجالاً عاماً للأعمال الصالحة ويريد منّا أن نحتل مكاننا فيه، وهذا يعني أن التعيين السابق تعيين عام. إن الآية السابق ذكرها والتي كتبها بولس في رسالته إلى أفسس لتدل على أن تعيين الله السابق هو تعيين للقيام بأعمال صالحة من قبل أفراد معيّنين. على المؤمن بالمسيح أن يعلم أنّ الله أعد له أعمالاً صالحة ليعملها، وأن عليه أن يسعى لكي يجد إرادة الله في حياته.ويسأل سائل :"ما الذي يحدث إذا رفض إنسان أن يسلك أو يعمل الأعمال الصالحة التي أعدها الله له؟" ليس من حاجة لمثل هذا السؤال، إذ أن السائل يتجاهل الحقيقة أن الله باختياره الحر للوسائل البشرية التي يستخدمها يعمل بموجب علمه السابق للأشخاص والأشياء وأنه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لا يقع في أية أخطاء. أنّه، بكل تأكيد، لا يختار شخصاً ليقوم معين إذا كان ذلك الشخص سيرفض ذلك العمل. لقد سبق أن بحثنا في مسألة حرية الإنسان وعلاقتها بعلم الله السابق، وأن المبادئ التي تنطبق على قبول الخلاص هي ذاتها تنطبق على عمل المؤمن المسيحي. إن الآية الآنفة الذكر تدل على أن الله عين سابقاً تلك الأعمال التي سيجربها أناس هم أدوات اختارها الله لتلك الأعمال. بهذه الطريقة يعمل الله ويتمم خطته في الحياة البشرية.

هناك مقطع آخر في رسالة بولس إلى غلاطية يعلّم فيها هذه الحقيقة ذاتها. يقول بولس وهو يذكر شهادته الشخصية:" ولكن لما سرّ الله، الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه فيّ لأبشّر به بين الأمم، للوقت لم استشر لحماً ودماً"(غلاطية1: 15-16). إن هذا المقطع هو شهادة بولس الشخصية للمبادرة التي قام بها الله في أمر خلاصه وخدمته. أنه يعلم (1) أن إعلان المسيح له كان بقصد مرتّب من الله وهو أن بولس هذا إذ يؤمن بالمسيح يكرز به بين الأمم. ويعلّم المقطع (2) أن هذا الإعلان جرى في الوقت الذي اختاره الله ورغب في أن يجري فيه، و(3) إنّ هذا كان مؤسّساً على تعيين الله السّابق، التعيين الذي كان قبل ولادة بولس. إذن، يقول بولس في رسالته هذه ليس فقط أن خلاصه كان بموجب تعيين سابق بل أن توجيه خدمته أيضاً كان بحسب ذلك القصد المعين سابقاً. ليس قول بولس هذا بياناً عاماً عن قصد الله في خلاص كل إنسان، بل هو بيان لقصد الله الخاص في خلاصه هو. لقد شاء له الله أن يكون رسول الأمم بينما شاء لآخرين أن يكونوا رسلاً يعملون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في اتجاهات أخرى. لكن،كان لا بدّ أن يكون الجميع كما اختار لهم الله أن يكونوا. لم يكن الله، بدعوته بولس إلى خدمة خاصة، يعامله بطريقة مختلفة عن تلك التي يعامل بها جميع الناس. إن الذي حدث في أمر بولس هو أن دعوة الله له والتعيين السابق لتلك الدعوة تسجّلا في الرسالة لنقرأ ونفهم، ولكن هذا لا يمنع الحقيقة أن الله دائماً يخلص الناس (مثلما خلص بولس) ويعدهم لأعمال خاصة حسب قصده. لقد سبق أن رأينا كيف انفرز بولس وبرنابا ليقوما بالعمل التبشيري في المناطق البعيدة (أعمال الرسل 13: 1-2). يتضح من هاتين الآيتين أن انفراز الرسولين لعملهما الجديد لم يكن نتيجة لعظم تقدير أصحابهما لهما من حيث استحقاقهما الرفيع أو مقدرتهما، بل كان نتيجة لتصريح من الله بأن تلك كانت إرادته تعالى لهما. صحيح أن الآيتين لا تقولان ما يفهم منه أن اختيار الله الإنسان للخدمة يحدث في الأزل ولكنهما تبينان بكل تأكيد أن الاختيار يحدث قبل أن يعلن الله الدعوة. لكن الذي سبق أن قلناه في أمر طبيعة الله وعلمه السابق الأزليين ليدل على أن اختيار الله يحدث في الأزل.

قد يقول البعض: ما هذا إلا تعليم بولس الخاص، وأنه لا يمثل أبداً فكرة الكتاب المقدس على النطاق الأوسع. لكننا نجد تعليم العهد القديم منسجماً مع هذه الفكرة التي يعبر عنها بولس في كتاباته بشكل أوضح من تعبير سواه. فهذا النبي أرميا يفسر كيف دعاه الله ليكون نبياً ويقول بلسان الله: "قبلما صوّرتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدّستك، جعلتك نبياً للشعوب" (أرميا 1: 5) لقد كان أرميا يحسب، بلا شك، مثلما كان يحسب بولس، أن مكانه في خدمة الله جاء نتيجة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للمبادرة الإلهية، وصرّح بأن دعوته ابتدأت قبل ولادته. ويسوع يبيّن أيضاً في تعليمه ما يدلّ على أن دعوة الرسل كانت ناتجة عن اختيار الله وعلمه السابق و لم تكن متأثرة بالظروف الخاصة التي كانت تحيط بحياة أولئك الرسل حينذاك. إذا كانت هذه الفكرة المتعلّقة باختيار الله في سيادته للوسائل البشرية التي ينجز بها قصده في العالم ليست فكرة تصرّح بها تعاليم الكتاب المقدس تصريحاً واضحاً، فهي، على كل حال، مضمرة في كل تلك التعاليم. إننا نجد كتّاب الكتاب المقدس كله، من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا، عندما يتكلّمون في هذا الموضوع يعلّمون أن سنن اختياره، مع سائر الذين خدموا الله خدمة ناجحة، لم يكن لشيء حسن فيهم بل لأنها كانت إرادة الله في سلطانه. لقد كانوا يعملون، ولهم الشعور بأنهم كانوا يؤدون الرسالة، ويقومون بمهمة، وكان لهم الإيمان بأن عملهم كان العمل الذي أعطاهم إياه الله ليعملوه.

إن هذا بالطبع يأتي بنا إلى مسألة العلاقة بين الجهود البشرية والكفاءة الإلهية. لنقل، بادئ ذي بدء، أنه من غير الممكن التفريق بشكل واضح في فكرنا بين الأمرين. فليس من طريقة يمكن بها القول أن هذا الدور أو ذاك من عمل الفداء الإلهي هو ما نؤديه نحن، أي أنه دورنا وليس لله أية يد أو فضل فيه. يعلّم العهد الجديد أن كل ما نعمله لله هو عمل الله، مع أنه يتم عن طريق إرادتنا وتعاوننا الطوعي. والشخصية البشرية في هذه العلاقة لا تعطى مكاناً خلفياً حيث لا تحل ولا تربط، بل على العكس تعطى ما يجعلها تحقق ذاتها. إن أحد المقاطع البارزة في العهد الجديد التي تعالج هذه المشكلة يرد في الإصحاح الثالث من رسالة بولس إلى كورنثوس. يسجل بولس في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا الإصحاح قمة دعوته الملحة إلى الكنيسة ليكون أفرادها متحدين اتحاداً حقيقياً في خدمتهم لله. ويبدو أن أفراد تلك الكنيسة كانوا قد انقسموا فيما بينهم بروح الطائفية فتحزب كل فريق منهم لأفراد مختلفين من الرسل وخدام الإنجيل دون أي علم أو موافقة من أولئك الرسل على ذلك التحزب. كان البعض يقول: "نحن من أتباع بولس"، ويقول البعض الآخر "نحن من أتباع أبلّوس"، ويقول آخرون: "نحن نتبع صفا". لقد كان هؤلاء الرسل ذوي فكر واحد في خدمتهم الله، لكن الشعب كان منقسماً في تعلقه بصفات أحد الرسل أو ميزانه البارزة دون غيره فأدى ذلك الانقسام إلى نزاع وخصام على الأسماء بين أولئك الأفراد المنقسمين المتحزبين.

كان رد بولس على هذه الحالة المؤسفة أنه يجب ألا يحسب ما يجرى من أعمال أنه عمل الناس بل عمل الله. وإذا كان أكثر النزاع في كورنثوس يدور حول اسمي بولس وأبلّوس نجد الرسالة تبحث فيهما دون سواهما، وما تقوله ينطبق على جميع العلاقات البشرية– الإلهية في الخدمة. يستخدم بولس تشبيه الزرع فيقول: "فمن هو بولس ومن هو أبلّوس؟ بل خادمان آمنتم بواسطتهما وكما أعطى الرب لكل واحد. أنا غرست وأبلّوس سقى لكن الله كان ينمي. إذن، ليس الغارس شيئاً ولا الساقي شيئاً بل الله الذي ينمي" (1 كورنثوس 3:5-7). إذا أخفق الإنسان في فهم هذه الحقيقة وفي تقديم المجد لله لأجل خدمة الذين يخدمون باسمه فإن ذلك يدل على أنه إنسان جسدي (1كورنثوس 3:3)، أي أن موقف ذلك الإنسان موقف جسدي ويعمل بروح العالم ولذلك ليس له الفهم الروحي. الحقيقة أن جميع خدام الله هم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ملك لله ويعملون معاً في ملكوته كزملاء وشركاء في العمل (1كورنثوس 9:3). يبين هذا المقطع من الرسالة بوضوح أن القوة الفعالة في أي عمل روحي هي قوة الله. لا سبيل لإنكار ما لجهد الإنسان من دور في هذه الخدمة، بل إن المقطع المذكور ليدل ضمناً على أن عملي الغرس والسقي ضروريان للإتيان بالثمر وجمع الحصاد. إنما التشديد، على أي حال، هو على قوة الله التي تعمل من الداخل لإنجاح الجهود التي يبذلها البشر. النقطة الهامة هي أن يكون هناك توازن بين الجهد البشري والفعالية الإلهية فيعطى لكل من الاثنين مكانه الصحيح. هناك أربعة تعاليم في العهد الجديد تتناول علاقة الله بالخدمة البشرية وإنها لتساعدنا للحصول على فهم أعمق لهذه الحقيقة.

التعليم الأول هو أن الله هو الذي يجهزنا للخدمة التي سنقوم بها. إن الفصل البارز في العهد الجديد والمتعلق بالإعداد للخدمة هو الإصحاح الثاني عشر من رسالة كورنثوس الأولى، حيث يبحث بولس في موضوع المواهب الروحية والقوات، ويخلص إلى القول أن جميع طاقاتنا وإمكاناتنا في الخدمة هي عطية الروح القدس. فالإمكانات الطبيعية (كما يسمونها) هي نفسها من الله. لقد أعطينا منذ ولادتنا طاقات معينة، طاقات فكرية وجسدية كثيراً ما نكتشف أننا في حاجةٍ إليها في خدمتنا لله. إن هذه المواهب الطبيعية يجب أن تُحسَبَ عطايا من الله. ربما يصر البعض على القول بأننا إنما نصل بموضوعنا إلى أبعد مما يجب، وإن حصولنا على هذه المزايا الطبيعية التي نحتاج إليها ما هو إلا صدفة، ويرجّح هذا البعض أن الله يتطلع نحو خلائقه التي في الوجود

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فينتقي منها أولئك الأشخاص الذين لهم الصفات والمزايا الضرورية لإتمام العمل. على أن تعليم الكتاب المقدس يبين أن هذه المزايا أو القدرات قد أُعطِيَت لنا قبل الوقت بتدبير الله للخدمة التي يحتفظ الله بها في فكره لنا لنقوم بها. لم ينتظر الله حتى ولادتنا ليرى إن كنا أهلاً لنقوم بالعمل فدعانا بعد ذلك، بل قد كان عاملاً في ولادتنا وفي تكوين كياننا بأكمله وقد جهّزنا سلفاً بالطاقات التي نحتاج إليها في خدمته تعالى.

والتعليم الثاني هو أنه ما دام النجاح في الخدمة غير معتمد كلياً، ولا رئيسياً، على القدرات والطاقات الطبيعية التي لنا، فإن ما يدور حوله البحث في لإصحاح 12 من كورنثوس الأولى هو المواهب الروحية؟. ويبدو أن أفراد كنيسة كورنثوس كان لهم، آنذاك، مجموعة متنوعة من المواهب. ومن المحتمل أن بولس لم يسجّل في رسالته جميع المواهب، ولكنه ذكر منها مواهب الحكمة، والعلم، والإيمان، والشفاء، والقوات، والنبوة، وتمييز الأرواح، وأنواع ألسنة، وترجمة ألسنة (1 كورنثوس 12: 8- 10). ويصر بولس على القول أن جميع هذه المواهب تُعطى من الروح القدس: "فأنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد وأنواع خدم موجودة ولكن الرب واحد، وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل... ولكن هذه كلها يعملها لروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء" (1 كو 12: 4- 6، 11).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن هذا البحث في موضوع المواهب الروحية كله يقدم لنا أربع حقائق وهي: (1) الشيء المهم هو أن هذه المواهب تجئ من الله حسب إرادته واختياره. فنحن من جهتنا لم نفعل ما يجعلنا مستحقين للحصول عليها، وليس في استطاعتنا أن نقرر ما هي المواهب التي تكون لنا. (2) المواهب ذاتها نوعان: دائم ووقتي. فإنه ليبدو أن بعض المواهب في المجموعة التي ذكرها بولس هي من النوع الدائم نسبياً في حياة الفرد، أي أن من يحصل عليها يظل حاصلاً عليها وليس من المحتمل أن يخسرها. مثال هذا النوع من المواهب الحكمة والمعرفة والقدرة على التكلم بالكلمة. بينما يظهر أن بعض المواهب هي من تلك التي يمنحها الله لمواجهة أوضاع خاصة وحل مشكلات في خدمة الكنيسة، مثل التكلم بألسنة وترجمة الألسنة وشفاء الأمراض واجتراح المعجزات. ليس هناك ما يؤكد على أن من يحصل على مواهب كهذه يظل يمارسها طوال حياته. (3) إن جميع لمواهب تُعطى لا لخير الفرد الذي يحصل عليها ويمارسها بل لعمل الكنيسة وبنيانها وتقدمها بشكل عام. يجب ألا يظن أحد أنه حاصل على موهبة روحية من أجل استمتاعه الشخصي أو تقدمه وتحقيق طموحه الشخصي. (4) إن على الذين يحصلون على هذه المواهب أن يتخذوا موقف التواضع وألا يحملوا في نفوسهم أي فكر بالتفوق أو الترفع. وكما أن هناك حاجة لجميع الأعضاء لتكوين وحدة الجسم البشري الكاملة هكذا هناك حاجة لجميع أنواع المواهب الروحية لتكوين وحدة الكنيسة في جهدها الذي تبذله في خدمة الله. إن موضوع البحث كله الذي بحثه بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس هو مسألة وحدة الكنيسة في قيامها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالخدمة، أما بالنسبة لنا فنقطة التشديد هي على الحقيقة القائلة بأن الله هو الذي يجهز خدامه للعمل الذي سيقومون به. إنها حقيقة ذات قيمة عظيمة وأهمية دائمة في عمل الله. إنها تردد صدى تعليم الكتاب المقدس كله وهو أنه عندما يطلب منا الله أن نعمل شيئاً فإنه يعطينا القدرة على عمله. فكما أعطى الله ذلك الإنسان المقعد قوة لينهض من فراشه بكلمة المسيح الذي شفاه هكذا يعطي الله خدامَه القوة ليتمموا مشـــيئته. يستطيع كل واحد من خدام الله أن يواجه مهمته في الحياة بلا خوف إذا كان على يقين من أنه يعيش ويعمل ضمن إطار إرادة الله، ذلك أن الله سيجهزه بالقدرة اللازمة لتلك المهمة.

من عادة الله ألا يكتفي بتجهيز خدامه للخدمة بل أن يدعوهم أيضاً إلى ذلك العمل المعد لهم. إن استعراضنا لبدايات المسيحية أظهر صحة هذا القول في أمر كل منا بولس، فيلبس، وبطرس، برنابا. ولاحظنا أن دعوة الله لا تتناول فقط نوع الخدمـــة بشكل عام بل أيضاً مكان تلك الخدمة (أعمال 16: 10). يتفق هذا تمام الاتفاق مع أسفار العهد القديم التي تروي كيف دعا الله بعض الأشخاص للخدمـــة. وبـــالطبع تحضرنا دعوة الله لإبراهيم ليترك مدينة أور الكلدانية ويذهب إلى الأرض التي كان الله سيريه إياها، وكذلك دعوة موسى عند العليقة المشتعلة بالنار، ودعوة صموئيل وهو صبي صغير عندما ظن، وهو يسمع صوت الله، أنه كان يسمع صوتاً عالياً، ولكن تبين فيما بعد أن الله هو الذي دعاه، ودعوة إرميا المسجلة في الإصحاحات القليلة الأولى من سفره. إن الفكرة التي تفصح عنها الآيات المتعلقة بهذه الدعوات هي أن الله يوجه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حياة خدامه في طريق الخدمة التي عيّنها لها. لقد عبر بولس عن دعوة الله له والقوة الدافعة التي فيها بقوله "الضرورة موضوعة عليَّ" (1 كو 9: 16). لقد شعر أن دعوة الله له ليكرز بالإنجيل كانت دعوة واضحة وصريحة حتى أصبحت ملزمة له في الحياة.

إن هذه الفكرة، فكرة دعوة الله التي بها يضع حياة شعبه في طرق الخدمة الصحيحة ليست فقط من تعليم الكتاب المقدس بل إنها مؤيدة أيضاً بشهادة خدام الله في كل التاريخ المسيحي. طبعاً إن دعوة الله، ولا شك، تجئ بطرق مختلفة إلى أناس مختلفين وعلى درجات متنوعة من الوضوح والدوام، لكن دعوته، على كل حال، تجيء لمن يصغي إليها. قد تجئ دعوة الله إلى شخصٍ عن طريق آخرين، فقد دُعيَ بولس وبرنابا للخدمة بواسطة شيوخ الكنيسة في أنطاكية (أع 13: 1- 2). قد نسمع دعوة الله لنا من خلال الظروف المحيطة بنا، وبهذا المعنى قال بولس: "حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع" (غلاطية 6: 10). وقد تجيء الدعوة كشيء دائم يوجّه حياتنا كلها، كالدعوة لمواجهة ظرف خاص في الحياة، كما جرى مع فيلبس عندما دُعيَ ليذهبَ فيبشّر الوزير الحبشي. يتبين من كل هذا أن دعوة الله تصل قلوب الذين يصغون فيسمعونها.

أما بحثنا فيما يختص بالعلاقة بين الجهود البشرية والكفاءة الإلهية فهو أن الله يكون شخصياً مع خدامه الذين يدعوهم ويعطيهم القوة في عملهم له. إذا تأملْنا نصَّ المهمة العظمى، كما وردت في متى 28 : 18- 20، نجد أنها تشدد على ثلاثة أشياء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هي: (1) أن المسيح، وهو يرسل تلاميذه، كان في يده كل سلطان وقوة. و (2) كان عمل التلاميذ أن يتلمذوا جميع الأمم ويعمدوهم ويعلموهم أن يطبقوا في الحياة كل ما علم به يسوع. و (3) أن المسيح سيكون معهم لإتمام تلك المهمة، فقد قال: "ها أنا معكم كل الأيام". أما كيف يكون معهم شخصياً فواضحٌ في قول يسوع: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق... لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم ... إن أحبني أحدٌ يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يوحنا 14: 16- 18، 23). إن هذه الآيات تهدف إلى تعليم التلاميذ (1) بأنهم سيحظون بحضور الله الشخصي الدائم في حياتهم في أثناء قيامهم بخدمته، و (2) أن حضور الله سيكون بواسطة شخص الروح القدس، و(3) أن حضور الروح القدس هو حضور الله بكل ملئه في حياتنا.

نرى، إذن، أن الله، عادةً، إذا لم يكن دائماً، يستخدم الوسائل البشرية في إنجاز قصده في العالم. ويعمل الله هذا عن طريق اختياره أناساً، ليكونوا أدوات برٍّ، وتهيئة أولئك المختارين، وتقويتهم، ومرافقتهم في أثناء قيامهم بالعمل. والإنسان الذي يختاره الله ليكون أداة للقيام بالعمل يكون حراً في عمله ولكنه يشعر بحضور الله الدائم في حياته ويشكر الله ويسبحه على نتائج ما يعمله لله. فإن ما يفعله، هو في الواقع، عمل الله فيه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الخامس عشر

العيش بموجب قصد الله

هل الاعتقاد بقصد الله عقيدة خطرة؟ يؤكد البعض أنها كذلك، بل حتى أوغسطين وكلفين أصرا على ألا يجوز التكلم عنها في أثناء الوعظ إلا للناضجين في الإيمان. وقد قِيلَ الكثير عن أن هذه العقيدة تثير الشكوك بعدل الله، وتحرم الهالكين من أي اهتمام يُظهره الآخرون بخلاصهم، وتمنع من أن يكون للمسيحي المؤمن دافع حقيقي لاتباع حياة البر شخصياً أو للسعي لخلاص الهالكين. لكننا نعتقد أن هذا الظن غير صحيح. إن لهذه العقيدة إمكانات لا حد لها لتمجيد الحياة على الأرض. وإنّ علينا أن نعظ وننادي بها– وبالشكل الصحيح، طبعاً. علينا أن نعظ بها على أي حال.

لا ننكر أن سوء تفسير هذه العقيدة يجعلها عقيدةً خطرة. لكن هذا ينطبق على كل عقائد الكتاب المقدس. إذا استعرضنا تاريخ هذا البحث، نجد أن سوء التفسير الرئيسي لعقيدة قصد الله كان في فكرة "الاختيار السابق المزدوج" بما فيها من القول بالنعمة التي لا تُقاوم، من جهة، والاختيار للهلاك، من الجهة الأخرى. إن هذا تمثيلٌ مغلوط للعقيدة الصحيحة حسب الكتاب المقدس. وقد سبق أن بحثنا في الأخطاء التي يتضمنها هذا التمثيل المغلوط لعقيدة قصد الله، فلا حاجة لمزيد من البحث فيه. ربما تلزم الإشارة إلى أن ما يتعرض لتهمة كونه "عقيدة خطرة" هو فكرة قصد الله للنعمة مغلق– أي فكرة جبرية للحياة. لا حاجة بنا للتفتيش بعيداً في التاريخ لنجد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تلك الجماعات الدينية التي كانت تعشق مسألة "التعيين السابق" وتغلو في التعلق بها، فارتكبت نتيجة لذلك أخطاء لا حصر لها في الحياة وفي التعليم.

لكن ليس من العدل أن نحكم ضد تعليم معين من الكتاب المقدس بسبب أخطاء ارتكبها أناسٌ في تقديمهم التعليم المذكور والعيش بموجبه. إن عقيدة قصد الله، العقيدة الكتابية كما بحثنا فيها على صفحات هذا الكتاب، لهي عقيدة مجيدة، ليس فقط من حيث فهمنا إياها بل أيضاً من حيث حياتنا في شركة مع الله وبعضنا مع بعض. إنها عقيدة تحمل إلى المؤمن أربعة أشياء قيّمة: (1) أنها تمكن المؤمن من أن يرى الله بمجده الحقيق. (2) أنها تعطيه نجماً هادياً في حياته. (3) أنها تجعل خدمة الله ممكنة بشكل مجيد لكل مؤمن بالمسيح. (4) أنها تعطي للاختبار الديني معنى وقوة. لنبحث الآن في كل من هذه القيم.

أولاً، إن فكرة قصد الله كما يقدّمها الكتاب المقدس تمكّن المؤمن من رؤية الله في مجده الحقيقي. إذا نظرنا إلى الله في نور تعليم الكتاب المقدس فإننا نرى تناسقاً وانسجاماً، إن في شخصه، أو في قصده أو في عمله. نرى أن كل عمل يعمله الله في العالم فبه يرمي إلى خير البشر– الخير الذي قصده الله منذ الأزل، الخير المؤسس على طبيعته بوصفه إله المحبة. إن العقبتين الكبريين اللتين تعترضان الإيمان بالله كما قدّمه يسوع وأعلنه هما وجود الشر في العالم وهلاك بعض البشر. وعندما نفحص هاتين العقبتين على ضوء بحثنا فإننا نجد أنهما لا تجعلان محبة الله أو عدله موضع شك أو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تساؤل. ونرى أن قوته أيضاً ليست موضع شك، إذ أنه يستخدم الشر ويحوله لإنجاز الخير.

لكننا، لو تبنّينا العقيدة الكالفينية المتطرفة بدلاً من العقيدة الكتابية، فإننا سنواجه عقبات يصعب تخطيها تعترض إيماننا بإله ربنا يسوع المسيح. قال مارتن لوثر مرةً: يكون البابا أحط جميع البشر لو أنه فعلاً يستطيع إخراج الناس من المطهر ولكنه لا يستخدم صلاحياته تلك مجاناً وللجميع. وما ذا نقول نحن عن الله إذا افترضنا أنه يستطيع أن يخلّصَ جميع الناس ولكنه يقف متفرجاً ولا يخلصهم؟ إن الذين يتمسّكون بالعقيدة الكلفينية المتطرفة يستندون دائماً إلى القول بأن لدى الله سبباً يجعله يفعل ما يفعله، وإن هذا السبب يتفق مع طبيعته، مع أنه لا سبيل لمعرفة هذا السبب. إنهم يقرّون بوجود المشكلة، ولكنهم لا يجدون مفراً من التمسك بالاعتقاد بقصد الله.

أما العقيدة الأرمينية المناقضة للكلفينية فوضعها أضعف من هذه. فمع أنها تُظهر الله عادلاً لكنها تقدم لنا إلهاً لا حول له ولا قوة. لأننا، إذا كنا نقول بأن الله يعتمد على عمل البشر لكي ينجز خطته في الفداء، فذلك يجعل تأكيدات الكتاب المقدس، المتعلقة بالخلاص وبالله، تأكيدات لا قيمة لها. بل لا يعود من الممكن الاعتقاد بالخلاص بالنعمة، ولا يظل بالإمكان وجود تأكيد حقيقي من حيث المصير الأبدي. وبينما لا يضر الموقف الارميني فكرة محبة الله أو عدل الله فإنه يدمّر فكرة الله ذاتها. لأنه إذا لم يكن الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

"العامل الخلّاق" في التاريخ، وفي الحياة، وفي الدين فما قيمة الصلاة إليه؟ وأين الرجاء في النجاح في العمل المسيحي؟ وكيف نعرف أن الشر سيُقضى عليه وأن الخيرَ سينتصرُ أخيراً؟ يقف المسيحي متحيراً بين الرأيين المتطرفين.إنه لا يريد الإذعان لهذا الرأي أو ذاك، ولكن أين يجب أن يقف؟ إننا نرى أن الموقفين على خطأ، إذ أن كلاً منهما يخطئ في تقديم الفكر الكتابي الصحيح لقصد الله. لا شك أن الله يقوم بالتحرك بشكل خلاق في العالم، وهو مهتم بافتداء البشر، ويعمل بما يتفق مع ما نعرفه من طبيعته. لا شيء يستطيع أن يعيق إتمام قصده في العالم، وهو غير مسؤول عن عصيان الإنسان الفرد الذي يرفض بركات الفداء. إن هذا هو المفهوم الضروري للفكرة المسيحية عن الله المؤسسة على إعلان يسوع المسيح.

ثانياً، إن الاعتقاد بقصد الله كما هو مقدم في الكتاب المقدس يعرّف المسيحي أين هو متجه في حياته. ليست حياة المسيحي في العالم حياة سهلة، بل إنها تصبح مستحيلة إذا لم يعرف المسيحي أين هو متجه وإذا لم يفهم ما الذي يحاول إنجازه في حياته. إذا كنا نُترك وشأننا فنقرر الاتجاه الذي نسلكه ونتخذ قراراتنا الأخلاقية التي نريدها فإننا نضلُّ لا محالة. إن عقيدة قصد الله تمدنا بحجر المحك الذي به نفحص جميع قرارات الحياة. إن عقيدة قصد الله تؤكد، من جهة أن لله قصداً في حياة كل فرد، وأن مسؤولية المسيحي الأولى هي أن يبحث ليعرف مشيئة الله في حياته فيتمّمها. وإنه ليرغب في ذلك إذ أنه على يقين من أن ما يريده الله له هو دائماً الأفضل لحياته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يعترف كل مسيحي أن رجاءه في العيش حياة ذات قيمة هو أن يسعى ليعرف إرشاد الله. فإن أي طريق آخر في الحياة سيؤدي به حتماً إلى الفشل.

إن ما يقوله الكتاب المقدس هو أن المؤمن الصادق في إيمانه يستطيع أن يعرف مشيئة الله لحياته. في الكتاب المقدس بضعة مبادئ يمكن أن نسترشد بها لنعرف مشيئة الله. (1) علينا أن نكون على استعداد لاتباع إرشاد الله خطوة فخطوة. إن الله لا يعلنُ لنا دائماً كل طريقنا في الحياة دفعة واحدة، وكثيراً ما يجد الله أن ذلك غير ممكن. كثيرون وجدوا أنفسهم في أماكن لم يتوقعوا أن يكونوا فيها، ووجدوا أنفسهم أمام واجبات لم يحسبوا أن يكونوا يوماً مضطلعين بها. لكنهم عندما أعادوا النظر إلى الطريق التي ساروا فيها تبين لهم أن يد الله كانت تقودهم عند كل منعطف في طريق الحياة. يجب أن تكون صلاة المؤمن "عملي كفافي أعطني اليوم"، مثلما تكون صلاته "خبزي كفافي أعطني اليوم". (2) يجب أن نكون مستعدين لنعمل أولاً تلك الأعمال التي يصرّح الكتاب المقدس بأنها من واجب كل مسيحي. لسنا في حاجة إلى إرشاد خاص لنعرف أن من مشيئة الله أن نحيا حياة البر، وأن نقرأ الكتاب المقدس بانتظام، وأن ندعم عمل الكنيسة ونقوم بأشياء أخرى كثيرة. إن البعض الذين يصرون على القول بأنهم لم يشعروا قط بإرشاد الله في حياتهم ينسون أن الكتاب المقدس هو صوت الله يخاطبنا في أمر سيرنا في الحياة اليومية. إن من يتبع تعاليم الكتاب المقدس هو في الواقع يتبع توجيهات الله. (3) علينا أن نكون راضين أن نعمل ما تشير ظروف حياتنا أنه واجبٌ علينا. ليس هناك من فرق كبير بين الرجل "العملي" الذي يقول مع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

صاحب سفر الجامعة "كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك" (جامعة 9: 10). والشخص الروحي الصوفي الذي يتبع "الصوت الداخلي" في حياته. إذا تذكرنا أن حياتنا كلها مرتبة من الله، وأنه هو الذي منحنا ما نملكه من قوى وإمكانات، وأننا موضوعون في مكاننا في التاريخ بفعل اختياره، فإننا حتماً سنرى أن ظروفنا ما هي إلا طريقة يهدي بها الله حياتنا في إرادته. (4) يمكننا أن نحس بانطباعات من الروح القدس تجيئنا استجابة لصلواتنا. إن هذا ممكن لكل مسيحي مؤمن، إذ أنه ليس امتيازاً خُصت به فئة محظوظة منم المؤمنين بل هو متاح لكل مؤمن. إن الغاية من الصلاة هي أن نتمم إرادة الله في حياتنا. يرغب الله في أن يعرّفَنا ما هي إرادته، وهو لذلك يكشفها لنا عندما نصلي طالبين منه الإرشاد والهداية.

ثالثاً، إن الاعتقاد بقصد الله وسيادته يشجعنا لنخدمه باهتمام.إن ذلك يجب أن يشجعنا. وقال البعض، من الناحية الأخرى، أنه ما دام العمل عمل الله فلماذا لا نتركه له ليقوم به. إن موقف هؤلاء جعلهم جبريين إلى حد أنهم لا يريدون بذل أي جهد في خدمة الله. وآخرون، وإن كانوا لا يصرّحون بموقفهم الجبري فإنهم يعيشون بموجب ذلك الموقف. إن الموقف المسيحي مختلف عن هذا كل الاختلاف. يقول المسيحي: ما دام هذا عمل الله فإننا راغبون في بذل حياتنا في إنجازه. نجد مثلاً على هذا في قصة داود وجيليات في العهد القديم (1 صموئيل 17: 38- 58). هبّ داود لمنازلة جيليات مدفوعاً بالاعتقاد "أن الحرب للرب" (الآية 47). إن اعتقاده ذاك لم يسمح له أن يقعد على رأس التلة وينتظر ليرى ما سيفعله الله، بل جعله يحمل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مقلاعه وينزل للقاء الجبار، لا بقوة الإنسان المجردة بل بقوة الرب. إن اعتقاده أن العمل للرب لم يقعدْه عن العمل بل دفعه لعمل ما يمكنه عمله وللثقة بالرب ليهبه القوة الكافية. هذه هي الروح ذاتها التي اتصفت بها الحركة المسيحية منذ بدايتها في القرن الأول للميلاد، وإنها الروح التي يجب أن تدفعنا في الخدمة المكرسة.

إن الاعتقاد بقصد الله يعطينا دافعاً كافياً للخدمة باسمه. هناك الكثير من الخلاف حول الدافع الصحيح للخدمة. عبّر كثيرون عن اعتقادهم بأن الدافع الحقيقي للخدمة هو حاجة البشرية. لا يستطيع أحد أن ينكر أن البشرية في حاجة- بل في أمسّ الحاجة- للخدمة الروحية، غير أن المسيحي الذي يخدم وليس له غير هذا الدافع لا يلبث أن يفقد قوة الدفع في حياته. إن الدافع الحقيقي الوحيد للخدمة هو محبة الله. قال بولس: "لأن محبة المسيح تحصرنا" (2 كورنثوس 5: 14). وقال يسوع: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي" (يوحنا 14: 15). نعم إن الدافع الوحيد الذي يلازمنا ويدفعنا باستمرار في حياة الخدمة هو محبة الله.

إن الجزاء الوحيد الذي يحصل عليه من يخدم الله هو يقينه أنه يفعل ما يريده له الله. إن خدمة الله امتياز، وهذا الامتياز ذاته جزاء كافٍ للذين يحبون الله. ولا جزاء للذين لا يحبونه لأنهم لا يقدرون أن يخدموه. صحيح أن علينا أن نحب قريبنا كأنفسنا، ولكن محبة الإنسان للإنسان نابعة من محبته لله. إن محبتنا للقريب متأصلة في محبتنا لله وتكريسنا له. إننا لا نحب الإنسان من أجل الإنسان بل نحبه من أجل الله. ولا نخدم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسانَ لأننا نحبه بل نحبه بدليل أننا نخدمه. إن من الأشياء التي ينساها كُتَّابُ هـذا الزمن عندما يتحدثون عن أبوة الله وأخوة الناس هو أن الأخوّة ممكنة فقط كنتيجة للتكريس لله. فالعلاقة الأفقية بين الناس تفتقر إلى العلاقة العمودية بالله.

ثم، إن الاعتقاد بقصد الله وسيادته يعطي المسيحي المؤمن قناعةً ورضى بمكانه الذي يحتله في الحياة ويهبه سروراً وسعادةً في خدمته لله. إن كنا نؤمن أن إمكاناتنا ومواهبنا وطاقاتنا مقررة لنا باختيار سيادة الله، فإننا سنحس بالقناعة والشكر على تلك المواهب والإمكانات والطاقات، حتى وإن بدت أقل مما أُعطي لسوانا. إن كنا نؤمن أن الله هو الذي وضعنا في هذا العالم في المكان الذي نحن فيه فإننا سنشعر بالرضى في إشغال هذا المكان لمجده. إن الزوجة المؤمنة التي تعيش حياة التكريس للرب بينما تدبر شؤون بيتها لهي تخدم الله مثلما يخدمه أي مرسلٍ مكرّس. قد لا نستطيع دائماً رؤية الكيفية التي بها تنسجم خدمتنا مع خطة الله في الفداء، لكننا، إذ نعتقد بأن في يده السيادة الكاملة في هذا المجال، نؤمن أن خدمتنا تنسجم مع الخطة الإلهية، ونتشجع في إشغال مكان الخدمة ذاك بتكريس حقيقي.

إن الاعتقاد بقصد الله وسيادته يمكننا، كذلك، من خدمة الله بيقين وطمأنينة متأكدين من النجاح في حياتنا. إننا لا نقيس النجاح عن طريق الإحصاءات- الأسلوب الذي يقيس به الناس في العالم نجاحهم. بل نقيس نجاحنا بمقدار إنجازنا لإرادة الله. لكننا نحن الذين نخدم الله نثق بأننا سننجز الشيء الذي أُرْسِلْنا لإنجازه. لقد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اتصفت حياة يسوع بصفات عجيبة، ومن تلك الصفات طمأنينته وثقته الهادئة في وجه عقبات بدت وكأنها لا يمكن التغلب عليها. إن سر تلك الطمأنينة هو شعوره بأنه يعيش في إرادة الله وأن الله لن يدعه يفشل. ربما لم يكن دائماً على علمٍ بما ستأتي به الأحداث في الأحوال التي أحاطت به، لكنه كان واثقاً من قوة أبيه ومن أن النتيجة النهائية ستكون حسب إرادة الله. والمسيحي يستطيع أن يحصل على هذا التأكيد وهذه الثقة عينها. إنه يعمل بناءً على توجيه من الله، معتمداً على قوته، ولذلك لن يفشل. ليس القصد من هذا تشجيع الإنسان على التراخي في الخدمة والاكتفاء بأقل مما يجب، ومن يحب الله بالحق لا يقبل بالتراخي في خدمته. إن الثقة والتأكيد اللذين كانا على مدار البحث ليشجعا إيماننا بقوة الله التي ترافق كل من يسعى ليخدمه في العالم.

إن هذا لينبهنا إلى خطأ آخر في تفكير بعض الأشخاص، ألا وهو الاعتقاد أننا قد نجد أنفسنا مسؤولين يوماً عن هلاك بعض الناس. إن الفكرة التي يحملها هؤلاء هي أننا، إذا لم نشهد كما يجب فإن البعض لن يسمعوا رسالة الإنجيل فيهلكون بسبب إحجامنا عن الشهادة. هذا غير صحيح. لدينا ما يؤكد لنا أن الله مهتم أكثر منا بخلاص الناس، وأنه سيخلص جميع الذين بالإمكان أن يخلصوا. إن الاعتقاد بقصد الله يتضمن كذلك الاعتقاد بأن الله اختار أن يخلص جميع الذين بالإمكان خلاصهم كما اختار أيضاً الوسيلة التي بها ينجز ذلك الخلاص. إن حقيقة علمه السابق تدحض الفكرة القائلة بأنه إذا أخفقت الوسائل البشرية و لم تقم بواجب البشارة كانت النتيجة إخفاق الله في إتمام قصده.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يقول بعض الأشخاص بأن هذا الموقف، أي أن الله سيتمم قصده بخلاص مختاريه، موقف يلاشي فينا كل دافع للخدمة ونشر البشارة. لكن إذا كان الدافع للخدمة، كما سبق ورأينا، هو المحبة لله، فكيف يمكن للاعتقاد بسيادة الله على برنامجه للفداء أن ينزع هذا الدافع من نفوس خدامه؟ لا وألف لا. إن الاعتقاد بقصد الله وسيادته، في الواقع، يجعل المؤمن يقوم بالخدمة بطمأنينة لا يخالطها أي قلق أو اضطراب. نحن، طبعاً، مسؤولون أمام الله عن حياتنا، إذ أن "كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله" (رومية 14: 12). ولكن ليس من دليل على أننا سنكون مسؤولين عن هلاك أي من الناس بسبب إخفاقنا في الخدمة. ليس من عاقلٍ يرضى بتحمل مثل هذه المسؤولية. لو أن كل واعظ يقف على المنبر ليتكلم بالكلمة يشعر بأن خلاص أي إنسانٍ من سامعيه ومصيره الأبدي متوقّفٌ على الكيفية التي بها يقدم الرسالة فإنه سيجد أنه أعجز من أن يحمل مسؤولية كتلك. إن من الخطأ، بكل تأكيد، أن يظن أحدٌ أن له في عالم الله مثل تلك المكانة. يكفي خادم الله الأمين أن يكون مسؤولاً أمام الله عن خدمته، وهذا كافٍ ليجعله يسعى لكي يتفوق في تلك الخدمة ويقوم بها على أكمل وجهٍ وأن يتبع في ذلك إرشاد الله. وقد يقول قائلٌ أن الخادم، إذا شعر أن خلاص العالم غير متوقف على خدمته، فإنه قد يتخلى عن الخدمة. ولكن، كيف يمكن لمن يحب الله أن يتخلى عن خدمته؟ إن حياته كلها تكون مملوءة بالغنى لأنها مرتبطة بحياة الله في شركة الفداء. ولا يريد أن يخسر امتياز الخدمة، إذ أن حياته تفقد معناها إذا لم تبذل في خدمة الله. نجد الروح الصحيحة التي يتحلى بها خادم الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في كلمة بولس: "أقمع جسدي وأستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً" (1 كورنثوس 9: 27). إن يرفض الله أحد خدامه يعني أن يلقي به إلى كومة المهملات إذ لم يعد ذا نفع للسيد.هذه القضية كانت تثير اهتمام بولس. لم يكن بولس يخشى، إذا هو فشل في الخدمة أن يفشل الله أيضاً. كان يخاف، إذا هو فشل أن يلقي به الله جانباً ويستخدم أدوات أخرى لإنجاز عمله. إن خوفاً كهذا يمكن للمرء احتماله. إنه كافٍ ليجعل من يحب الله صادقاً في ولائه له.

أخيراً، إن الاعتقاد بقصد الله هو الذي يجعل للحياة المسيحية معنى. إذا كنا لا نعتقد بأن لله قصداً في حياة كل مؤمن، وأنه يقوم بإتمام ذلك القصد، فإن حياتنا المسيحية تمسي بلا معنى وبلا طعم، ولا يبقى فيها أي تحدٍّ. بينما يعطي الاعتقاد بقصد الله غنى ومعنى لكل ناحية من نواحي حياتنا.

ففي الدرجة الأولى يصير لعلاقتنا ضمن الكنيسة معنى جديد. إننا كثيراً ما ننظر حولنا في كنائسنا المحلية فنرى أناساً، نوعاً ما، غير جذابين بشكل خاص، وليس فيهم ما يحمل الآخرين على مصاحبتهم. نرى برنامج الكنيسة وأسلوب العبادة فيها غير جذابين وتبدو لنا دلائل تشير إلى أن حياتنا الكنسية، من ناحية، مضيعة للوقت. لكننا إذ نواجه حقيقة قصد الله نذكر أن الله دعانا إلى هذه العلاقة بالكنيسة. فهو بعد أن خلصنا وجهزنا للخدمة ربطنا بهذه الكنيسة، وإن عمل الله في عالمنا هذا لا يتم إلا بواسطة الكنائس. إن ما نتطلع حوله لا بد له من أن يرى أن إنجازات الله الكبرى لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تتم عن طرق الأفراد الذين يعملون في عزلة عن سواهم لكنها تتم بواسطة مجموعات من المفديين الذين تآلفوا واتحدوا معاً ليخدموا قضية المسيح ويروّجوها. لذلك عندما ننضم إلى جماعةٍ أرضية من أتباع الله نلاحظ أنها أكثر من مجرد جماعة أرضية. نجد أنها جمعية خلاصية أسسها الله، ويباركها ويسكن فيها وهو يعمل ليخلص العالم من خطيته. إن علاقتنا الكنسية علاقة ذات معنى حقيق وأهمية إذا كانت تلك فكرتنا عن الكنيسة.

ثم عن أعمال العبادة التي نقوم بها تجد معناها وقيمتها في الفكرة التي نحملها عن قصد الله في حياتنا. يظن كثير من الناس أن القصد من أعمال العبادة، أمثال الترانيم، والصلاة، وقراءة الكلمة المقدسة، هي الحصول على شعور أو سرور خاص نتيجة العبادة. والواقع هو أن الكتاب المقدس يبين لنا سبباً واحداً للعبادة- وذلك هو أن نجد من خلال العبادة إرادة الله لحياتنا. إن الغاية من الصلاة والتسبيح وقراءة الكتاب المقدس هي أن تصير لنا شركة مع الله ولنفهم ماذا يريد منا أن نفعله. ليست الصلاة طريقة نستخدمها فنستدرج بها الله ليحقق إرادتنا، بل إنها طريقة يرشدنا الله بها لنعمل نحن إرادته. قد يقول كثير من المشككين أن إرادة الله مسألة غامضة ولا يمكن الاهتداء إليها، ولكن هناك من يعرفون أن هذا غير صحيح. لأن الذين يسعون بإخلاص ليعرفوا إرادة الله، الذين يعبدون الله ويصلون إليه بإخلاص، يهتدون على تلك الإرادة. إنهم قد لا يجدونها مكتوبة بأحرف تراها العين البشرية في كبد السماء،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولا يسمعونها ألفاظاً واضحة للأذن البشرية، لكنهم يعرفونها عن طريق انطباعات في القلب يعطيها الروح القدس في أثناء العبادة.

على الأساس ذاته، إن جهادنا في طريق البر يكون ذا قيمة ومعنى إذا كان جهاداً يجري في قصد الله في حياتنا. إننا، ونحن نصارع تجارب العالم ونجاهد لنحافظ على حياة البر في العالم، قد نعطى مشجعات ودوافع كثيرة تشد أزرنا. لكن التشجيع الوحيد الذي له معنى حقيقي هو أننا في الصراع يمنحنا الله القوة لنخدمه ونعمل إرادته. إن العقل البشري لا يقبل دائماً أن يتجنب الخطية لمجرد أنها تؤذي من يفعلها ويتوقع لتجنب الخطية سبباً آخر أهم وأعظم. لا يندفع المؤمن في حياته المسيحية بمجرد الخوف من خسارة نفسه في الأبدية، إذ أن لديه التأكيد أنه مخلص. إن الذي يدفع المؤمن في الحياة المقدسة بعيداً عن الخطية دافع داخلي. قد يسقط المؤمن في خطية ما ولكنه لا يستريح إلى ذلك. إن فيه ما يدفعه إلى فوق، وذلك هو حبه لله ورغبته في إرضائه.

لقد رأينا أن قصد الله في الحياة المسيحية عقيدة هامة. إن الحياة المسيحية كلها تدور حول هذا التعليم. إن بإمكاننا أن نتطلع فنرى يد الله عاملة في حياة المسيحيين وبواسطة حياتهم، لا حسبما تشاء الصدف ولكن بموجب اختيار الله القدير في سيادته. إننا نلاحظ بين حين وآخر أن ما نظن أحياناً أنه الإنجاز الذي تم نتيجة لجهودنا هو في الواقع ما تم نتيجة لقوة الله، وهذا يجعلنا نحس بصغرنا وتواضعنا. إن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مجد حياتنا كلها هو في تكريس أنفسنا تكريساً تلقائياً لله وأبينا. وفي هذا التكـــريس وهذه الخدمة نجد تحقيقاً وتكميلاً لحياتنا البشرية، وسروراً وسعادة لقلوبنا، وســـلاماً لأفكارنا يفوق فهم البشر وإدراكهم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008